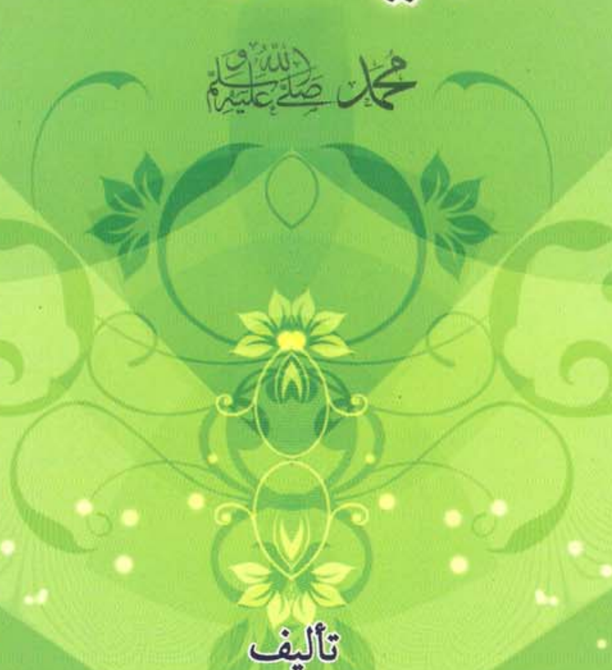
السِّيرةُ المُيَسَّرة لنبي الرحمة



تأليف

د. عبدالله بن عبدالرحمن الخرعان
عضو هيئة التدريس بقسم التاريخ والحضارة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٣١هـ



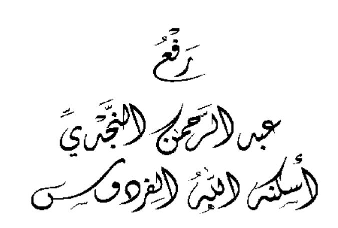
رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

السِّيرةُ المُيَسَّرة لنبي

الرحمة محمد ﷺ



ح) دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع الرياض ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخرعان، عبدالله بن عبدالرحمن زيد

السيرة الميسرة لنبي الرحمة محمد ﷺ / د. عبدالله ابن عبدالرحمن زيد الخرعان - الرياض ١٤٢٨هـ.

٢٥٤ صفحة ١٧×٢٤سم

ردمك: ٦-٢٤٣-٥٨-٩٩٦٠-٩٧٨

١. سيرة النبوية أ. العنوان

ديوي ٢٣٩ ١٤٢٨/٤٨٣٤

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٤٨٣٤

ردمك: ٦-٢٤٣-٥٨-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ص.ب ٢٧٢٦١ الرياض ١١٤١٧

هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨- ٤٧٧٣٩٥٩ - ٤٧٩٤٣٥٤ فاكس: ٤٧٨٧١٤٠

E-mail: eshbelia×hotmail.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

السِّيرةُ المُيَسَّرة

لنبي الرحمة محمد ﷺ

تأليف

د. عبد الله بن عبد الرحمن الخرعان
عضو هيئة التدريس بقسم التاريخ والحضارة
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٤٣٠هـ




بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي اصطفى من عباده رسلاً يهدونهم سبل السلام، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور، القائل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]. أحمده وأثني عليه أن هدانا صراطه المستقيم، وجعلنا مسلمين، وأصلي وأسلم على من بعثه الله رحمة للعالمين وبعد:

فلما أراد الله أن يكون نبيه محمد ﷺ أسوة حسنة لجميع البشرية هيأه لذلك، فجاءت سيرته شاملة شمول دين الإسلام، وكاملة كمال شريعته، وعامة عموم رسالته لكل عصر ومصر. فسيرة كهذه جديرة بالاهتمام والتأمل.

ولا يملك من يطلع على سيرة الحبيب المصطفى ﷺ ويتمعن في أحداثها ـ من المسلمين ـ إلا أن تحرك الإيمان في قلبه، وتأجج عواطف الحب فيه تجاه نبيه العظيم وصحابته الكرام، كما يورث ذلك ـ عند غير المسلمين ـ دواعي الإعجاب والتقدير لهذا النبي العظيم وصحابته الكرام، على ما بذلوه من جهد لإقامة الدين الحق، وإنقاذ البشرية الحائرة.

وجوانب السيرة النبوية متعددة تتعذر الإحاطة بها في كتاب مهما كبر حجمه؛ لذا فليس من المؤمل أن يُلِمّ هذا الكتاب بجميع تلك الجوانب، ولكن آمل أن يكون قد اشتمل على قدر منها بما يعطي المطلع عليه صورة صادقة عن تلك السيرة العطرة، ودافعاً للاستزادة من نبعها العذب، وحافزاً على مواصلة القراءة لأحداثها واستلهام العبر النافعة منها.

وقد حاولت أن أقدم سيرته ﷺ بعرض يختلف عما دأب عليه كتاب السيرة النبوية من سرد أحداثها وفق السنين، فقد قمت بعرض أحداث السيرة النبوية بعد الهجرة بحسب مواقف القوى المعادية للإسلام آنذاك، ليدرك القارئ حجم كل قوة من تلك القوى، وتنوع أساليبها في مواجهة الإسلام، كما حرصت في الحديث عن شمائل الرسول ﷺ على إبراز تعامله مع أعدائه، وهو ما يحتاج المسلمون اليوم إلى تبيينه، لاسيما الناشئة منهم، حتى لا تشط بهم الأفكار المنحرفة عن الهدي النبوي في ذلك.

هذا وقد قدمت المادة العلمية وفق المنهج العلمي الموثق، فاعتمدت على الروايات الصحيحة والمصادر الموثوقة في ذكر أحداث السيرة التي يتأكد فيها الاعتماد على الصحيح من الروايات، وقد آثرت الإيجاز وتحاشيت التفصيل في سرد الأحداث، وقد ضمنت الكتاب عددا من الخرائط والجداول الموجزة للأحداث التي تصل حلقات الأحداث وتغني عن التفصيل، وحاولت أن أقف عند بعض الأحداث المهمة لاستلهام الدروس، واستخلاص العِبر.

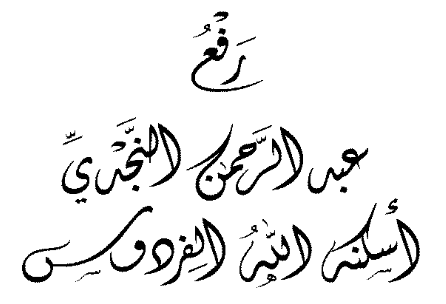
ويأتي صدور هذا الكتاب في الوقت الذي يواجه الإسلام حملات مغرضة لتشويه صورته للصد عنه، وفي الوقت الذي أظهرت بعض المؤسسات والأفراد في الغرب صوراً مسيئة لنبي الهدى ﷺ، أملتها عليهم أحقادهم على الإسلام ورسوله الكريم، فأعمتهم عن الوصول لحقيقة سيرة هذا النبي العظيم وسمو رسالته.

كما يأتي صدور هذا الكتاب - أيضاً - في الوقت الذي جفا كثير من أبناء الإسلام سنة نبيهم، وأشغلهم الافتتان بحضارة الغرب المادية عن إدراك ما في دينهم من مظاهر العَظَمة والفوز في الدنيا والآخرة لو كانوا يعلمون.

لذا آمل أن يسهم هذا الكتاب في الرد على أولئك الحاقدين، ويكشف الحقيقة للحائرين، ويسهم في تبصرة أبناء المسلمين بمظاهر العظمة في سيرة نبيهم ورسالته، ما يحملهم على الاعتزاز بدينهم و التمسك به.

هذا، وقد حاولت أن أقدم مادة هذا الكتاب بأسلوب سهل ميسّر يتناسب مع مختلف الأعمار والمستويات، وسميته "السيرة الميسّرة لنبي الرحمة". فأرجو أن يحقق الغرض المرجو منه، والله أسال أن يخلص النية، ويصلح العمل، ويسدد الخطى، ويجمعنا بحبيبنا المصطفى ﷺ في دار السلام، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

د. عبدالله بن عبدالرحمن الخرعان
a_a_kh_78 xhotmail.com.



الفصل الأول

مداخل عامة

وفيه:

أولاً: أهداف دراسة السيرة النبوية.

ثانياً: حاجة البشر إلى بعثة الأنبياء عليهم السلام.

ثالثاً: مضمون دعوة الأنبياء عليهم السلام.

رابعاً: واجبنا تجاه الأنبياء عليهم السلام.

خامساً: تفاضل الأنبياء عليهم السلام.

سادساً: أهمية سيرة النبي محمد ﷺ، ومظاهر تميزها.

سابعاً: مصادر السيرة النبوية.

أولاً: أهمية دراسة السيرة النبوية:

من خلال دراسة سيرة نبينا وحبيبنا ﷺ يمكننا تحقيق عدد من الفوائد العظيمة والأهداف النبيلة ومن أهمها ما يلي:

[١] تحقيق الاقتداء برسول الله ﷺ الذي أمرنا به الله في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(١) وكذلك تحقيق إتباعه الوارد في قوله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)(٢) وهذا وذاك لا يتحقق إلا بمعرفة سيرته ﷺ والوقوف على هديه في جميع أحواله.

[٢] تحقيق محبة المسلم لربه عز وجل التي علقها الله باتباع رسوله ﷺ بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣) واتباع الرسول ﷺ - كما سبق - لا يتحقق إلا بالوقوف على هديه وسنته من خلال معرفة سيرته ﷺ.

[٣] تحقيق محبة الرسول ﷺ التي لا يكمل إيمان المسلم إلا بها كما جاء في قوله ﷺ: (لَا يُؤْمِنُ أحدكم حتى أَكُونَ أَحَبَّ إليه من وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)(٤) و من مقتضى محبته السير على هداه وهذا لا يتحقق إلا بالتعرف على سنته وأعماله، كما أن الوقوف على ما بذله الرسول ﷺ في سبيل تبليغ رسالة ربه و الدعوة إلى الإسلام، وما تعرض في سبيله من محن وابتلاءات حتى أظهر الله به الدين وأنار به دروب الهدى للسالكين إلى يوم الدين، كل ذلك يورث محبة الرسول ﷺ وإدراك فضله على العالمين.

[٤] الوقوف على تطبيق أحكام الإسلام والتخلق بأخلاقه، من خلال والوقوف على الواقع العملي للمصطفى ﷺ بالتعرف على أعماله وأحواله وتعامله ﷺ.

[٥] زيادة الإيمان في نفس المؤمن بالاطلاع على دلائل نبوته ومعجزاته ﷺ.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية [٢١].

(٢) قال النووي في الأربعين النووية: «هذا حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح».

(٣) سورة آل عمران، الآية [٣١].

(٤) متفق عليه.

[٦] تثبيت المؤمنين وتسليتهم في سبيل ما يعترضهم من محن وابتلاءات في حياتهم الشخصية أو في سبيل تطبيقهم للإسلام ودعوة الناس إليه، فسيرته وحياته ﷺ مليئة بالدروس والعبر في هذا المجال.

[٧] الوقوف على ما بذله الصحابة الكرام ﷺ من مؤازرة للنبي ﷺ ونصرة لدين الله، وما قدموا في سبيل ذلك من تضحيات كبيرة بصورة لم يشهد لها تاريخ البشرية مثيل، وهذا ما جعلهم يستحقون أن يكونوا خير القرون على الإطلاق، كما جاء عن المصطفى ﷺ في قوله: (خَيْرُ النَاس قَرْنِي.)[1] وهذا يستدعي محبتنا لهم والترضّي عنهم والسير على خطاهم.

[٨] الوقوف على صور من الإيمان الحيّ عندما يخالط قلوب البشر؛ فيحولهم إلى أناس غير عاديين في وضوح أهدافهم، وعلو هممهم، وتدفق عواطفهم، وسمو غاياتهم، وعظيم تضحياتهم. وهذا جعلهم - وإن مشوا على الأرض - في اتصال مع الله والملأ الأعلى، فمنهم من اهتز عرش الرحمن لموته، وشاركت الملائكة في تشييع جنازته، ومنهم من نزلت الملائكة لتغسيله حين مات، وآخر تتنزل الملائكة لتسمع ترنمه بالقرآن، ومنهم من يأتي لأجله جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ ليبلغه السلام من ربه، ولم يكن لهم ذلك إلا حين خالط الإيمان الحيّ قلوبهم، وهذا بدوره يحرك عواطف الخير في المؤمن، ويزيد إيمانه إيماناً، ويعمل عمله في قلب غير المؤمن فيدفعه إلى طريق الإيمان.

[٩] دراسة السيرة النبوية خير معين على فهم كتاب الله وسنة رسول الله، من خلال فهم الآيات والأحاديث التي لها صلة بأحداث السيرة ووقائعها.

[١٠] بيان ما كان يتمتع به رسول الله ﷺ من الأخلاق الكريمة، من خلال الوقوف على تعامله مع غيره ابتداء بتعامله مع ربه، ثم تعامله مع سائر البشر من حوله من ذوي قربى،وأصحاب، وخدم، بل حتى مع أعدائه وحرصه على هدايتهم، وحتى مع الحيوان والرفق به، وغير ذلك مما جعله يستحق شهادة الله له بحسن الخلق في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2].

---

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري.

(٢) سورة القلم، الآية [٤].

ثانياً: حاجة البشر إلى بعثة الأنبياء والرسل:

بعث الله الأنبياء عليهم السلام إلى الناس لغايات عظيمة، وأهداف سامية، من أهمها:

[١] تعريف البشر بخالقهم، والحكمة من وجودهم:

إن أرباب العقول المتأملين في هذا الكون العظيم، بأرضه، وسمائه، وأفلاكه، وما فيه من أحياء، وما يحويه من آيات عظيمة، يدركون أن له خالقاً عظيماً، ومدبّراً حكيماً، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١]. ولكنهم لا يدركون صفات هذا الخالق، ولا يعرفون حقيقته؛ إذ ليس بمقدور عقولهم معرفة ذلك، وإدراكه بالتفصيل. ولقد ضلّ من أراد التعرف على الله، أو وصفه باجتهاد منه. فهناك من قال بوحدة الوجود، وهناك من يزعم بأن الطبيعة هي المتصرفة بنفسها، وهناك من جعل لله ولداً، وهناك من يعتقد في بعض المخلوقات النفع أو الضر، كالنور أو الظلام، وغير ذلك من الانحرافات. لذا كان لابد من إرسال الرسل؛ لتعريف البشر بخالقهم، وتعليمهم صفاته، كما جاءت عنه سبحانه وتعالى.

وكما كان البشر بحاجة إلى الرسل لتعريفهم بخالقهم، فهم أيضاً بحاجة لبيان الهدف، والحكمة، من خلقهم في هذه الحياة، وهو عبادة الله، والسير على صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٢].

[٢] الإخبار بالغيبيات وأحداث الدار الآخرة:

هناك من ينكر الحياة بعد الموت، ويرى أن الموت هو نهاية الأحياء، كما قال الله عن هؤلاء: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[٣]. وهناك من يدرك بفطرته السليمة أن هناك حياة

(١) سورة لقمان، الآية [٢٥].

(٢) سورة الذاريات، الآية [٥٦].

(٣) سورة الجاثية، الآية [٢٤].

أخرى بعد الموت، ولكن هؤلاء لا يعلمون تفاصيل هذه الحياة، لأن أخبارها من أمور الغيب، التي لا يدركها العقل، ولا يمكن التوصل إليها إلا بالنقل الصحيح ممن يعلمها، وهو الله. والرسل هم المخبرون عن الله في ذلك. فهم يبشرون من يعبد الله على حق بالنعيم في الجنة، وينذرون المخالفين لأمر الله بالعذاب الأليم في النار، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[1].

[٣] تصحيح الانحرافات التي تطرأ على البشر:

عندما تطول المدة بعد موت الأنبياء والرسل؛ تتعرض الشرائع التي جاؤوا بها إلى التحريف، ويبدأ الضلال يسري في أممهم؛ فيعم الجهل، ويحل الشرك محل الدين الصحيح؛ فيحتاج الأمر إلى إرسال رسل، يردون البشر إلى جادة الصواب، ويصححون الانحرافات، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا؛ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين[2] كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

ودخل الشرك في حياة الناس حين لبّس الشيطان على بعض بني آدم، واستدرجهم إلى الشرك، وعبادة ما سوى الله. وذلك أنه كان هناك قوم صالحون بين

(١) سورة الأنعام، الآيتان [٤٨-٤٩].

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٦٤. رواه الحاكم في مستدركه، وقال: صحيح. ولم يخرجاه.

(٣) سورة البقرة، الآية [٢١٣].

آدم ونوح، اشتهروا بالصلاح وكثرة العبادة، فجاء بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة، فأوحى لهم إبليس: لو صورتموهم صوراً، تذكركم بهم، وعبادتهم؛ فيزيدكم ذلك نشاطاً في العبادة،كلما نظرتم لهم. ففعلوا. فلما ماتوا نشأ قوم من بعدهم، فأوحى لهم إبليس: بأن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم، فعبدوهم، فبدأ بذلك الشرك.[1]

فنوح عليه السلام أول رسول بعد حدوث الشرك في ذرية آدم، ثم تتابع إرسال الرسل والأنبياء،[2] كل نبي يبعث في قومه، وربما بعث أكثر من نبي ورسول في عصر واحد، كموسى وهارون عليهما السلام، وإبراهيم ولوط عليهما السلام، حتى كان آخرهم وخاتمهم نبينا محمد بن عبد الله ﷺ.

[٤] حاجة البشر إلى بعض الشرائع لضبط حياتهم:

يحتاج البشر في حياتهم إلى بعض الضوابط، التي توفر لهم سبل العيش الآمن السعيد، وتحقق لهم العدل والمساواة في تعامل بعضهم مع بعض، اجتماعياً واقتصادياً، وهذا ما تضمنته الشرائع التي جاء بها الرسل. فنجد بعض الرسل يركز في دعوته لقومه - بعد اهتمامه بالتوحيد - على إصلاح جانب من جوانب الحياة، قومه بحاجة إليه،كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

---

(١) انظر: حول بداية الشرك في ذرية آدم: الشوكاني: فتح القدير: ٥/ ٣٠٠: الألوسي: روح المعاني: ٢٩: ٧٧.

(٢) أصح ما قيل في الفرق بين الرسول والنبي: أن الرسول من أرسل بشريعة جديدة، وأنزل معه كتاب، وأما النبي فهو من بعثه الله ليدعو إلى شريعة من قبله. انظر: كتاب النبوات لابن تيمية: ٢٥٥، تفسير أضواء البيان للشنقيطي: ٥/ ٧٣٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية [٨٥].

ثالثاً: مضمون دعوة الأنبياء:

يشترك جميع الأنبياء والرسل في الدعوة إلى التوحيد الخالص لله تعالى، فهو أول ما دعوا إليه أقوامهم، وأمضوا مدة رسالاتهم مجتهدين في ترسيخ معانيه في حياة أممهم. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾(٢)، وقال: ﴿إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾(٣).

والتوحيد الذي دعا إليه الأنبياء هو توحيد الألوهية: وهو إفراد الله بالعبادة(٤). وهذا التوحيد متضمن لأنواع التوحيد الأخرى، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده، بأن يشهد أن لا إله إلا الله، فلا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلاّ عليه، ولا يوالي إلا له، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله. وذلك يتضمن ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٥). ومما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية [٢٥].

(٢) سورة النحل، الآية [٣٦].

(٣) سورة فصلت، الآية [١٤].

(٤) العبادة كما عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال، مثل: الدعاء، والخوف، والحب، والرجاء، والنذر، والذبح، والتوكل، والاستعانة، إلى غير ذلك من العبادات، التي يجب أن تكون كلها خالصة لله عز وجل. (فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: ص ١٤

(٥) سورة البقرة، الآية [١٦٣]. وانظر كلام ابن تيمية في فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: ١٢،١٣.

﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[1] ،وورد في كثير من الآيات أن الرسل كانوا يفتتحون دعوتهم لأقوامهم بهذا التوحيد، بقولهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[2]».

ويؤكد الرسول المصطفى ﷺ اشتراك الأنبياء كلهم في دعوة أقوامهم إلى التوحيد، بقوله: (**إنّا معشر الأنبياء ديننا واحد**)[3].

وهذا التوحيد هو الذي فطر الله الناس عليه، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[4]، وقول الرسول ﷺ: (**يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم**)[5]،وكما قال ﷺ: (**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه**)[6]. وكانت البشرية على هذا التوحيد منذ أن نزل آدم على الأرض، وأخذته منه ذريته جيلاً بعد جيل، واستمروا عليه عشرة قرون، كما سبق ذكره.

رابعاً: واجبنا تجاه الأنبياء عليهم السلام:

كما يجب علينا أن نؤمن بجميع الأنبياء والرسل الذين ذكرهم الله في القرآن[7]، والذين لم يذكرهم، ويقتضي الإيمان بهم أن نقدرهم ونحترمهم ولا نفرق - في الإيمان - بين أحد منهم، فلا نجحد نبوة أحد منهم، لقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان [١٦٢- ١٦٣].

(٢) سورة الأعراف، الآيات [٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥]، وسورة هود، الآيات [٥٠، ٦١، ٨٤].

(٣) فتاوى ابن تيمية ١/ ٣٥٧.

(٤) سورة الروم، الآية [٣٠].

(٥) صحيح مسلم: كتاب الجنة:٨/ ١٥٨، ١٥٩.

(٦) صحيح البخاري: كتاب الجنائز:٣/ ١١٨، صحيح مسلم: كتاب القدر: ٨/ ٥٢، ٥٣.

(٧) وعددهم خمسة وعشرون هم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وشعيب، وأيوب، وذو الكفل، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

رَبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1]. ولكن ليس لنا أن نتبع سوى شريعة خاتمهم محمد بن عبدالله ﷺ؛ لأن شريعته ناسخة لجميع الشرائع التي جاء بها الأنبياء والرسل من قبله. لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2] وقوله ﷺ: (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار)[3].

خامساً: تفاضل الأنبياء:

يتفاضل الأنبياء عليهم السلام في الدرجة، والمنزلة، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[4]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[5]، وأفضلهم على الإطلاق محمد ابن عبدالله ﷺ؛ لأن الله اصطفاه واختاره ليختم به أنبياءه، ويجعل دينه أكمل الأديان، وأعظمها، لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[6]، وقوله ﷺ: (فضلتُ على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً

---

(١) سورة البقرة، الآية [٢٨٥].

(٢) سورة آل عمران، الآية [٨٥].

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ: ١/ ٢٤٠.

(٤) سورة البقرة، الآية [٢٥٣].

(٥) سورة الإسراء، الآية [٥٥].

(٦) سورة الفتح، الآية [٢٨].

ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون)[1] وقوله ﷺ: (أنا سيد الناس يوم القيامة)[2].

وعلى الرغم من أن نبينا محمد ﷺ آخر الأنبياء إلا أن ذكره وفضله قد شاع، وسبق ظهوره. فقد ورد ذكره وفضله على لسان بعض الأنبياء، وذُكر في بعض الكتب السماوية، كالتوراة والإنجيل، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3]، ومن ذلك حديث أبي أمامة رضي الله عنه حين قال: قلت يا نبي الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: (دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورأت أمي نوراً أضاءت منه قصور الشام)[4]. ودعوة إبراهيم هي التي ورد ذكرها في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[5]، وبشارة عيسى هي ما ورد في القرآن الكريم على لسانه في قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[6].

(١) صحيح مسلم: كتاب المساجد / ٥.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء / ٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية [١٥٧].

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند: ٥/ ٢٦٢، والطبراني في المعجم الكبير: ٧٧٢٩، والبيهقي في الدلائل: ١/ ٨٤، وابن سعد في الطبقات: ١/ ١٠٢. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: ٨/ ٢٢٢: إسناد أحمد حسن وله شواهد تقويه. ولمزيد من تخريج هذا الحديث وشواهده انظر: صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي: ٢٥.

(٥) سورة البقرة، الآية [١٢٩].

(٦) سورة الصف، الآية [٦].

سادساً: تميز سيرة النبي محمد ﷺ عن سير غيره:

شهد تاريخ البشرية منذ القدم- ولا يزال يشهد- عدداً من بني البشر، الذين برزوا في مجتمعاتهم، وعلا ذكر سيرهم بين أقوامهم،كالملوك العادلين، والقادة الأبطال، والزعماء المصلحين، أو الشعراء المبدعين، وأرباب الفكر والاختراع، وغيرهم، ممن اشتهر لدى العامة ذكر سيرهم، وبرزوا على مسرح التاريخ. ولكن هناك طائفة من بني البشر غير هؤلاء، ذكرهم أشرف، وسيرهم أعظم وأعم نفعاً، ذلكم هم الأنبياء. ذلك لأن عظمة سير غيرهم من بني البشر تبدو في جانب، أو جوانب، محدودة الأثر والنفع في حياة البشر، بينما سير الأنبياء والرسل تكون أعم نفعاً، وأشمل أثراً في حياة البشر، وعلى مدى الزمن؛ حيث اختارهم الله واصطفاهم لهداية البشر، وجعل حياتهم نبراساً لأقوامهم، ينير لهم الطريق في هذه الحياة، في جوانبها المختلفة، وجعلهم محلاً للاقتداء، كما قال تعالى بعد ذكر عدد من الأنبياء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]. نعم لقد كانت سير الأنبياء أكمل السير في حياتهم، وبين أقوامهم؛ وبعد مبعث النبي محمد بن عبد الله ﷺ أصبحت سيرته أكمل سير الأنبياء، وأعظمها، وهي السيرة الوحيدة - من بين سير الأنبياء - الصالحة للاقتداء إلى قيام الساعة، وجاء تميز سيرته نبي الرحمة ﷺ من عدة وجوه، نذكر أهمها:

[١] تكامل حلقاتها، ودقة تفاصيل أطوارها، من الولادة حتى الوفاة:

تعد سيرة المصطفى ﷺ السيرة الوحيدة - من بين سير الأنبياء - من حيث: تكامل حلقاتها، ووضوح أطوارها، منذ ولادته حتى وفاته، وتفاصيل أحداثها مدونة معلومة، في جميع مراحل عمره. أما غيره من الأنبياء فيكتنف سيرهم الغموض، في عدد من مراحل حياتهم. فهناك من الأنبياء من لا نعرف عنهم شيئاً إلا أنّ الله أرسلهم: ﴿وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ

(١) سورة الأنعام، الآية [٩٠].

﴿مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[1]. أما الذين ذكرت أسماؤهم في القرآن، فمنهم من لا نعرف عنه إلا الاسم، والكثير منهم لا نعرف من سيرهم إلا حوارهم لأقوامهم، ومعجزاتهم التي أيدهم الله بها. وحين نتبين سيرة كل من موسى وعيسى عليهما السلام بحكم أن سيرتهيما أشهر سير الأنبياء قبل نبينا محمد عليهم السلام، فسنجد أن موسى عليه السلام ـ وهو أشهر رسول لبني إسرائيل، والذي أنزلت عليه التوراة، وأكثر الأنبياء السابقين ذكراً في القرآن الكريم ـ سنجد أن كثيراً من أطوار سيرته مجهول. فنحن لا نعرف عنه إلا مولده والظروف التي أحاطت به، وعيشه في أول عمره في بيت فرعون، ثم هجرته إلى مدين، وزواجه فيها، ومكثه بها عشر سنين، لا نعلم تفاصيل سيرته خلالها، ثم عاد إلى مصر، وفي الطريق أوحى الله إليه، وعاد إلى مصر ليدعو فرعون وملأه، وليرفع عن قومه- بني إسرائيل- ظلم فرعون. وقد بين الله تفاصيل الحوار بين موسى وفرعون، والمعجزات، والآيات، التي لم ينتفع بها فرعون وملأه، ثم هلاك فرعون وملئه، ونجاة بني إسرائيل. ولهذا فإن هناك حلقات مجهولة في سيرة موسى عليه السلام، وفترات غامضة من حياته، اشتملت على كثير من أخلاقه، وعبادته، وتعامله مع من حوله، وغير ذلك مما هو فيه محل الاقتداء، لكننا لا نعلم عنها شيئاً.

أما عيسى عليه السلام، فيقول في شأن سيرته علاّمة الهند في عصره، السيد سليمان الندوي رحمه الله: «ومن أقرب الرسل عهداً بالإسلام عيسى عليه السلام، الذي يزيد عدد المتسبين إليه- بحسب إحصاءات الأوربيين- على عدد الديانات الأخرى، وإن المرء ليستغرب حين يعلم أن شؤون حياته، وأحوال معيشته، أخفى من غيره وأغمض، وقد أسدل الزمان عليها حجاباً، أكثف مما نراه في حياة العظماء الآخرين من الرسل، الذين يعدون من أصحاب الأديان المشهورة». ثم قال: «إن عيسى عليه السلام عاش في هذه الدنيا ثلاثاً وثلاثين سنة، كما يروي الإنجيل، والأناجيل الموجودة في الأيدي - على ما في رواياتها من ضعف ولبس - مقصورة على ذكر أحواله لمدة ثلاث

(١) سورة النساء، الآية [١٦٤].

سنوات، في أواخر حياته وحسب. فنحن لا نعلم عن حياته علم اليقين إلا أنه ولد، وجيء به إلى مصر، وأراه الله آية أو آيتين في صباه، ثم غاب عن الناس، وظهر لهم وهو في الثلاثين من عمره... فأين قضى عيسى عليه السلام الثلاثين أو الخمس وعشرين على الأقل من حياته ؟ وفيم قضاها ؟ وبأي الأعمال شغل هذا الفراغ الواسع من عمره ؟ إن الدنيا لا تعلم عن ذلك شيئاً، ولن تعلم..»[1].

أما سيرة نبينا محمد ﷺ، فقد دونت بتفصيل دقيق، وبيان واضح، منذ ولادته وحتى وفاته، بشكل لم يحدث من قبله ولا من بعده. حيث دون فيها أقواله، وأفعاله، وابتساماته، وحتى سكونه وصمته، حال إقامته وسفره، وفي سلمه وجهاده، وفي منزله وخارجه.

وقد أجبرت هذه الميزة الكبيرة لسيرة المصطفى ﷺ غير المسلمين على الاعتراف بها. فقد كتب (جون ديون بورت) في مقدمة كتابه عن السيرة المحمدية سنة ١٨٧٠م وعنوانه "الاعتذار من محمد والقرآن"، قال في مقدمته: «لا ريب أنه لا يوجد في الفاتحين، والمشرعين، والذين سنّوا السنن، من يعرف الناس حياته، وأحواله، بأكثر تفصيلاً، وأشمل بياناً، مما يعرفون من سيرة محمد وأحواله»[2].

ويقول الإنجليزي با سورث سميث: «.. لا شك أن في الوجود شخصيات لا نعلم عنها شيئاً، ولا نتبين حقيقتها أبداً، أو تبقى منها أمور مجهولة. بيد أن التاريخ الخارجي لمحمد ﷺ نعلم جميع تفاصيله، من نشأته إلى شبابه، وعلاقته بالناس، وروابطه، وعاداته، ونعلم أول تفكيره، وتطوره، وارتقاءه التدريجي، ثم نزول الوحي العظيم عليه نوبة بعد نوبة، ونعلم تاريخه الداخلي بعد ظهور دعوته، وإعلان رسالته..»[3].

(١) سليمان الندوي: الرسالة المحمدية: ٥٧، ٥٨. وعن حياة عيسى عليه السلام واختفائه انظر الأمم والملوك للطبري:١/ ٥٩٣ وما بعدها.

(٢) نقلا عن سليمان الندوي: الرسالة المحمدية:٩٨.

(٣) المرجع السابق: ١٢١.

[٢] صحة نقلها وثقة مصدرها:

إن مما يميز سيرة نبينا محمد ﷺ - بالإضافة إلى ما سبق - وصولها إلينا بطرق صحيحة، ومن مصادر بلغت أعلى درجات الثقة والصدق. فمن أهم مصادر سيرته ﷺ: القرآن الكريم؛ حيث ورد فيه جزء كبير من سيرته ﷺ، اشتمل على أوصافه، وأخلاقه، وأطوار دعوته، ووصف بعض معاركه، ومواقف أعدائه من دعوته، وكيف تعامل معهم.

والمصدر الثاني للسيرة النبوية كتب السنة النبوية. وقد دونت السنة النبوية بطريقة فريدة، لم تدون بها سيرة نبي قبله. فما وصل من سيرة موسى وعيسى عليهما السلام لم يدّون إلا بعد مفارقتهما لهذه الحياة. فالتوراة لم تدون إلا بعد موسى بقرون[١]، مما جعلها تتعرض لكثير من التحريف، ودخلها أراء كثير من الكتاب، وبسبب ذلك وقع فيها بعض التناقض. أما الأناجيل فقد دونت بعد رفع عيسى عليه السلام بأكثر من ستين سنة، وتجهل اللغة التي دونت بها، ومن قام بترجمتها، كما دخل التحريف كثيراً من هذه الأناجيل، بعد عدة قرون، على أيدي القساوسة والملوك.

أما سنة نبينا محمد ﷺ فقد دونت في حياته بطريقتين:

الطريقة الأولى: الحفظ المتقن:

حيث تخصص مجموعة من الرواة المؤمنين الصادقين بملازمة الرسول ﷺ، وأوقفوا حياتهم، وفرغوا أذهانهم، لحفظ كل ما يصدر عنه من قول أو فعل أو تقرير، بل حتى وصف أحواله، من تبسمه، ومشيته، وصمته، وغير ذلك. وذلك في سفره وإقامته، بل حتى في بيته[٢]. وقد اشتهر العرب قبل الإسلام بقوة الحفظ، واعتنوا به عناية كبيرة، فاعتمدوا عليه في حفظ تاريخهم، وأشعارهم، وأنسابهم.

---

(١)محمود شاكر: السيرة النبوية: ٣٠.

(٢) وأهم هؤلاء الرواة ﷺ: أبو هريرة، وروى (٥٣٧٤) حديثاً، وعبدالله بن عباس (٢٦٦٠) حديثاً، وأم المؤمنين عائشة (٢٢١٠) أحاديث، وعبد الله بن عمر (١٦٣٠) حديثاً، وجابر ابن عبدالله (١٥٦٠) حديثاً، وأنس بن مالك (١٢٨٦) حديثاً، وأبو سعيد الخدري (١١٧٠) حديثاً.

الطريقة الثانية: الكتابة:

حيث كان عدد من الصحابة رضي الله عنهم يقوم في عهد الرسول ﷺ بكتابة ما يسمعه، ويراه، من سنة الرسول ﷺ. ومن أشهرهم: عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فقد كان يكتب ما يسمعه في صحيفة سماها "الصادقة"، ومنهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي ترك بعد وفاته حمل بعير من كتبه. ثم جاء جيل التابعين الذين نقلوا ما رواه الصحابة، حفظاً، وكتابة، وضربوا في جمع السنة النبوية أمثلة رائعة في التفاني، والدقة. فقد قاموا بالرحلة لتدوين الحديث، وقطعوا المسافات الطويلة من أجل حديث واحد يذكر لأحدهم. ثم تسلم تابعو التابعين المهمة، بالأمانة نفسها، ودونت كتب الحديث، ووضعت الشروط لرواية السنة، حماية لها من التحريف، والكذب[1]. وقد اهتم بعض الرواة والكتاب بجمع ما له صلة بسيرة الرسول ﷺ، واستخلاصها من السنة. إذاً فسيرته ﷺ، دونت في زمن مبكر، ونقلت إلينا بطريقة موثوقة، تجعلها السيرة الوحيدة الصحيحة، الصالحة للاقتداء بها بصورة متكاملة.

[٣] شمولها لجميع جوانب الحياة البشرية:

يختلف البشر في عيشهم في هذه الحياة، فهم أقسام وأنواع عدة، من حيث مراكزهم الاجتماعية، ومن حيث مسؤولياتهم ومهامهم في هذه الحياة، وأوضاعهم في أطوار حياتهم. وكل هؤلاء بحاجة إلى قدوة مثالية جامعة، تتكامل فيها جوانب الحياة البشرية، يتأسون بها في حياتهم. ولا نجد هذه القدوة المتكاملة إلا في سيرة نبينا محمد ﷺ. فما بين أيدينا من سير للأنبياء غيره ينقصها هذا الجانب. فعيسى عليه السلام مثلاً لم يتزوج، ولم تكن له ذرية، كما أنه لم يكن حاكماً يرأس دولة. وفي سيرة موسى عليه السلام، التي بين أيدينا، جوانب ناقصة، تحتاجها الحياة البشرية للاقتداء بها، في الجوانب الاجتماعية، كعلاقته مع زوجه وأهله، وفي الجوانب السياسية، كمنهجه في الحكم، والتعامل المالي، وغير ذلك[2]. أما سيرة محمد ﷺ فهي كما قال سليمان

---

(١) لمعرفة مراحل تدوين السنة انظر: صبحي صالح: علوم الحديث ومصطلحه: ١٤ وما بعدها.

(٢)انظر حول هذا الكلام عن موسى إلى السيرة النبوية لمحمود شاكر: ٢٩،٣٠.

الندوي رحمه الله: «جامعة، يجد فيها الناس كلهم، على اختلاف طوائفهم، الأسوة الكاملة، في جميع ألوان الحياة، وأطوارها»[1].

فيجد فيه الحاكم قدوته في سياسة دولته، والأب يجد فيه قدوته في تربيته لأولاده، والزوج في تعامله مع زوجه، وهو معلم بارع حين يعلم أصحابه، يجد فيه المتعلم قدوته، وهو تلميذ مؤدَّب حين يتلقى الوحي من جبريل، وزاهد صادق في زهده، وتاجر صدوق في تعامله، وعامل أمين في رعيه للغنم، وغني شاكر، وفقير صابر، ويتيم محتاج للرعاية والعطف، كما أنه كان كافلاً للأيتام، راعياً لهم، وهو داع إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، كما أنه مجاهد لا يخشى في الله لومة لائم، وهو عابد لا يمل من التقرب لله بأنواع العبادات، وقائد عسكري محنك له نهجه الخاص في إدارة المعارك، والتعامل مع الأعداء، كان في انتصاره متواضعاً كما كان حال انكساره عزيزاً، إلى غير ذلك من الأحوال البشرية، التي جمعها الله في سيرته، فاستحق أن يكون بذلك قدوة صالحة لجميع بني البشر، في جميع أحوالهم، وأطوارهم. فصلوات الله وسلامه عليه.

سابعاً: مصادر السيرة النبوية:

أولا: القرآن الكريم:

وهو المصدر الأول والأساس لسيرة المصطفى ﷺ، وقد ورد في القرآن من الحقائق والأحداث المتعلقة بالسيرة النبوية، ما يعطي صورة عامة عن سيرة الرسول ﷺ، فورد فيه ذكر لبعض أحوال العرب قبل البعثة من الناحية الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، وطرفا من حياة الرسول ﷺ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾[2] كما ذكر ما كان عليه من خلق كريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[3] وورد فيه ذكر مواقف أعداء الدين الإسلامي

---

(١) الرسالة المحمدية: ١٣٢.

(٢) سورة الضحى، الآيات [٦-٨].

(٣) سورة القلم، الآية [٤].

وأساليبهم في الصد عنه، وجاء فيه طرف من ذكر الهجرة، وذكر المعارك الحربية الكبرى مع المشركين، مثل معركة بدر، وأحد، والأحزاب، وصلح الحديبية، وفتح مكة، وغزوة حنين،وبعض المعارك مع اليهود، وورد فيه ذكر بعض المعجزات النبوية، كمعجزة الإسراء والمعراج.وغير ذلك مما يعطي صورة عامة عن سيرة الرسول ﷺ.

وقد تميز القرآن الكريم كمصدر للسيرة بما يلي:

[١] تفرده بأعلى درجات الصدق؛ إذ هو أوثق كتاب على وجه الأرض، حيث نقل بالتواتر القطعي الموثوق، وتكفل الله بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾(١)

[٢] تميزه بالربط بين مقدمات الأحداث ونتائجها، والتركيز على بيان الأسباب وتعليل العواقب.كبيان سبب ما أصاب المسلمين في أحد بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢)

[٣] الكشف عن خفايا النفوس والإخبار عما تكنه الضمائر، فهو منزل من عند الذي يعلم السر وأخفى، فجاء في معرض ذكر خبر زواج الرسول ﷺ من أم المؤمنين زينب رضي الله عنها: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾(٣).

[٤] وصف المشاعر النفسية التي تبدو من مختلف الأطراف في أجواء بعض الأحداث. يقول تعالى واصفا الحالة النفسية لأهل المدينة من مسلمين ومنافقين في غزوة الأحزاب: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ

(١) سورة الحجر، الآية [٩].

(٢) سورة آل عمران، الآية [١٦٥].

(٣) سورة آل عمران، الآية [١٦٧].

ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[1].

ويبين حالة المنافقين النفسية بقوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾. أما شعور المؤمنين فيبنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[2].

[٥] الإخبار بأمور تخفى على البشر، مثل إخباره بمشاركة الملائكة في القتال في بعض المعارك، وإخباره بوجود مؤمنين في مكة مع الكافرين يخفون إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[3]. وكذلك إخباره بوجود أعداء يخفون أنفسهم عن المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[4].

[٦] بيان الأخطاء وتصويب المواقف التي قد تبدو من الرسول ﷺ أو أصحابه؛ فمثلا حين أخذ الرسول ﷺ برأي من قال بإطلاق أسرى المشركين في بدر مقابل الفداء نزل العتاب وتصويب رأي من قال بقتلهم في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان [١٠-١١].

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان [١٢ و٢٢].

(٣) سورة الفتح، الآية [٢٥].

(٤) سورة الأنفال، الآية [٦٠].

يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١).

ولتمام الاستفادة من القرآن في أحداث السيرة يجدر الرجوع إلى كتب التفسير، خاصة المتقدمة منها كتفسير الطبري وابن كثير ـ رحمهما الله ـ مع التنبه إلى ضرورة تمحيص الروايات لمعرفة الصحيح من غيره.

ثانيا: كتب السنة (الحديث):

تأتي كتب السنة بعد القرآن الكريم ـ كمصدر للسيرة النبوية ـ من حيث الصحة، فقد نالت عناية فائقة من رجال الحديث ـ الذين هيئهم الله لحفظ السنة النبوية ـ حينما وضعوا القواعد والشروط التي تضبط رواية الأحاديث ونقلها عن المصطفى ﷺ وتميز صحيحها من غيره، وذلك من خلال علمي "مصطلح الحديث" و"الجرح والتعديل".

وتأتي في مقدمة كتب السنة من حيث الصحة الكتب الستة: «صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن الترمذي، وسنن ابن ماجه». ويضاف إليها: موطأ الإمام مالك، ومسند الإمام أحمد، فهذه الكتب في الذروة العليا من الصحة والثقة والتحقيق، أما الكتب الأخرى، فقد تضمنت الصحيح والحسن، وفي بعضها الضعيف أيضا.

وإن كان الهدف من تأليف كتب السنة حفظ تعاليم الشريعة وهدي الرسول ﷺ في العبادات إلا أنها تضمنت معلومات كبيرة عن السيرة النبوية نستطيع من خلالها تكوين فكرة عامة عن سيرة المصطفى ﷺ، ولكن هذه المعلومات ينقصها الترتيب الزمني والتسلسل الموضوعي، فالمعلومات عن حادثة واحدة نجدها مبثوثة في ثنايا كل كتاب من كتب السنة بحسب ما يناسب كل جزء من تلك الحادثة لأبواب الكتاب. وهذه الثغرة جاءت كتب المغازي والسير لسدها.

---

(١) سورة الأنفال، الآية [٦٧].

ثالثا: كتب المغازي والسير:

كان الاهتمام بسيرة المصطفى ﷺ منذ عهد الصحابة ﷺ، حيث وجد منهم من وجه اهتمامه بأخبار السيرة النبوية التي كان يطلق عليها "المغازي" ويتضح ذلك من خلال دروسهم، فكان ابن عباس ﷺ يفرد يوما من أيام دروسه للمغازي فقد جاء في وصف سعة علمه أنه كان: (... يجلس يوما ما يذكر فيه إلا الفقه، ويوما التأويل، ويوما المغازي، ويوما الشعر، ويوما أيام العرب...)[(١)] وكان البراء بن عازب ﷺ قد أملى على طلابه شيئا كثيرا من مغازي رسول الله ﷺ[(٢)] إلا أن تدوين المغازي في كتب مستقلة لم يظهر إلا في عهد التابعين ومن بعدهم.ويمكن تقسيم من ألف في المغازي والسيرة إلى فئتين هما:

(أ) كتب السيرة عند رجال الحديث:

وهم كثير يصعب حصرهم ولكن نذكر الرواد منهم وهم:

[١] **عروة بن الزبير:** (ت ٩٤هـ) وهو محدث ثقة، أحد فقهاء المدينة السبعة[(٣)] وقد قام بجهد متميز في إرساء قواعد الكتابة في سيرة النبي ﷺ[(٤)] ويذكر ابن كثير عن محمد بن عمر أن عروة أول من صنف في المغازي[(٥)]. إلا أن كتاب عروة فُقِدَ ضمن كثير من الكتب المفقودة، ولكن من حسن الحظ أنه تم حفظه في عدد من المصنفات التي نقل أصحابها ما جمعه عروة عن طريق عدد من تلاميذه، وقد قام محمد الأعظمي باستخراج ما رواه عروة في المغازي من طريق أبي الأسود[(٦)].

---

(١)ابن سعد: الطبقات الكبرى: ١/ ٣٦٨.

(٢) السلمي:منهج كتابة التاريخ الإسلامي:٢٩٥. اعتمادا على محمد الأعظمي: مغازي رسول الله لعروة بن الزبير:٢٦،٢٥.

(٣) أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة:٥٤.

(٤) السلمي:منهج كتابة التاريخ الإسلامي:٢٩٧.

(٥) البداية والنهاية: ٩/ ١٠١.

(٦) وسماها: "مغازي رسول الله لعروة بن الزبير" طبع مكتب التربية بدول الخليج بالرياض / ١٤٠٠هـ. انظر: السلمي:منهج كتابة التاريخ الإسلامي:٢٩٨.

[٢] أبان بن عثمان بن عفان (ت: ١٠٥هـ) وقد عده كتاب السيرة من رواد مؤسسي علم المغازي، فقد اهتم بجمع مغازي النبي الكريم ﷺ، وأورد ابن سعد[١] خبرا يشير إلى أنه كان لدى أبان مصنف في المغازي، حيث ذكر في ترجمة المغيرة بن عبدالرحمن: «ثقة قليل الحديث إلا مغازي رسول الله ﷺ أخذها من أبان بن عثمان..».

[٣] الإمام محمد بن مسلم الزهري (ت ١٢٤هـ): وهو أحد كبار المحدثين في عصره، وقد كانت له عناية فائقة بمغازي رسول الله ﷺ فجمعها ورتبها حتى أصبح إماما معتمدا فيها، وهذا ما يفسر كثرة الروايات عنه في كتب الحديث في أبواب المغازي والسير[٢]. وهذا ما جعل السهيلي[٣] يقول عن مغازي الزهري: «وهي أول سيرة ألفت في الإسلام» ولعله يقصد بهذا الشمول والترتيب، وإلا فكما سبق أن هناك من ألف في السيرة قبل الزهري كعروة بن الزبير. ومع أن مغازي الزهري في عداد المفقود لكنها حفظت في كتب المصنفين من بعده كما في تاريخ الطبري، والروض الأنف للسهيلي، ومصنف عبدالرزاق،وغيرهم. وقد قام الدكتور سهيل زكار بجمع مرويات الزهري عن سيرة الرسول ﷺ في كتاب ونشرها بعنوان "المغازي النبوية"[٤]

[٤] موسى بن عقبة (ت: ١٤٠ هـ) الإمام الثقة الكبير، أحد تلاميذ الزهري وعنه أخذ علم المغازي، ولمكانة عقبة عند أهل الحديث وثقتهم به فقد تلقوا مصنفه في السيرة بالقبول،فكان الإمام مالك إذا سئل عن المغازي قال: عليكم بمغازي الرجل الصالح موسى بن عقبة، فإنها أصح المغازي.وقال الذهبي: أما مغازي موسى بن عقبة فهي في مجلد ليس بالكبير، سمعناها، وغالبها صحيح ومرسل جيد، لكنها مختصرة تحتاج إلى زيادة بيان[٥]. وقد قال الإمام الشافعي: «ليس في المغازي أصح من كتاب موسى بن عقبة مع

(١) الطبقات الكبرى:٥/ ٢١٠.

(٢) السلمي:منهج كتابة التاريخ الإسلامي:٣٠٢.

(٣) الروض الأنف:١/ ٢٠٥.

(٤) نشر دار الفكر:دمشق، ط ١: ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

(٥) الذهبي سير اعلام النبلاء: ٦/ ١١٥، ١١٦.

صغره وخلوه من أكثر ما يذكر في كتب غيره»[1]، ومغازي عقبة في عداد المفقود ولكنها محفوظة في كتب الحديث، وكتب المغازي والسير التي صنفت بعد عقبة.

[٥] سليمان بن طرخان التيمي: (ت ١٤٣ هـ) أحد رجال الجرح والتعديل المعتبر قولهم في نقد الرجال [2] وأحد الحفاظ المتقنين والعباد المجتهدين. [3] وقد جمع أخبار السيرة وأفردها بمصنف رواها عنه ابنه معتمر. وقد نقل عن هذا المصنف السهيلي في الروض الأنف [4] كما نقل عنه ابن حجر في فتح الباري. [5]

هذه نماذج من كتب المحدثين في السيرة النبوية

(ب) كتب السيرة عند الإخباريين والمؤرخين:

إذا كان رجال الحديث الذين اهتموا بالتأليف في السيرة النبوية قد أسهموا في استقلال السيرة عن غيرها وعنوا بترتيب أحداثها، فإن حرصهم على الارتباط بمنهج المحدثين حدّ من توسعهم في جمع الكثير من أخبار السيرة النبوية، لذا جاءت مؤلفات كثير منهم موجزة مختصرة، وظلت السيرة النبوية تحتاج إلى بيان وتفصيل، وهذا ما جاء في مؤلفات الإخباريين والمؤرخين في السيرة، فقد اهتم هؤلاء بجمع أكبر قدر من الأخبار والروايات المتعلقة بالسيرة بعد تحررهم من بعض قيود المحدثين في قبول الروايات، ومن أشهر هؤلاء:

[١] محمد بن إسحاق: ت (١٥٢هـ): تمكن ابن إسحاق ـ بما أوتي من غزارة علم ـ من جمع مادة غزيرة عن السيرة النبوية لم يتمكن من قبله من جمعها، شملت معلومات عن سير الأنبياء كمقدمة للحديث عن سيرة نبينا محمد ﷺ، وقد ساعده على ذلك تنقله في الأمصار، وحرصه على تتبع الروايات في السيرة وتدوين كل ما سمعه في ذلك من أقوال وأشعار.

---

(١) أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة:٥٥.

(٢)ابن حجر: تهذيب التهذيب:٩/ ٤٥.

(٣) انظر علمه وعبادته في سير أعلام النبلاء: ٦/ ١٩٥ وما بعدها.

(٤) ١/ ٢٧٣،٢٧١. السلمي:منهج كتابة التاريخ الإسلامي:٣١١.

(٥) فتح الباري: ١/ ٣٣. طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

فخرجت سيرته لتغطي بشهرتها وغزارة مادتها ما ألف في السيرة،ومن ثم أصبحت موردا لمن جاء بعده من أرباب السير. "[1].

ولما كان منهج ابن إسحاق في جمعه لأخبار السيرة متساهلا لا يتفق مع منهج المحدثين لذا لم يقبلوا حديثه في مجال رواية الحديث إلا بشروط جعلت رواياته المقبولة في الحديث نادرة، ولكن هناك إجماع على اعتماد قوله في المغازي والشهادة بإمامته فيها[2].

وإذا كان ابن إسحاق قد تساهل في قبول بعض الأخبار الواهية والضعيفة فإن التزامه بالإسناد يمكننا من تمييز تلك الروايات وتمحيصها.وبكل أسف نقول إن كتاب ابن إسحاق في السيرة لم يصل إلينا، ولكن يهون من ذلك أنه حفظ عن طريق رواته في مدونات من جاء بعده.

[٢] **عبدالملك بن هشام:** (ت ٢١٨هـ): وعن طريقه وصلت لنا سيرة ابن إسحاق، فقد رواها ابن هشام عن تلميذ ابن إسحاق زياد بن عبد الله البكائي، ولكن لم يكن أثر ابن هشام مقصورا على النقل فحسب بل قام بتهذيب سيرة ابن إسحاق فحذف بعض الروايات والأشعار التي يرى غرابتها، كما أوجز بعض ما يرى أن ابن إسحاق أطنب فيه دون طائل، وأضاف بعض الأخبار التي وقف عليها مما لم يذكره ابن إسحاق. فأصبحت سيرة ابن إسحاق بعد تهذيب ابن هشام وإضافاته تسمى "سيرة ابن هشام" وغدت المرجع الأوفى والأكمل عن السيرة النبوية وتلقاها الناس بالقبول، وقام عدد من العلماء بشرحها أو تهذيبها وتلخيصها، كشرح السهيلي تـ (٥٨١ هـ) لها في كتابه المسمى (الروض الأنف).

[٣] **الواقدي:** (ت ٢٠٧هـ)، وهو محمد بن عمر الواقدي وألف كتابه في السيرة باسم "المغازي" وقد اشتهر عن الواقدي غزارة العلم والتوسع في جمع المعلومات من أي طريق كان، وتميز بتتبع مواقع الأحداث التاريخية والوقوف عليها بنفسه ووصفها،ولكن إغراقه في التفصيلات، وذكره للغريب والمنكر من الروايات، ونقله عن رجال مجهولين كل ذلك

(١) سليمان العودة: السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق: ٦٠.

(٢) عن أقوال العلماء في ابن إسحاق انظر المصدر السابق: ٥٣ ـ ٥٤.

جعله محل اتهام عند أهل الحديث. ويجمل الذهبي الرأي في الواقدي بقوله: «جمع فأوعى، وخلط الغث بالسمين، والخرز بالدر الثمين، فاطرحوه لذلك، ومع هذا فلا يستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم» وقال أيضاً: «وقد تقرر أن الواقدي ضعيف، يحتاج إليه في الغزوات والتاريخ، ونورد آثاره من غير احتجاج....»[1].

[٤] **محمد بن سعد الزهري:** (ت٢٣٠ هـ)، وهو تلميذ الواقدي ولكنه أوثق منه عند رجال الحديث،وجاء مؤلفه في السيرة النبوية ضمن كتابه الكبير "الطبقات الكبرى" حيث خص المجلد الأول والثاني بالحديث عن سيرة الرسول ﷺ، ويعد كتابه في السيرة من أوثق الكتب لمكانة صاحبه عند المحدثين وضبطه للإسناد.

[٥] **محمد بن جرير الطبري:** (ت:٣١٠هـ)، وهو من المؤرخين الذين عنوا بالكتابة في سيرة المصطفى ﷺ وهو محدث وفقيه، وجاء كتابه عن السيرة النبوية ضمن كتابه عن التاريخ العام "الرسل والملوك" وقد اعتمد على ابن إسحاق في روايته لأحداث السيرة النبوية.

[٦] **إسماعيل بن كثير:** (ت: ٧٧٤هـ)، وهو مؤرخ ومحدث ومفسر كبير، وقد كتب عن السيرة النبوية ضمن كتابه عن التاريخ العام (البداية والنهاية) وعلى الرغم من أنه اعتمد كثيرا على ابن إسحاق إلا أنه استفاد من صلته الكبيرة بالحديث في الوقوف عند كثير من الأخبار وتمحيصها والتعليق عليها مما أضفى على سيرته أهمية كبيرة.

رابعا: كتب الشمائل:

كتب الشمائل هي التي تتحدث عن أخلاق المصطفى ﷺ وصفاته، وإن كانت كتب السنة والسيرة قد تضمنت كثيرا من المعلومات في ذلك إلا أنها جاء مبثوثة متفرقة، لذا اهتم عدد كبير من علماء المسلمين رحمهم الله بجمع شمائل الرسول ﷺ وإفرادها بكتب خاصة غير كتب السيرة العامة، حرصا منهم على إبراز أخلاق المصطفى لأمته ليقتدوا بها، ومن هذه المصادر:

* كتاب (**الشمائل المحمدية**) للإمام محمد بن عيسى الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ هـ وقد نال هذا الكتاب اهتمام العلماء بالشرح والاختصار والتعليق، وهو مطبوع.

---

(١) سير أعلام النبلاء:٩/ ٤٦٩،٤٥٤.

* كتاب (أخلاق النبي وآدابه) للحافظ أبي الشيخ عبدالله بن محمد الأصبهاني المتوفى سنة ٣٦٩هـ، وقد سار على طريقة الترمذي، وضم كتابه أحاديث نادرة وفريدة عن حياة النبي ﷺ وهو مطبوع.

* كتاب (الشمائل) لأبي العباس جعفر بن محمد المستغفري المتوفى سنة ٤٣٢ هـ.

* كتاب (الأنوار في شمائل النبي المختار) لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، المتوفى سنة ٥١٦ هـ.وهو من أضخم ما كتب في الشمائل وقد ذكر فيه مؤلفه سبعة وخمسين ومائتين وألفا (١٢٥٧) من الأحاديث والآثار التي تتعلق بشمائل الرسول ﷺ.

* كتاب (زاد المعاد في هدي خير العباد) للإمام ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ[(١)].

خامسا: كتب الدلائل:

وهي الكتب التي اهتمت بدلائل صدق نبوة المصطفى ﷺ وذكر معجزاته الدالة على نبوته الحسية والمعنوية، ومن هذه الكتب:

* **كتاب دلائل النبوة**: لمحمد بن يوسف الفريابي ـ: ٢١٢هـ وهو محدث ثقة، وهو أول من أفرد الدلائل بكتاب. وقد ألف بالعنوان نفسه (دلائل النبوة) كل من أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ) والبيهقي:أحمد بن الحسين (ت: ٤٥٨هـ)

* **كتاب (آيات النبي)** لمحمد المدائني (ت: ٢٢٥)

* وهناك كتب حملت مسمى واحدا هو (أعلام النبوة) وألف بهذا العنوان كل من داود الأصبهانيي (ت: ٢٧٠) و أبي محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم (ت: ٣٢٧هـ) وأبي الحسن علي الماوردي (ت: ٤٥٠هـ) وغيرهم.

والجدير ذكره أن هناك من جمع في مؤلفه بين الشمائل والدلائل ومنها:

* **(الوفا بأحوال المصطفى)**: للإمام عبدالرحمن بن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ).

* وكتاب **(الخصائص الكبرى)** لجلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ).

ومما ينبغي التذكير به هنا أن كثيرا من كتب الشمائل والدلائل حوت روايات وأخبارا بحاجة إلى التحقيق والتدقيق قبل قبولها والأخذ بها.

---

(١) عن مصادر وكتب شمائل المصطفى ﷺ انظر: فاروق حمادة: مصادر السيرة النبوية وتقويمها: ٤٢، ٤٣ . مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٧٣٥.



الفصل الثاني

المصطفى ﷺ قبل البعثة

وفيه:

- نسبه.
- مولده.
- رضاعته في ديار بني سعد.
- حادثة شق الصدر.
- وفاة أمه وجده وتوغله في اليتم.
- الاعتماد على النفس ورعي الغنم.
- سفره إلى الشام وقصة الراهب بحيرى.
- أخلاقه ومكانته قبل البعثة.
- الزواج السعيد.

نسبه:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة، وينتهي نسبه إلى عدنان، وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة. (١)

فنسبه من جهة أبيه وأمه يرجع إلى أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام. فنسبه في أعلى درجات الأصالة والشرف. وقد خصه الله بذلك واصطفاه، حيث يقول ﷺ في شرف نسبه: (**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**)(٢).

فهو صفوة من صفوة، وخيار من خيار. وفي ظهور النبي ﷺ من أسرة رفيعة الشأن، عريقة النسب، حِكمٌ عظيمة منها:

[١] أن في ذلك عاملاً من عوامل نجاح الدعوة في أول أمرها؛ حيث كان للعصبية القبلية وزنها عند العرب، بدليل أن من أسلم في أول الأمر- ممن لا عصبية له- لقي من العذاب أشد من غيره. وعلى الرغم من أن محمداً ﷺ وجد من أقرب الناس له أشد الأذى - كأبي لهب- إلا أنه وجد مزيداً من العناية والحماية من عمه أبي طالب، ما مكنه من تخطي عقبات كبيرة، في سبيل تبليغ الدعوة.

[٢] كما أن في شرف هذا النسب النبوي رداً على من يفكر في اتهام النبي ﷺ في دعوته، أو في بعض تعاليم شريعته، بأنها جاءت كرد فعل لواقع اجتماعي كان يعيشه، كما هو شأن كثير من أصحاب الدعوات المادية، كماركس، وغيره، ممن كانت دعواتهم ردود فعل لما عانوه في واقع حياتهم. فلو كان ﷺ وضيعاً في نسبه لفسر أعداؤه دعوته على أنها محاولة لتعويض ما يشعر به من نقص في واقعه، وعلى أن ما يدعو له من مساواة، إنما هو سعي منه لرد اعتباره، ومن هم على شاكلته.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: تعليق محمد محيي الدين عبد الحميد:١/ ١. أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ٩١،٩٠. إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية: ١٩، ٢٠.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الفضائل: باب فضل نسب النبي ﷺ.

مولده:

ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين، في عام الفيل[1] بلا خلاف. أما تاريخ اليوم فمختلف فيه، والأشهر أنه ولد في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، الموافق سنة ٥٧٠ للميلاد. ولم يقدر الله لهذا المولود الجديد أن يرى والده عبد الله، الذي توفي قبيل ولادة ابنه، وهو يقوم بمهمة لوالده عبد المطلب في المدينة. وكان عبد المطلب - والد عبد الله - خير معين لزوجة ابنه "آمنة" في تولي أمر هذا الوليد الجديد، فسُر بمولده، وسمّاه محمداً.[2]

المسلمون والمولد:

لا شك أن اصطفاء الله لنبيه محمد ﷺ كان رحمة للعالمين، ومولده كان خيراً للبشر أجمعين، وبه استبشر الكون، كما قال شوقي:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وضياء

ولكن، هل نجعل لوقت هذا المولد مزية عن غيره من الأوقات، فنحتفل به كل عام، ونجعل منه مناسبة دينية لها طقوسها واحتفالاتها؟! فهذا ما ينهى عنه علماء الشريعة المحققون[3]، لأمور منها:

---

(١) هو العام الذي قدم فيه أبرهة الحبشي من اليمن ليهدم الكعبة، ويتقدم جيشه الفيل، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير: ١/ ٢١٠.

(٣) عامة علماء أهل السنة من المتقدمين والمتأخرين يقولون ببدعة المولد ومنهم على سبيل المثال لا الحصر: الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية قال في بعض فتاويه: «وأما اتخاذ موسم غير المواسم الشرعية كبعض ليالي شهر ربيع الأول التي يقال أنها ليلة المولد أو بعض ليالي رجب أو ثامن عشر ذي الحجة أو أول جمعة من رجب أو ثامن شوال الذي يسميه الجهال "عيد الأبرار" فإنها من البدع التي لم يستحبها السلف ولم يفعلوها والله سبحانه وتعالى أعلم» الفتاوى: ٤/ ٤١٤. والإمام أبو حفص تاج الدين الفاكهاني رحمه الله المتوفى سنة ٧٣٤هـ وله رسالة بعنوان "المورد في عمل المولد"، والإمام ابن الحاج الفاسي المالكي المتوفى بالقاهرة (٧٣٢هـ) قال في كتابه المدخل: «فصل في المولد: ومن جملة ما أحدثوه من البدع، مع اعتقادهم أن ذلك من أكبر=

[١] أن هذا يدخل في أمور العبادة، والعبادة توقيفية، لا بدّ فيها من نص، من كتاب، أو سنة، أو إجماع، وليس في ذلك شيء، بل تعارضه النصوص، كقوله ﷺ: **(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)**[١].

[٢] أن في ذلك تشبه بالنصارى في الاحتفال بعيد ميلاد المسيح عليه السلام، وقد نهى الرسولﷺ عن ذلك، كما قالﷺ: **(لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم)**[٢]. وفي

=العبادات وأظهر الشعائر ما يفعلونه في شهر ربيع الأول من المولد وقد احتوى على بدع ومحرمات جملة» (المدخل:/٢-١٠ ٢). وشيخ الإسلام المجدد محمد بن عبدالوهاب رحمه الله. والشيخ محمد بخيت المطيعي الحنفي مفتي الديار المصرية عام ١٣٣٤هـ ١٩١٤م. والشيخ على محفوظ أحد كبار علماء الأزهر ت١٣٦١هـ في كتابه الإبداع في مضار الابتداع.والإمام الشاطبي المالكي وله كلام نفيس في فتوى له في كتاب طبع باسم فتاوى الإمام الشاطبي. والشيخ رشيد رضا في أكثر من موضع في المنار (٩/ ٩٦)، (٢/ ٧٤-٧٦) وفتاواه (الجزء الخامس في الصفحة ٢١١٢-٢١١٥) و(الجزء الرابع في الصفحة ١٢٤٢-١٢٤٣).ومن علماء الهند الشيخ أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي.وشيخه الشيخ بشير الدين القنوجي وله كتاب بعنوان "غاية الكلام في إبطال عمل المولد والقيام" والشيخ محمد بن أحمد عبد السلام خضر الشقيري مؤسس الجمعية السلفية بالجيزة بمصر في كتابه: السنن والمبتدعات في الأذكار والصلوات. والشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتى الديار السعودية في عصره، له رسالة في إنكار عمل المولد. انظر مجموع فتاواه (٣/ ٤٨-٩٥) والشيخ عبد العزيز بن باز له رسالة في حكم الاحتفال بالمولد النبوي.والشيخ إسماعيل الأنصاري له رسالة بعنوان(القول الفصل في حكم الاحتفال بمولد خير الرسل).والشيخ محمد بن صالح العثيمين.والشيخ صالح الفوزان.ومحدث العصر الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.ة والشيخ محمد الغزالي في كتابه (ليس من الإسلام) حيث يقول: «والتقرب إلى الله بإقامة هذه الموالد عبادة لا أصل لها... ومن ثمّ فنحن نميل إلى تعميم الحكم على هذه الموالد جميعاً ووصفها بأنها مبتدعات تُرفض ولا يُعتذر لها... إن إلغاء الموالد ضرورةٌ دينيةٌ ودنيويةٌ...» ومن الكويت الشيخ حامد بن عبدالله العلي له فتوى في موقعه الإلكتروني بعنوان "الرد على من أجاز الاحتفال بالمولد النبوي" وغيرهم كثير لا يتسع المجال لذكرهم.

(١) صحيح البخاري: الاعتصام / ٢٠، وصحيح مسلم: أقضية / ١٧،١٨.

(٢) صحيح البخاري: أنبياء / ٤٨.

المولد يحدث من بعض المحتفلين إطراء ومدح للرسول ﷺ، بما لا يليق إلا بالله. كما في قصيدة البوصيري[1] التي تردد غالباً في المولد، ومنها قوله:

يا أكرم الرسل ما لي من ألوذ به — سواك عند حدوث الحادث العمم
فإنّ من جودك الدنيا وضرتها — ومن علومك علم اللوح والقلم

وقول محمد بن أبي بكر البغدادي في ديوانه (القصائد الوترية في مدح خير البرية):

ذهاباً ذهاباً يا عصاةُ لأحمد — ولوذوا به مما جرى وتعوَّذوا
ذنوبكم تُمحى وتعطون جنة — بها دُرَرٌ حصباؤها وزمرد

[٣] أصحاب النبي ﷺ هم أعظم الناس حباً له، وأشد اتباعاً لسنته رضي الله عنهم، ومع ذلك لم يقيموا الاحتفال بالمولد، وكذلك لم يفعله التابعون من بعدهم، بل أُحدث هذا في العصور المتأخرة، وأول من أحدثه حكام الدولة العبيدية في مصر في القرن الرابع الهجري وقد أجمع علماء أهل السنة على ضلال مذهب حكام هذه الدولة.

[٤] أن تعظيم الرسول ﷺ، ومحبته، يكمن في اتباع سنته، والاقتداء به، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، وليس من حق النبي ﷺ علينا أن نقصر حبه وتعظيمه وتذكره على يوم واحد في السنة.

[٥] إذا كان اختيار تاريخ مولد الرسول ﷺ للاحتفال به لأنه أعظم حادث في حياته، فهذا ليس مسلم به، فنزول الوحي عليه ﷺ وبعثته أعظم من مولده، فمولده أدخله في عالم الإنسانية، ومبعثه أدخله في عالم النبوة والرسالة، ومقامهما أشرف وأعظم، كما أن حدث الهجرة به أعز الله الإسلام وأقام دولته، وقد اختاره الصحابة دون مولد الرسول ﷺ ليكون حدثا يؤرخ به المسلمون. فاختيار المولد جاء متابعة للنصارى في اختيارهم مولد عيسى عليه السلام.

---

(١) ديوان البوصيري. تحقيق محمد سيد كيلاني، طبع مصطفى الحلبي مصر ١٣٧٤هـ، ص٢٠٠.
(٢) سورة آل عمران، الآية [٣١].

[٦] يستدل من يحتفل بالمولد النبوي بالحديث الذي سئل فيه ﷺ عن صيام يوم الاثنين فقال: (**ذاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فيه ويَوْمٌ بُعِثْتُ أو أُنْزِلَ عَلَيَّ فيه...**)[1]. وفي الحقيقة هذا الحديث الصحيح رد على من يحتفل بالمولد وذلك لأمور:

أولها: أن الرسول ﷺ نص على فضيلة يوم الاثنين وليس تاريخ يوم الولادة أو المبعث، فمن استدل بهذا على المولد يلزمه الاحتفال بكل يوم اثنين.

ثانيا: أن هذا اليوم كما في الحديث شرف بالولادة والبعثة، فعليهم أن يحتفلوا بالمبعث كما يحتفلون بالميلاد.

ثالثا: أن الرسول ﷺ أمر بصوم هذا اليوم (الاثنين) الذي ولد وبعث فيه، ولم يأمر بالاحتفال به، فخير لمن ينتظر العام ليحتفل بمولد الرسول ﷺ أن يصوم كل اثنين فهذا ما يدل عليه الحديث. وهذا أصدق في التعبير عن محبة حبيبنا ﷺ واتباع سنته.

ومن الجدير ذكره أن المحتفلين بالمولد النبوي ليسوا سواء، فمن يكون في احتفالهم شركيات بالغلو في الرسول ﷺ وادعاء حضوره مجالسهم، أشد إثما ممن يكون في احتفالهم المزامير والرقص. ولا يساوى بهؤلاء وأولئك من يقصر احتفاله على سرد سيرة الرسول ﷺ والثناء عليه والدعوة إلى التخلق بأخلاقه، فيقدر للمخلصين منهم حبهم وتعظيمهم لرسول الله ﷺ، لكنهم أخطؤوا في وسيلة التعبير عن ذلك الحب، بمخالفتهم الصحابة وسلف الأمة بتخصيص هذا اليوم من السنة بأعمال يتقرب بها إلى الله، ومشابهة غير المسلمين والسير على نهج الفرق المنحرفة.

ولا نقصد هنا التقليل من عظمة حدث مولد الرسول ﷺ، ولا من فرحة المسلم بالأحداث العظام في تاريخ المسلمين، كأيام انتصاراتهم،بل إن الهدف من دراسة التاريخ الوقوف عند هذه الأحداث العظيمة وأخذ العبرة منها، وحفز الهمم بتذكرها والإفادة منها، وهذا لا يكون عندما نحصر ذلك في وقت محدد بيوم الحادثة، بل يجب أن نصوغ عليه أهدافنا ونصبغ به حياتنا، فمحبة الرسول ﷺ وتذكره، يجب أن يكون في قلب المؤمن في كل وقت. وتقديم طاعة الرسول ﷺ على هوى النفس، والسير على سنته باطنا وظاهرا أصدق في محبة الرسول ﷺ من الحرص على حضور يوم

(١) صحيح مسلم: كتاب الصيام/ باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر.

وليلة تُحيا بالأناشيد والضرب الدفوف والمزامير، وقد يكون من يحرص على إحيائها مخالف لسنة الرسول ﷺ في كثير من جوانب حياته.

رضاعته في ديار بني سعد:

كان من عادة قريش أن تبعث أطفالها إلى البادية؛ ليعيشوا هذه السن المبكرة من أعمارهم بين أحضان البادية؛ حيث فصاحة اللسان، ونقاوة الهواء، وجودة الغذاء - مقارنة بأجواء القرى التي تكثر فيها الأمراض- وليكسبوا من أخلاق أهل البادية القوة، والخشونة، وهذه مهمة في حياة العرب، التي فيها القتال سمة بارزة من سمات حياتهم. لذا، كانت المرضعات من أهل البادية، يأتين بين الحين والآخر، يبحثن عن مواليد جدد في مكة، مقابل أجر يأخذنه على ذلك. وفي العام الذي ولد فيه محمد ﷺ، قدم عدد من المرضعات، وكلما عُرض عليهن رفضنه، لموت والده. والسبب كما قالت مرضعته حليمة: (فقلنا ما عسى أن تصنع بنا أمه أو عمه أو جده). وكانت حليمة السعدية[1] آخر مرضعة قدمت، بسبب ضعف دابتها، فسبقتها المرضعات، وأخذن المواليد الجدد، ولم يبق إلا محمداً، فلم تأخذه أول الأمر ليتمه، ولما لم تجد أحداً قالت لزوجها الذي قدم معها: (والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه).

ومنذ اللحظة الأولى ظهرت بركة الحبيب محمد ﷺ على بيت حليمة؛ فما أن رضع من ثديها حتى درَّ اللبن عليه، وعلى ابنها- وكان ثديها قد جف من اللبن أو كاد- كما كان معهم شارف [2] قد جف ضرعها - هي الأخرى- من شدة هزالها، فدر لبنها تلك الليلة، فشربت حليمة وزوجها، وباتوا تلك الليلة بخير ليلة. فأدرك زوج حليمة أن هذا الوليد ليس مولوداً عادياً، فقال: (يا حليمة، تعلمين والله لقد أصبنا نسمة مباركة). وكانت راحلتها التي قدمت عليها سبب تأخرها عن صاحباتها؛ لما تعاني من الهزال، وفي العودة نشطت حتى سبقت من تقدمها من المرضعات، فتعجبن من أمرها، وقلن: ما شأنها ؟ فقالت: (والله حملتُ عليها غلاماً مباركاً).

(١) هي حليمة بنت الحارث من بني سعد.

(٢) الشارف الناقة المسنة (لسان العرب: شرف)

وتوالت بركة الحبيب ﷺ على بيت حليمة وزوجها. فعندما وصلوا إلى ديارهم- ديار بني سعد- وكانت سنتهم سنة جدب وقحط، وكانت أغنام قومها تروح جياعاً وتعود جياعاً، من قلة المرعى، إلا أن غنم حليمة وزوجها تروح جياعاً وتعود بطاناً شبعى، فيحلبون منها ويشربون.

ولما كان من المعتاد بقاء الرضيع سنتين عند مرضعته، فقد عادت حليمة ومعها زوجها بمحمد بعد سنتين إلى أمه، لا لترده، ولكن لتطلب منها أن تبقيه عندهم مدة أطول، طمعاً في استمرار البركة عليهم، فأذنت آمنة، فعادا به مسرورين[١].

حادثة شق الصدر الأولى:

بعد نجاح حليمة في العودة بمحمد الحبيب ﷺ إلى ديارها حدثت له في بادية بني سعد حادثة شق الصدر وهو في السنة الثالثة من عمره[٢]، وقد أورد الإمام مسلم رحمه الله قصة هذه الحادثة في رواية موجزة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه وصرعه، فشق عن قلبه، واستخرج القلب، وأخرج منه علقة، وقال: «هذا حظ الشيطان منك». ثم غسله في طست من ذهب، بماء زمزم، ثم لأمه[٣]، ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره[٤] - فقالوا: إن محمداً قد قتل. فاستقبلوه وهو ممتقع [٥] اللون). وقال

---

(١) عن أخبار رضاعه ﷺ من حليمة انظر: سيرة ابن هشام: ١/ ١٧٢ ـ ١٧٧ ، وابن حبان: موارد الظمآن: ٥١٢، ٥١٣ ، والطبراني: المعجم الكبير ٢٤/ ٢١٢ ـ ٣٢١٥ ، وأبو نعيم: دلائل النبوة: ١/ ١٩٣ ـ ١٩٦.وانظر تخريج الخبر في السيرة النبوية الصحيحة: لأكرم ضياء العمري: ١/ ١٠٢، ١٠٣ ، و صحيح السيرة النبوية: لإبراهيم العلي: ٣٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ١٧٥ ، ١٧٦. ابن كثير: السيرة النبوية: ١/ ٢٢٧. وذكر ابن سعد وغيره، أن ذلك في السنة الرابعة. الطبقات: ١/ ١١٢.

(٣) جمعه وضم بعضه إلى بعض.

(٤) مرضعته وهي حليمة.

(٥) متغير.

أنس بن مالك رضي الله عنه: (وقد كنت رأيت أثر المخيط في صدره)[1]. ويقول د. أكرم العمري معلقاً على هذه الحادثة: «ولا شك أن التطهير من حظ الشيطان هو إرهاص مبكر للنبوة، وإعداد للعصمة من الشر وعبادة غير الله، فلا يحل في قلبه شيء إلا التوحيد. وقد دلت أحداث صباه على تحقق ذلك؛ فلم يرتكب إثماً ولم يسجد لصنم، رغم شيوع ذلك في قومه»[2].

والجدير ذكره أنه تم شق صدره ﷺ مرة أخرى، ليلة الإسراء والمعراج.

وفاة أمه وجده وتوغله في اليتم:

مكث محمد ﷺ عند حليمة حتى ردته إلى أمه، وهو ابن أربع أو خمس سنين؛ ليعيش بجوار أمه، وينهل من حنانها. لكن الله شاء أن لا ينعم بالعيش في أحضانها طويلاً؛ فقد وافاها الأجل بين مكة والمدينة، بعد رجوعها مع صبيها من زيارة أخواله، وعمره حينئذ ست سنوات. فانتقلت كامل رعايته إلى جده عبد المطلب، الذي كان يحوطه بالرعاية مع والدته. وبعد وفاتها ازدادت عناية الجد بالصبي اليتيم، وخصه بمكانة لم يخصها أحداً من أبنائه، أو أحفاده. إلا أن هذه الحال لم تدم طويلاً؛ حيث توفي جده عبد المطلب بعد وفاة والدته بسنتين، وعمره عليه السلام ثمان سنوات. فكفله عمه أبو طالب، الذي لم يكن بأقل عناية ورعاية له من أمه وجده.

ولا شك أن لله سبحانه وتعالى حكماً عظيمة، في تقلب محمد عليه السلام في مراحل اليتم، التي عاشها في صباه. فلم تكتحل عيناه برؤية والده؛ حيث ولد بعد وفاته، كما لم ينعم بجوار أمه أكثر من ستين، وما كاد حر مصيبة فقده لأمه يتلاشى حتى أصيب بفقد جده، كل ذلك وهو لم يتجاوز السنة الثامنة من عمره. فلعل من تلك الحكم أن الله أراد أن لا يكون لأحد معيّن تأثير كبير في تكوين شخصية وأخلاق الحبيب محمد ﷺ، بسبب طول ملازمته له، بل أراد الله أن يتولى رعايته، وأن يكون اعتماده على ربه منذ نشأته، لا على أحد سواه. ومن كان اعتماده على ربه وتولى الله رعايته فالخير قرينه، والتوفيق حليفه. وإنا لنرى في واقع حياتنا، عدداً من الأيتام، توفى عن بعضهم أحد

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب الإسراء برسول الله.١/ ١٦٦.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ١٠٤، وقال: انظر اجتهاد العلماء في استجلاء الحكمة من الحادثة. والروض الأنف: للسهيلي: ٢/ ١٧٣. وفتح الباري: لابن حجر: ٧/ ٢٠٥.

والديه، أو كلاهما، فرثى من حولهم لحالهم، وتخوفوا على مآلهم في هذه الحياة الدنيا، ولكن اعتماد متوليهم على الله، ورعاية الله لهم، جعلت حياتهم أسعد، وأفضل من غيرهم، ممن حظي برعاية والديه، وكان اعتماده عليهما كبيراً.

الاعتماد على النفس:

رعي الغنم:

بعد وفاة عبد المطلب، عاش الحبيب محمد ﷺ في كنف عمه أبي طالب، وكان أبو طالب كثير العيال قليل المال، ومع ذلك قبل رعاية ابن أخيه، وأسبغ عليه عظيم عطفه، وكبير إحسانه، فأراد محمد ﷺ أن لا يبقى عالة على عمه دون أن يشاركه في تخفيف العبء وتحمل المسؤولية، فكان يتولى رعي الغنم لأهل مكة، مقابل قراريط يأخذها على ذلك. ورعي الغنم هي مهنة الأنبياء عليهم السلام، في بعض مراحل حياتهم، كما قال ﷺ: **(ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)**[1].

مزاولة التجارة:

ولكي يعتمد المصطفى ﷺ على كسب يده ويستغنى بكسبه عمن سواه دخل مجال التجارة لعله يجد فيها ربحا أكثر من رعي الغنم، فورد أنه كان يعمل في التجارة قبل البعثة شريكا للسائب بن أبي السائب المخزومي، فلما كان فتح مكة وجاءه السائب قال له ﷺ: **(مرحبا بأخي وشريكي كان لا يداري ولا يماري)**[2]. وقد أسهم حسن تعامل

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الإجارة ، باب: رعي الغنم. وقال ابن حجر رحمه الله قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفون به من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم من الحلم والشفقة، لأنهم إذا صبروا على رعيها، وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره ،كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها، واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة، لما يحصل لهم من التدرج على ذلك برعي الغنم. (فتح الباري: ٤/ ٤٤١)

(٢) مسند الإمام أحمد: ٣/ ٤٢٥. المصنف لابن أبي شيبة:٧/ ٤١٠

النبي ﷺ في نجاحه في ميدان التجارة مما جعله يلفت الأنظار إليه، وهذا ما دعا خديجة بنت خويلد تختاره ليتاجر بمالها عدة مرات[1].

سفره إلى الشام وقصة بَحِيرَى الراهب:

حين قارب الحبيب محمد ﷺ الثانية عشرة من عمره، سافر مع عمه أبي طالب، في قافلة تجارية إلى بلاد الشام، وحينما شارفوا على بلاد الشام كان أحد الرهبان واسمه "بَحِيرَى" يرقب القافلة من ديره[2]، فرأى عجباً! رأى غمامة تسير مع القافلة، فدفعه ذلك إلى أن يستوقفهم، ويدعوهم إلى طعام صنعه لهم، وأخذ يتفحص القوم، حتى أخذ بيد الفتى محمد ﷺ، وقال: هذا سيد العالمين. وذكر لهم علامات النبوة التي ذكرت عند أهل الكتاب، مثل: خاتم النبوة الذي بين كتفيه، وناشد عمه أن يعود به، وحذره من اليهود، والروم، لو يعلمون به[3].

أخلاقه ومكانته قبل البعثة:

على الرغم من أن محمداً ﷺ عاش في مجتمع اختلطت فيه محاسن الأخلاق بسيِّئها، إلا أن الله اصطفى له أحاسنها وصانه من الوقوع في سيِّئها؛ مما أكسبه مكانة رفيعة في نفوس الناس، كبيرهم وصغيرهم. وأهم تلك الأخلاق:

[١] كرهه للأصنام، فلم يسجد لصنم من الأصنام قط، ولم يكن يأكل مما يذبح لها، بل كان يكرهها كرهاً شديداً، فحين يسأله أحد باللات والعزى كان يقول له: **(لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئاً بغضهما)**[4].

---

(١) سنن البيهقي: ٦/ ١١٨. ورواه الحاكم في المستدرك وصححه:٣/ ٢٠٠(نقلا عن المكتبة الألفية للسنة النبوية).

(٢) الدير مكان يعتزل فيه الرهبان للعبادة بعيداً عن الناس.

(٣) عن قصة سفر الرسول إلى الشام وحديث الراهب بحيرى انظر: سنن الترمذي:٥/ ٢٥٠ حديث:٣٦٢٤، وصحيح سنن الترمذي للألباني:٣/ ١٩١، وقال عنه: صحيح. وأنكر بعض المحققين قصة الراهب بحيرى مثل الذهبي وابن كثير رحمهما الله. انظر التفاصيل. مهدي رزق الله: السيرة النبوية:١١٩.

(٤) الطبقات الكبرى لبن سعد:١/ ١٥٤.

[٢] الصدق في القول، والعمل، وحسن أداء الأمانة، حتى أصبح "الأمين" لقباً يميزه عن غيره.

[٣] بعده عما كان يمارسه أقرانه الشباب من اللهو والطرب. فقد همَّ مرة أن يسمر ليلة كما يسمر الفتيان، فترك غنمه التي يرعاها عند صاحب له من الرعاة، فلما دنا من مكة أخذه النوم، فما أفاق إلا على حرّ الشمس، ثم فعل ذلك ليلة أخرى فعصمه الله بالنوم أيضاً. ويقول ﷺ في ذلك: (**فما هممت بعدها بأمر سوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته**)(١).

[٤] مشاركة قومه في عظائم الأمور. فعندما كان عمره ﷺ بين الخامسة عشرة والعشرين سنة نشبت حرب الفِجار بين قريش وكنانة من جهة وقيس عيلان من جهة، وكانت مشاركته فيها غير مباشرة حيث كان أعمامه يخرجونه معهم، فكان يرد نبل عدوهم عنهم(٢).

وحضر ﷺ - وعمره عشرين سنة - حلفاً عقدته قبائل قريش فيما بينها في دار عبدالله بن جدعان، يدعى حلف الفضول، تعاهدوا فيه على أن لا يجدوا مظلوماً في مكة- من أهلها أو من غيرهم- إلا كانوا معه على من ظلمه، حتى يردوا له حقه. قال ﷺ عن هذا الحلف: (**شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكثه**)(٣).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: ٤/ ٢٤٥، وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. العلي: صحيح السيرة النبوية: ٤٣.

(٢) وحرب الفِجار وقعت بين قريش ومن معهم من كنانة، وبين قيس عيلان. وسميت بذلك لانتهاك حرمة الأشهر الحرم وانتهاك المتحاربين للحرمات. عن حرب الفجار انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٢٠١ ، السيرة النبوية لابن كثير: ١/ ٢٥٥. ولم يرد خبر مشاركة الرسول ﷺ في حرب الفجار بسند صحيح، وإنما أورده ابن هشام بإسناد منقطع.

(٣) مسند الإمام أحمد: ١/ ١٩٠_١٩٣، والحاكم في المستدرك: ٢/ ٢١٩،٢٢٠ وقال حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وصححه الألباني: السلسلة الصحيحة: ٤/ ٥٢٤. وفي رواية: (ولو دعيت به في الإسلام لأجبت). البداية والنهاية لابن كثير: ٢/ ٩٢.

وحين بلغ الخامسة والثلاثين من عمره قامت قريش بتجديد بناء الكعبة، فكان يشارك قومه في أعمال البناء، ويقوم بنقل الحجارة.[1] وتجلت مكانة المصطفى ﷺ ورجاحة عقله وحكمته في حادث رفع الحجر الأسود. فحين بلغ البناء موضع الحجر الأسود وأرادت قريش أن تضعه مكانه، حدث بينهم خلاف، حول من يتشرف بوضعه في مكانه. كل قبيلة منهم تريد هذا الشرف. وانتهى خصامهم بتحكيم أول داخل للمسجد من باب بني شيبة لحل خلافهم. فكان محمد ﷺ أول داخل، فاستبشروا بدخوله، وقالوا: (أتاكم الأمين). فأمر بكساء، فوضع الحجر في وسطه، ثم أمر كل قبيلة أن تأخذ بطرف منه وأمرهم جميعاً أن يرفعوه، ثم أخذه فوضعه مكانه[2]؛ فأنهى بهذا التصرف الحكيم خلافاً كاد أن يؤدي إلى نزاع وفرقة بين قبائل قريش.

كل تلك الأخلاق العالية، والتصرفات الحكيمة، جعلت الحبيب محمداً ﷺ يتبوأ مكانة في مجتمعه، لفتت الأنظار إليه، وجعلت الناس من حوله يجلّونه، ويحترمونه.

الزواج السعيد:

برز في مجتمع العرب عدد من النساء اشتهر بعضهن بالحكمة ورجاحة العقل، وبعضهن اشتهر بالمتاجرة ووفرة المال، وكانت خديجة بنت خويلد ممن جمعت بين ذلك، فهي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعزى بن قصي، فتجتمع في نسبها مع سيدنا محمد ﷺ في جده قصي بن كلاب. وكانت تستأجر الرجال للمتاجرة بمالها في أسواق الجزيرة العربية، فلما سمعت بأخلاق محمد وكريم صفاته، عرضت عليه أن يخرج ليتاجر بمال لها إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من الرجال. فقبل،

---

(١)صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب كراهة التعري في الصلاة وغيرها ، وفي كتاب الحج، باب فضل مكة وبنيانها.

(٢)مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٢٥، ومستدرك الحاكم: ٣/ ٤٥٨. وانظر تخريج الحديث في السيرة النبوية الصحيحة لأكرم ضياء العمري: ١/ ١١٦ ، وانظر: نسب قريش للزبيري: ٢٣١ ، وابن حزم: جوامع السيرة: ٣٨، ٣٩.

وخروج متاجراً لها، يرافقه غلامها "مَيْسَرة". وعاد محمد ﷺ وقد نجح في مهمته خير نجاح، وحقق لخديجة ربحاً وفيراً.

وقد ذكر ميسرة لسيدته خديجة مزيداً من الصفات الحسنة- التي اكتشفها خلال رحلته- في الحبيب ﷺ. فذكر لها أمانته، وصدقه في المعاملة. فزادها ذلك إعجاباً به، ورغبة في القرب منه، فدعاها ذلك إلى التفكير في الزواج منه. ولم يكن ذلك حباً منها لمجرد الزواج، فقد كان كثير من رجال قريش وأشرافهم يطمعون في الزواج منها، ولكنها ترفض الزواج من أي واحد منهم، أما محمد فقد طمعت في أخلاقه وجميل صفاته، فعرضت عليه الزواج، فوافق على ذلك. ولم تكن موافقته على الزواج منها- وهي أكبر منه- طمعاً في مالها، بل طمعاً في أخلاقها، ورجاحة عقلها، مما يوفر له معها حياة أفضل، ويتوقع منها- أكثر من غيرها- تفهماً لواقعه المتميز عن واقع قومه. وهي قبل ذلك وبعده اصطفاء من الله له لتكون - بما تملكه من صفات متميزة - سنده الذي يشد من أزره، ويخفف من أعباء مهام الدعوة التي تنتظره في مستقبله المرتقب.

وكان عمره حين تزوجها خمساً وعشرين سنة، وعمرها - على المشهور- أربعين سنة، وبقيت زوجته الوحيدة حتى توفيت، وأنجبت له أربع بنات، وابنين اثنين[1].

وقفات حول مكانة خديجة رضي الله عنها:

مكانتها عند الله وعند رسوله:

تبوأت خديجة رضي الله عنها كانة كبيرة في الإسلام، ومنزلة عند الله عظيمة، لما كان لها من شأن عظيم في وقوفها مع النبي ﷺ عندما بعث، تؤمِّن من روعه عند الفزع، وتشد من أزره حين يخذله الناس، وتواسيه بمالها، وتسليه، بما يخفف عنه ما يلاقيه من أعباء في طريق الدعوة، لذا استحقت من الله التقدير والتكريم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (أتى جبريل عليه السلام النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام وطعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها

---

(١) عن زواجه ﷺ بخديجة انظر: مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٢٥، ومستدرك الحاكم: ٣/ ٤٥٨. وانظر تخريج الحديث في *السيرة النبوية الصحيحة* لأكرم ضياء العمري: ١/ ١١٦. وانظر: نسب قريش للزبيري: ٢٣١ ، وابن حزم: جوامع السيرة: ٣٨، ٣٩.

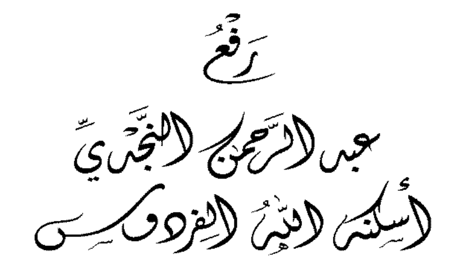
بيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه، ولا نصب)[1]. كما استحقت من الرسول ﷺ حبها، وجميل الثناء عليها، حتى بعد وفاتها. فعن عائشة قالت رضي الله عنها: (ما غِرتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غِرتُ على خديجة، وما رأيتُها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر من ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلتُ له كأن لم يكن في الدنيا إلا خديجة؟) فيقول: **(إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد)**[2].

* توضح مكانة خديجة، ووقوفها بجانب النبي ﷺ، ما للمرأة من مكانة عظيمة في الإسلام، وتحملها المسؤولية الكبيرة في القيام بواجبها تجاه هذا الدين، ونصرته، بما يتناسب مع طبيعتها، منذ اللحظة الأولى لانطلاقة الإسلام، تماماً كما يتحمل الرجل مسؤولياته في ذلك بما يتناسب مع طبيعته. فعلى المرأة المسلمة أن تدرك تلك المسؤولية، ولا تجعل من نفسها صيداً سهلاً لأعداء الإسلام، الذين يدركون خطر أثر المرأة في قوة الإسلام، أو ضعفه، فراحوا يخططون لتكون معولاً يهدم في جسم الأمة المسلمة.

* يبين إكثار النبي ﷺ من الثناء على خديجة، وتعهد صواحبها، ما كان عليه ﷺ من خلق عظيم، يظهر في صدق وفائه لزوجته وأم أولاده، ولو بعد مماتها. ولم يشغله الزواج بعدد من النساء بعدها عن حبه لها، أو نسيان جميلها، فلم يرض لأحب زوجاته، وأقربهن إلى قلبه، أن تنال منها بشيء. وهذا درس لمن يتنكر لزوجته الأولى، وأم أولاده، بمجرد ما يتزوج عليها، فينشغل بمن بعدها عنها، ويهمل شأنها وشأن أولادها، وهم على قيد الحياة. وهذا ولا شك نقص في الدين، ومناف للمروءة.

(١) صحيح البخاري: مناقب الأنصار: باب تزويج خديجة وفضلها، وصحيح مسلم: فضائل الصحابة: باب فضائل خديجة أم المؤمنين.

(٢) صحيح البخاري: مناقب الأنصار / ٢١.



الفصل الثالث

البعثة

وانطلاق الرسالة

وفيه:

- حالة العرب قبل البعثة.
- بدء الوحي. مراحل الدعوة في العهد المكي.
- المرحلة السرية:
- مرحلة الجهر بالدعوة:
- أساليب المشركين في مواجهة الدعوة:
- موقف الرسول ﷺ من الابتلاءات.
- البحث عن نصير للدعوة.
- الدعم المعنوي.

حالة العرب قبل البعثة:

الحالة الدينية:

انتشر في جزيرة العرب قبل الإسلام عدد من الديانات ومن أهمها:

الوثنية:

ظل معظم العرب يدين بعد إسماعيل عليه السلام بدين إبراهيم "الحنيفية" ولكن مع مرور القرون انحرف العرب عنها، وبلغ الانحراف ذروته خلال زعامة خزاعة على مكة، حيث استفحلت الوثنية ولم يبق من معالم الحنيفية إلا بعض المشاعر المتصلة بالحج للبيت العتيق وحتى هذه المشاعر لم تسلم من التحريف. وكان **عمرو بن لحي الخزاعي** أول من أدخل الأصنام إلى جزيرة العرب، قدم بها من الشام ونشرها مستغلا مكانته في الحجاز، فاتخذت كل قبيلة صنماً لها تعظمه، وتفخر به، وأقاموا عليها المعابد، وقدموا لها القرابين. وقد ورد في الحديث بعض ما ناله عمرو بن لحي جزاء نشره عبادة الأصنام وحرفه الناس عن دين إبراهيم عليه السلام، فورد أن الرسول ﷺ رآه في النار يجر قصبه[1].

وكان العرب في وثنيتهم يؤمنون بوجود الإله، ويقرون بأنه خالق الكون ومدبره، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[2]. ولكنهم في وثنيتهم جحدوا توحيد الله بالعبادة، فأشركوا معه الأصنام في العبادة، وزعموا أنها تقربهم إلى الله.

ومن انحرافات الوثنيين إنكارهم للبعث بعد الموت والجزاء بعد البعث، كما ذكر الله ذلك عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[3].

ومن مظاهر الانحراف عند الوثنيين التحاكم إلى الكهنة والعرافين، والتطير، والاستقسام بالأزلام.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المنقب، باب قصة خزاعة. ورواه الحاكم في المستدرك: كتاب الأهوال.

(٢) سورة العنكبوت، الآية [٦١].

(٣) سورة الأنعام، الآية [٢٩].

وكانت الأجيال يتابع بعضها بعضاً في تلقي هذه المعتقدات، دون تفكير، أو مناقشة، في مدى صحتها، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾(١).

اليهودية:

وظهرت اليهودية في جزيرة العرب عل أثر هجرة اليهود من الشام في المرة الأولى فرارا من غزو (بختنصر) البابلي وتخريبه لبيت المقدس سنة ٥٨٧ ق.م. وفي المرة الثانية بسبب الغزو الروماني لفلسطين سنة ٧٠م. وعلى أثر تلك الهجرتين استقر عدد من طوائف اليهود في شمال جزيرة العرب والحجاز في يثرب وتيماء وخيبر وغيرها، فأنشؤوا القرى، وأقاموا الحصون والقلاع.(٢)

وكان لليهودية ظهور في جنوب جزيرة العرب على يد تبان أسعد أبي كرب ملك اليمن الذي مر بالحجاز خلال بعض حروبه واتصل باليهود في يثرب واعتنق اليهودية، وقدم معه بحبرين من أحبار يهود بني قريظة إلى اليمن، وكان لهما أثر في نشر اليهودية هناك.(٣)

النصرانية:

وكان وجودها في جنوب جزيرة العرب في نجران على يد "فيميون" وهو أحد عباد النصارى في الشام وكان زاهدا مجاب الدعوة، وكان يتنقل بين القرى يخفي عبادته كلما ظهر أمره في قرية خرج منها إلى غيرها، وأسره رجال بعض القوافل التجارية وباعوه في نجران، وقد لفت بعبادته وزهده نظر من اشتراه، فدخل في دينه، وفيميون هذا هو الذي هدى الله على يديه الغلام المؤمن (عبدالله بن الثامر) الذي دعا أهالي

(١) سورة الزخرف، الآية [٢٢].

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك:١/ ٥٨٦ـ٥٩٠. تاريخ ابن خلدون ٢/١٠٦، ١٠٧،١٤٠. السمهودي: وفاء الوفاء: ١/ ١٦٠، ١٧٨فؤاد حمزة: قلب جزيرة العرب:٢٥١. نقلا عن الرحيق المختوم:٥٢.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير: ١/ ٢٠-٢٣.

نجران إلى الإيمان بالله وتوحيده، فآمنوا على يديه بالله ودخلوا النصرانية على ما جاء به عيسى عليه السلام من الإنجيل. ولكن حاكم حمير ابن تبان أسعد "ذا نواس" كان متعصبا لليهودية فسعى لإجبار أهل نجران على اعتناق اليهودية بالقوة، فلما لم يستجيبوا له خد الأخدود وأحرقهم فيه بالنار[1]. وهم ممن نزل فيهم قوله تعالى في سورة البروج: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾[2] وتمكن بعض من نجا من القتل من الفرار إلى بلاد الروم، واستنجد بقيصر الروم، فبعث معه رسالة إلى ملك الحبشة النصراني "النجاشي" يأمره بأخذ الثأر لنصارى نجران، فبعث ملك الحبشة جيشا إلى اليمن فساروا إلى ذي نواس وهزموه، وأصبحت اليمن تحت قبضة الأحباش النصارى فعملوا على نشر النصرانية، خاصة بعد تولي "أبرهة الحبشي" الذي بنى في صنعاء كنيسة كبيرة وسعى لصرف الناس إلى الحج إليها وتوجه بجيشه لهدم الكعبة فأرسل الله عليم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل كما جاء ذكره في القرآن الكريم في سورة "الفيل"[3].

وفي الأطراف الشمالية لجزيرة العربية كان للنصرانية وجود، حيث اعتنقتها بعض القبائل نتيجة احتكاكها بالنصارى في شمال الجزيرة التي تخضع لنفوذ دولة الروم النصرانية،وقد شارك أعداد كبيرة من هذه القبائل المتنصر مع الروم في حروبهم ضد المسلمين مثل قبائل: لخم، وجذام،وبلقين،وبهراء، وبَلِي، والغساسنة، وغيرها.

وبجانب تلك الديانات يوجد في الجزيرة العربية وجود ضئيل لبعض الديانات مثل **الصابئة** الذين يعبدون الكواكب، مثل عبادة ملكة سبأ وقومها للشمس.وهناك **المجوسية** في المناطق القريبة من الفرس، كما يوجد أفراد قليلون من الذين أدركوا فساد ما عليه العرب من الشرك، فتعبدوا على بقايا دين إبراهيم عليه السلام. ويسمى

(١) مختصر من السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٢٦-٣٠. وعن قصة الغلام المؤمن انظر: صحيح مسلم/ باب قصه أصاحب الأخدود. حديث/ ٣٠٠٥.

(٢) سورة البروج، الآيتان [٤-٥].

(٣) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٣٦-٥٠.

هؤلاء بالحنيفيين أو الحنفاء[1]. ومن أشهرهم **زيد بن عمرو بن نفيل**، ويوضح بحث زيد هذا عن الدين الصحيح ما وصلت إليه الحالة الدينية من الانحراف عند العرب وغيرهم حتى أصبح العالم بحاجة ماسة إلى نبي جديد يأتي بدين صحيح يهدي البشرية الحائرة إلى الطريق الصحيح.

فعن ابن عُمَرَ: (أنَّ زَيْدَ بن عَمْرِو بن نُفَيْلٍ خَرَجَ إلى الشام يَسْأَلُ عن الدِّينِ وَيَتْبَعُهُ فَلَقِيَ عَالِمًا من الْيَهُودِ فَسَأَلَهُ عن دِينِهِمْ فقال إني لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ فَأَخْبِرْنِي فقال لَا تَكُونُ على دِينِنَا حتى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ من غَضَبِ اللَّهِ قال زَيْدٌ ما أَفِرُّ إلا من غَضَبِ اللَّهِ ولا أَحْمِلُ من غَضَبِ اللَّهِ شيئا أَبَدًا وَأَنَّى أَسْتَطِيعُهُ فَهَلْ تَدُلُّنِي على غَيْرِهِ قال ما أَعْلَمُهُ إلا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا قال زَيْدٌ وما الْحَنِيفُ قال دِينُ إبراهيم لم يَكُنْ يَهُودِيًّا ولا نَصْرَانِيًّا ولا يَعْبُدُ إلا اللَّهَ فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا من النَّصَارَى فذكر مثله فقال لَنْ تَكُونَ على دِينِنَا حتى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ من لَعْنَةِ اللَّهِ قال ما أَفِرُّ إلا من لَعْنَةِ اللَّهِ ولا أَحْمِلُ من لَعْنَةِ اللَّهِ ولا من غَضَبِهِ شيئا أَبَدًا وَأَنَّى أَسْتَطِيعُ فَهَلْ تَدُلُّنِي على غَيْرِهِ قال ما أَعْلَمُهُ إلا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا قال وما الْحَنِيفُ قال دِينُ إبراهيم لم يَكُنْ يَهُودِيًّا ولا نَصْرَانِيًّا ولا يَعْبُدُ إلا اللَّهَ فلما رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ في إبراهيم عليه السَّلَام خَرَجَ فلما بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فقال اللهم إني أَشْهَدُ أَنِّي على دِينِ إبراهيم)[2].

الحالة السياسية:

يمكن تقسيم الحكم في الجزيرة العربية قبل الإسلام إلى شكلين من أشكال الحكم هما: **الملك المتوج و سيادة القبيلة.**

[١] الملك المتوَّج:

المتمثل في قيام دويلات في عدد من أطراف الجزيرة العربية[3]، كدولة المناذرة في "الحيرة" في طرف العراق، ودولة الغساسنة في "بُصرى" في طرف الشام، ودول "معين،

---

(١) مهدي رزق الله:السيرة النبوية:٧٢.

(٢) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة/ باب حديث زيد بن نفيل. تفسير الطبري: ج٣/ ص٣٠٧.

(٣) انظر: هذه الدويلات في ملحق الخرائط.

و سبأ، وحمير" في اليمن جنوب الجزيرة العربية، وذولة كندة في وسط الجزيرة العربية في نجد. إلا أن هذه الدول لم تكن على قدر كبير من الاستقلال، حيث وقعت تحت تأثير النفوذ الأجنبي المتمثل في نفوذ دولتي الروم والفرس اللتين تقاسمتا الزعامة على العالم آنذاك. فقد قبل الفرس منذ عهد "أردشير" العرب بحكم بعض قبائل العرب للمناطق المتاخمة لبلاد العرب، ليتمكنوا من الاستعانة بهم على صد الغارات العربية على بلاد الفرس، كما يجعلوا منهم عائقا أمام أطماع ملوك الروم المنافسين لهم، وكان المناذرة آخر من تولى الحكم في الحيرة من العرب قبل الإسلام. وكذلك الشأن في الشام فقد اصطنع الروم بعض القبائل العربية ليتمكنوا بهم من صد غرات العرب على حدود دولتهم، وليتخذوهم عدة ضد منا فسيهم الفرس، وكان الغساسنة آخر من تولى الحكم في أطراف الشام قبل الإسلام واتخذوا من: "بصرى" قاعدة لهم. أما في جنوب الجزيرة فقد تعرضت اليمن ـ في أواخر حكم دولة حمير ـ لسيطرة النفوذ الأجنبي، فقد تمكن الأحباش من السيطرة عليها حينما بعثوا جيوشهم لاحتلال اليمن ردا على ما فعله (ذو نواس) بنصارى نجران كما سبق ذكره. وظلت اليمن تحت الاحتلال الحبشي منذ سنة ٥٢٥م إلى سنة ٥٧٥م حينما ضعف أمر الأحباش بعد حادثة الفيل فسنحت الفرصة للفرس بالتدخل عندما استنجد بهم بعض أهل اليمن، وانتهت سيطرة الفرس على اليمن بمجيء الإسلام حينما دخل آخر حكامهم ـ باذان ـ في الإسلام[(١)].

[٢] سيادة القبيلة:

كانت معظم مناطق جزيرة العرب خاضعة للسيادة القبلية، حيث تُعدّ القبيلة هي الوحدة السياسية التي ينتمي لها الفرد، فبأمرها يأتمر، وتحكمه أعرافها، ومن أجلها يناضل، وعن شرفها يدافع. كما أن القبيلة بأسرها مسؤولة عن الدفاع عن أفرادها، والذود عن حقوقهم، وعلى كل فرد أن يقف مع أخيه من قبيلته، ظالماً كان أو مظلوماً كما قال شاعرهم:

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك:٢/ ١٢٤ وما بعدها.

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا

وقول الآخر

وهل أنا إلا من غُزَيَّة إن غوت   غويت وإن ترشد غُزَيَّة أرشد

ونتيجة لذلك، نشبت حروب طاحنة بين بعض القبائل العربية، دام بعضها عقوداً من السنين،كان سببها خلاف بين أفراد.كحرب البسوس، وحرب داحس والغبراء، وقد كانت تلك الأوضاع ممهدة لقبول العرب للدين الإسلامي، حيث أفنت تلك الحروب أعداداً هائلة من العرب، وأودت بهم إلى حال سيئة، أصبحوا ينشدون الخلاص منها، فوجدوا ذلك في الدين الجديد.

الحالة الاجتماعية:

تعد الأسرة هي الركيزة الأساس التي يقوم عليها مجتمع جزيرة العرب قبل الإسلام، وكان النكاح على أنواع مختلفة منها الزواج بخطبة ومهر وهو الشائع بينهم وأقره الإسلام، ومنها أنواع أخرى حرمها الإسلام ما هي إلى مظهر من مظاهر الدعارة والزنا[1].

---

(١) روى البخاري في صحيحه: عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: إنَّ النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها، أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومر ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك، يا فلان، تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، ونكاح رابع يجتمع الناس فيدخلون على المرأة، لا تمنع من جاءها، وهن البغايا، كن ينصبن رايات على أبوابهن تكون علماً فمن أرادهن دخل عليهن.

وفي الوقت الذي يحظى فيه الرجل في المجتمع العربي بالسلطة التامة، والمكانة العالية، نجد المرأة مهضومة الجانب مسلوبة الحقوق، ومن أهم مظاهر ظلم المرأة في المجتمع العربي:

[١] كره المرأة والتشاؤم من إنجاب البنات، وقد ذكر الله ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[١] وربما أدى هذا الكره إلى وأد البنات[٢] عند بعض الأفراد، وأنكر الله عليهم هذه العادة الاجتماعية المقيتة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾[٣] ويعود هذا الكره والوأد للبنات إلى الخوف من الفقر، والعار، حيث المرأة معرضة للسبي لكثرة الحروب عند العرب.

[٢] حرمان المرأة من الميراث، ويزعمون أنه لا يرث إلا من يحمل السيف ويحمي البيضة.

[٣] اعتبارها جزءا من متاع الرجل، فإذا مات الرجل وله أبناء من غيرها كان ابنه الأكبر أحق بها من غيره، ففي صحيح البخاري (عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾. الْآيَةَ قال: كَانُوا إذا مَاتَ الرَّجُلُ كان أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقَّ بِامْرَأَتِهِ إن شَاءَ بَعْضُهُمْ تَزَوَّجَهَا وَإِنْ شاؤوا زوجوها وإن شاؤوا لم يزوجوها فَهُمْ أَحَقُّ بها من أَهْلِهَا فَنَزَلَتْ هذه الْآيَةُ)[٤].

ومع هذه النظرة الظالمة للمرأة فقد استطاع عدد من النساء فرض أنفسهن في المجتمع العربي حيث لفتن الأنظار إليهن بما أوتين من رجاحة في العقل والرأي، وحسن تصرف، وشجاعة، كما برز بعضهن في مجال التجارة.

---

(١) سورة النحل، الآية [٥٨-٥٩].

(٢) وأد البنت دفنها وهي حية.

(٣) سورة التكوير، الآيتان [٨-٩].

(٤) وانظر تفسير ابن كثير: تفسير الآية [١٩] من سورة النساء.

وجدير بالذكر أن هذا الظلم التي تعرضت له المرأة في المجتمع العربي تعرضت لمثله أو أشد منه المرأة في المجتمعات الأخرى عند اليونان والمجوس والهنود، مما يؤكد أن الحالة الاجتماعية قبل الإسلام - ليس عند العرب فحسب بل في العالم - قد باتت في حاجة ملحة إلى من يصلحها وهذا ما حققه الإسلام.

أخلاق العرب:

ساد في المجتمع العربي قبل البعثة جملة من الأخلاق والأعراف الاجتماعية، منها ما هو حسن، ومنها ما هو سيئ. ونشير إلى بعض النوعين:

فمن جملة الأخلاق السيئة: انتشار شرب الخمر، ولعب الميسر "القمار"، ووأد البنات عند بعض القبائل، ومنها التطير. وقد حرم الإسلام تلك الأخلاق، وخلّص العرب منها، ووجههم إلى خير منها. فكانوا يلجؤون لشرب الخمر للتخفيف على نفوسهم، مما يجدونه في حياتهم من العناء والهموم، بسبب كثرة موتاهم من جراء الحروب، أو بسبب قساوة المعيشة. فلما جاء الإسلام حرم الخمر لما فيه من المفاسد الكبيرة على الجسم، والعقل، ولأن في الإيمان بالله- بما يزرعه من طمأنينة- خير عزاء للمسلم، فيما يجده من هموم الحياة ومشكلاتها. كما حرم الإسلام وأد البنات، حيث كان سببه يرجع إلى خوف العار عندما تسبى المرأة، والعربي معروف بشدة حرجه عندما يخدش شرفه. أو خوفاً من الفقر. ولكلا الأمرين كان كثير من العرب يكره البنات، ويفرح بإنجاب الأبناء. فلما جاء الإسلام حرم هذا النوع من التعامل مع المرأة، وأبطل كل نظرة تقوم على احتقار المرأة، وكرّمها تكريماً يليق بمكانتها، ويتناسب مع طبيعتها، وجعل وجودها عند الرجل بركة في الدنيا ونجاة في الآخرة، ومن ذلك قوله ﷺ: **(من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كن له سترا من النار)**[1].

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم.

ولكن، كان لدى العرب جملة من الأخلاق الحسنة، التي فاقوا غيرهم فيها: كالشجاعة، والكرم، والوفاء بالعهود، والحفاظ على العرض، وصفاء الذهن، وبساطة العيش. وقد أكد الإسلام على التمسك بتلك الأخلاق، ووجهها توجيهاً سليماً. ولعل العرب بتلك الصفات الحسنة، استحقوا أن ينالوا شرف احتضان الإسلام في سني مهده، وتحمل أعباء انطلاقته الأولى.

نشأة مكة ومكانة قريش:

نشأة مكة:

بدأت نشأة مكة بقصة مجيء سيدنا إبراهيم بزوجته هاجر وابنها الرضيع إسماعيل عليهم السلام إلى موضع مكة، وكانت إذاك وادٍ غير ذي زرع، لا سكن فيه ولا ساكن، وتركهما وحيدين، وحين أبتعد عنهما حيث لا يرونه رفع يديه يدعو الله الذي أمره بذلك قائلا: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[1] وقد استجاب الله دعوة إبراهيم عليه السلام، فقد رضيت هاجر عليها السلام بالواقع حين علمت أنه أمر الله لنبيه، ومكثت أياما مع وليدها حتى نفد زادها وماؤها، وبعد معاناة مع الجوع والعطش والتردد سبع مرات بين جبلي "الصفا" و"المروة" بحثا عن مخرج أرسل الله مَلَكاً من ملائكته فبحث الأرض بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوطه بالتراب وتغرف الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، وذلك ماء "زمزم". فانحلت لها مشكل الطعام والغذاء، فزمزم كما قال ﷺ: (إنها طَعَامُ طُعْمٍ...)[2] ولكن بقيت تعاني الوحدة والوحشة، فمكثت على ذلك حتى مرت فرقة من قبيلة جرهم اليمانية واستدلت بالطير على مكان الماء، فاستأذنوا أم إسماعيل في المقام معها على الماء فأذنت على أن لا يكون

(١) سورة إبراهيم، الآية [٣٧].

(٢) صحيح مسلم: باب فضائل أبي ذر رضي الله عنه.

لهم حق في الماء، فأرسلوا إلى قومهم فجاؤوا فنزلوا، فأنست بهم هاجر واستوطنت جرهم المكان، فلما شب إسماعيل تعلم العربية من جرهم وتزوج منهم.

وقد جاء إبراهيم عليه السلام للاطمئنان على أهله عدة مرات، فجاء مرة ولم يجد إسماعيل فسأل زوجته عن حالهم، فاشتكت إليه ضيق العيش وسوء الحال، فأمرها أن تُقْرِأ ابنه السلام وتقول له: غيِّر عتبة بابك. فلما جاء إسماعيل عليه السلام وأخبرته الخبر قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك وطلقها وتزوج منهم بأخرى. ثم قدم إبراهيم عليه السلام مرة أخرى ولم يجد ابنه، فسأل زوجته عن حالهم، فقالت: نحن بخير وأثنت على الله، فأمرها أن تُقْرِأ ابنه السلام وتقول له: ثبِّت عتبة بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أمسكك. وجاء إبراهيم عليه السلام في المرة التالية ووجد إسماعيل وبعد أن صنع له ابنه ما يصنع الولد لوالده قال له إبراهيم: يا إسماعيل إن الله أمرني، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. فرفع إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام البيت على القواعد التي حددها الله لهما(١)، فلما انتهى البناء توجه إبراهيم إلى ربه بالدعاء: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٢) وقد استجاب الله دعاء إبراهيم هذا ودعاءه الأول فجعل الله أفئدة الناس متعلقة بهذا البيت تأتيه من كل فج عميق، كما جعله آمناً يحترمه القريب و البعيد، وأصبحت الأرزاق تأتي إلى أهله ومن سكن حوله من كل مكان(٣).

(١) كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ سورة الحج، الآية [٢٦].

(٢)البقرة / ١٢٦.

(٣) عن قصة إسماعيل وأمه وبناء البيت انظر: صحيح البخاري: كتاب: الأنبياء. حديث/ ٣١٨٤،٣١٨٥.مسند الإمام أحمد:١/ ٣٤٧.

مكانة قريش[1] عند العرب:

بعث الله إسماعيل رسولا فدعا الناس للتوحيد وعبادة الله، وتوفي بعد أن عمر ما يزيد على مائة وثلاثين سنة، وتولي بعده ابنه نابت، وبعد نابت تولى الأمر جده "مضاض بن عمرو الجرهمي" وظل أمر مكة في جرهم يتوارثونه قرونا طويلة[2] وعلى الرغم من تكاثر أبناء إسماعيل وذريته إلا أنهم لم ينازعوا جرهم الحكم لخؤولتهم لهم وتعظيمهم البيت الحرام. ولكن جرهم مع مرور القرون ظلموا وكثر فيهم الفساد، فكان ذلك مؤذنا بزوال حكمهم، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[3] وكان ذلك على يد قبيلة خزاعة التي نزحت من اليمن ونزلوا حول الحرم فاجتمعوا على حرب جرهم وغلبوهم وأجلوهم من مكة، وكان آخر من تولى أمر جرهم عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي وهو القائل يرثي مصير جرهم:

---

(١) اختلف في مَنْ يطلق عليهم قريش، فقيل هم ولد النضر بن كنانة، وقيل هم ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. واختلف في تسمية قريش بذلك على أقوال كثيرة منها: من التقرش وهو التجمع، لأنه لما فرغ قصي من نفى خزاعة من الحرم تجمعت إليه قريش. وقيل نسبة إلى قريش ابن الحارث بن يخلد بن النضر بن كنانة به سميت قريش فغلب عليها لأنه كان دليلها وصاحب ميرتها فكانوا يقولون جاءت عير قريش وخرجت عير قريش. وقيل سميت قريش لأنهم كانوا أصحاب تجارة ولم يكونوا أصحاب زرع ولا ضرع والقرش الكسب، يقال هو يقرش لعياله ويقترش أي يكتسب.وقيل نسبة إلى سمك القرش كما قال المطرزي: سميت قريش بدابة في البحر هي سيدة الدواب البحرية وكذلك قريش سادة الناس، قال الشاعر:

وقريش هي التي تسكن البحـ ... ـر بها سميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين ولا ... تترك فيه لذي جناحين ريشا
هكذا في البلاد حي قريش ... يأكلون البلاد أكلا كميشا

عن الأقوال في قريش وسبب تسميتها انظر: ابن كثير السيرة النبوية:١/ ٨٤. ابن حجر: فتح الباري:٦/ ٥٣٤. معجم البلدان: ٤/ ٣٣٦.

(٢) ذكر بعض الكتاب أنهم حكموا عشرين قرنا. المبارك فوري: الرحيق المختوم/ ٣٧.

(٣) سورة هود، الآية [١٠٢].

وقائلةٍ والدمعُ سكْبُ مبادرٌ وقد شرقت بالدمع منها المَحاجرُ
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلتُ لها والقلبُ منّي كأنما يلجلجه بين الجنا حين طائرُ
بلى نحن كنا أهلَها فأبادنا صروفُ الليالي والجدودُ العواثر[1]

وتولت خزاعة أمر الحرم ومكة قرابة ثلاثمائة سنة، وفي ولايتهم دخلت عبادة الأوثان في الحجاز ـ كما سبق ذكره ـ وكان بنو إسماعيل قد اعتزلوا الحرب بين جرهم وخزاعة، وكان آخر ولاة خزاعة (حُلَيل الخزاعي) قد زوج قصي بن كلاب القرشي ابنته، وتمكن قصي من انتزاع الولاية من خزاعة حين جمع قبائل قريش المتفرقة واستعان ببعض العرب وحارب بهم خزاعة، وانتهى أمر ولاية البيت الحرام لقصي وهو أول من أظهر شأن قريش وفرض مكانتهم عند العرب، وقد اتخذ عددا من الخطوات في ذلك ومنها:

* جمع بطون قريش ووزع مكة أرباعاً وأنزل كل قوم منهم منازله منها.

* أنشأ "دار الندوة" لتكون مقراً لاجتماع كبار قريش عند حلول الأزمات وفصل الخصومات.

* أنشأ عددا من المهام لخدمة البيت الحرام وقاصديه، **كالسقاية**، حيث اندثرت ماء زمزم في عهد جرهم واحتاج الحجاج إلى الماء فبنى حياضا يملأها بالماء للحجاج. **والرفادة**، ووهي إطعام الحجيج، فقد قال لقومه: يا معشر قريش، إنكم جيران الله، وأهل مكة وأهل الحرم، وإن الحجاج ضيف الله وزوّار بيته،وهم أحق بالضيافة، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم. وكانت لقصي **حجابة البيت**، وكذلك **اللواء** فلا يعقد لواء للحرب وغيره إلا تحت قيادته أو بإذنه[2].

---

(١) ابن كثير:السيرة النبوية: ١/ ٥٨.

(٢) عن تلك المناصب التي كانت لقصي انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ١٣٦. فتح الباري ٦/ ٥٣٤.

وبهذه الأعمال وغيرها استطاع قصي أن يجعل لقريش مكانة عند العرب، وقد سار من بعده أبناؤه وأحفاده في ترسيخ تلك المكانة، وكان من أهم ما قاموا به في ذلك تأمين تجارة قريش التي عرفت بـ (الإيلاف) وفي ذلك يقول ابن الأعرابي: «أصحاب الإيلاف أربعة إخوة، هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل، بنو عبدمناف ابن قصي، وكانوا يؤلفون الجوار يتبعون بعضه بعضا، يجيرون قريشا بميرهم، وكانوا يسمون المجيرين، فأما هاشم فإنه أخذ حبلا من ملك الروم، وأخذ نوفل حبلا من كسرى، وأخذ عبد شمس حبلا من النجاشي، وأخذ المطلب حبلا من ملوك حمير، فكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بحبال هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم»(1).

وقام هاشم بن عبد مناف بعملين كان لهما أثر في ترسيخ مكانة قريش، أولهما أنه حين أصاب أهل مكة مجاعة شديدة في أحدى السنوات ذهب إلى الشام وجاء معه بقافلة من الخبز فهشمه وطبخه وقدمه لأهل مكة، فلقب بهاشم وكان اسمه عمرو، والأمر الآخر أنه أول من سن لقريش رحلتي الشتاء والصيف.

أما ابنه عبد المطلب فقد حدث خلال زعامته لقريش حدثان زادا من مكانة قريش، أولهما حفر بئر زمزم، وقد كانت بئر زمزم قد اندثرت في عهد جرهم فرأى عبدالمطلب في النوم من يأمره بحفر زمزم، فلم يعمل شيئا أول الأمر، فلما تكررت رؤياه تلك وحُدد له في المرة الرابعة مكان البئر بدأ في الحفر يساعده ولده الحارث، فلما أشرف على الماء نازعته قريش في ذلك، فاحتكموا إلى كاهنة في أطراف الشام، وفي الطريق نفد ماء عبدالمطلب ومن معه، وامتنع وفد قريش من تزويدهم بالماء خوفا من العطش، فلما أشرف عبدالمطلب ومن معه على الهلاك، نبعت عين ماء تحت خف راحلته حين انبعثت، فشرب ومن معه ودعا أفراد قريش للشرب منها، فلما رأوا ذلك قالوا: يا عبد المطلب والله لا نخاصمك في زمزم أبدا الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم فارجع إلى سقايتك راشدا. فرجع عبدالمطلب وواصل حفر بئر

(1) لسان العرب: ٩/ ١٠.

زمزم حتى خرج له ماء زمزم المبارك واستعان به عبدالمطلب لسقاية أهل مكـة وزوار البيت الحرام، فزاد هذا من شرفه ومكانة قومه.[1]

أما الأمر الآخر فتمثل في غزو أبرهة الحبشي لمكة وهلاك جيشه حين أرسل الله عليهم طيرا أبابيل كما ذكره تعالى في سورة الفيل، فزاد ذلك من مكانة البيت الحرام ومكانة أهله عند العرب.

(١) عن حفر عبدالمطلب بئر زمزم انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ١٥٤. أخبار مكة للأزرقي ٢/ .وقال أكرم العمري: ومصادر معلوماتنا عن قصة حفر زمزم هو الصحابي الجليل علي بن أبي طالب... وأما طريق نقل الرواية فهو سند حسن إلى علي ﷺ من رواية ابن إسحاق مصرحا بالسماع. (السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ٩١)

البعثة النبوية

بدء الوحي:

كان لابد لنزول الوحي على المصطفى ﷺ من تمهيد وتهيئة، وتمثل ذلك في الرؤيا الصالحة يراها في منامه، ثم تتحقق في يقظته، واضحة كوضوح فلق الصبح. وفي ذلك تهيئة لنفسه ﷺ لقبول نزول الوحي عليه. كما كان ﷺ يشعر بالرغبة في العزلة عن الناس، والخلوة بنفسه، ووجد في غار حراء القريب من مكة مكاناً مناسباً لخلوته، فكان يمكث فيه أياماً وليالي، يطيل فيه الفكر والتدبر، حتى ينفد زاده، ثم يعود لزوجته خديجة يتزود منها بالزاد، ثم يعود للغار.

وبينما هو في حالته تلك، إذ أنزل الله عليه ملكاً من ملائكته، وهو جبريل عليه السلام، فقال لمحمد ﷺ: (اقرأ). فقال: (ما أنا بقارئ). أي لا أعرف القراءة- وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب- فأخذه جبريل فضمه إليه بشدة ثم تركه، وقال: (اقرأ). فقال: (ما أنا بقارئ). فأخذه جبريل وضمه مرة ثانية، حتى بلغ منه الجهد ثم تركه، وقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[1]. فلما ذهب عنه جبريل، عاد الحبيب محمد ﷺ إلى زوجته خديجة، وقد امتلأ رهبة، وأوصاله ترتجف من شدة الموقف، وقال لها: (زملوني، زملوني). فزملته- أي غطته في فراشه- حتى هدأ، وذهب عنه الروع، فأخبر خديجة بخبره، وقال: (لقد خشيت على نفسي). ولكن الزوجة الصالحة - وهي تعرف خصاله الحميدة - قالت له: (كلا أبشر، فو الله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق).

وزيادة في تثبيت فؤاد الحبيب محمد ﷺ، واستجلاء أمره، انطلقت خديجة معه إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وهو من العرب الباحثين عن الحق، فدخل دين النصرانية وتعلم الإنجيل وكان يكتبه بالعبرانية. ففي صحيح البخاري أن خديجة قالت: يا بن عَمِّ اسْمَعْ من بن أخيكَ فقال له وَرَقَةُ يا بن أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رسول اللَّهِ صلى الله

(١) سورة العلق، الآية [١].

عليه وسلم خَبَرَ ما رَأى فقال له: هذا النَّامُوسُ الذي نَزَّلَ الله على مُوسَى يا لَيْتَنِي فيها جذع لَيْتَنِي أكُونُ حَيًّا إذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فقال رسول اللهِ ﷺ: (أوَ مخرجي هُمْ؟) قال نعم لم يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ ما جِئْتَ بِهِ إلا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لم يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ.

من كل ما سبق أدرك المصطفى ﷺ أنه نبي، لذا، حزن حزناً شديداً حين لم يعاوده الوحي وانقطع عنه أياما، حتى أصابه همٌّ شديد، ولكن، لم تدم مدة انقطاع الوحي حيث نزل عليه جبريل بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[(1)] ثم تتابع نزول الوحي[(2)]. وكان عمره ﷺ حين نزل عليه الوحي أربعين سنة.

وقفات حول بدء الوحي:

[١] كان تحنث الرسول ﷺ في غار حراء فرصة له: يبتعد فيها برهة من الزمن، عن مخالطة مجتمع تفشو فيه منكرات وأخلاقيات تكرهها نفسه، ويخلو بنفسه ليسمو بها، ويزكيها بالتأمل في خلق الله، والتفكر في آياته. ولا يستغني المسلم عن الخلوة النافعة، التي تحرره من الاستغراق في مفاتن الدنيا وملاذّها، وتنتشله من مفاسد الخلطة بالناس، وتتيح له الفرصة ليفكر في حاله، ويتنبه لمآله. وهذا خلاف الخلوة الضارة، التي يخلو الشيطان فيها، والنفس الأمارة بالسوء، بصاحبها ليقترف الذنوب.

[٢] في ضم جبريل عليه السلام لمحمد ﷺ معانٍ كثيرة، من أهمها: أن في ذلك تنبيهاً له بأن يأخذ الأمر بالجد، ويهيىء له نفسه، كما أن فيه رداً على من يزعم - من أعداء الإسلام - أن الوحي مجرد خيالات يتخيلها النبي محمد ﷺ، وتفاعلات نفسية، ينتج عنها أفكار نورانية، وهدفهم التقليل من عظمة رسالة نبينا عليه السلام.

[٣] في حادثة بدء الوحي تأكيد لمكانة أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ومواقفها العظيمة في تأييد الرسول ﷺ، والإسهام في نشر الإسلام.

---

(١) سورة المدثر، الآية [١-٢].

(٢)عن قصة نزول الوحي عليه ﷺ. انظر: صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٥٠ وما بعدها ، والسيرة النبوية لابن كثير: ١/ ٣٨٥.

[٤] الأخلاق أصدق عنوان لصاحبها، وخير الشهود له أو عليه. فمعرفة خديجة بأخلاق المصطفى ﷺ جعلتها لا تخشى عليه السوء، بل بشرته بالخير، لما له من كريم الأخلاق، وعظيم السجايا.

أطوار الدعوة:

بنزول الوحي على حبيبنا محمد ﷺ بدأت مرحلة جديدة في حياته، مرحلة محمَّلة بالمسؤوليات الجسيمة، مسؤوليات تبليغ الدعوة العظيمة، من ربه تعالى إلى الناس كافة، وتحمل ما سيلاقيه في ذلك. وقد استمرت تلك المرحلة ثلاثاً وعشرين سنة، انقسمت إلى طورين، هما: **الدعوة في العهد المكي ، والدعوة في العهد المدني**.

الدعوة في العهد المكي:

وتنقسم الدعوة في العهد المكي إلى مرحلتين، هما: المرحلة السرية، ومرحلة الجهر بالدعوة.

المرحلة السرية :

استمرت الدعوة فيها ثلاث سنوات[1]، وتظهر أهم ملامح تلك المرحلة وطبيعتها في الآتي:

* تميزت فيها جهود الرسول ﷺ وتحركاته في نشر الدعوة بالسرية والخفاء. وقد اتضح ذلك من خلال حرصه على أداء عبادته، والتقائه بأصحابه في الخفاء. فكان إذا أراد الصلاة خرج خارج مكة، في بعض الشعاب، لأدائها مع بعض أصحابه. وكانت الصلاة حينئذ في وقتين: قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها[2]. ويؤكد تلك السرية في هذه المرحلة، ما قاله الصحابي الجليل عمرو بن عبسة رضي الله عنه في خبر إسلامه حين قال: (أتيت رسول الله ﷺ في أول ما بعث، وهو بمكة، وهو حينئذ مستخف)[3].

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٧٤ ، وابن سعد في الطبقات الكبرى: ١/ ١٩٩ ، ومحمد بن عبد الوهاب في مختصر سيرة الرسول ﷺ: ٦٧.
(٢) السهيلي: الروض الأنف ١/ ٢٨٢، ٢٨٣.
(٣) صحيح مسلم: ١/ ٥٦٩.

* التركيز على غرس الإيمان بالله، وتوحيده في نفوس المؤمنين، وتجريدهم من التعلق بكل ما سوى الله.

* عدم مواجهة المشركين أو الدخول معهم في جدال من أجل الدعوة.

* الاقتصار على دعوة من يثق فيهم الرسول ﷺ وأصحابه.

المسلمون الأوائل:

اقتصر الرسول في دعوته في هذه المرحلة على الذين من حوله، ممن تربطه بهم علاقة حسنة، ومن يتوسم فيهم الاستجابة لدعوته، لما يعرفه عنهم من حسن الخلق، ورجاحة العقل، وصدق القول، فهم - إن لم يستجيبوا له- فعلى الأقل لن يفشوا له سراً.

ودخل في هذه المرحلة في الإسلام أقرب الناس لرسول الله ﷺ، من الرجال والنساء الذين عاشروه أكثر من غيرهم، فخبروه ووثقوا به. فكان أول من استجاب له من النساء زوجته خديجة، ومن الرجال صاحبه أبو بكر، ومن الصبيان ابن عمه وربيبه علي بن أبي طالب، على صغر سنه، ومن الموالي مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنهم أجمعين. ولا شك أن هؤلاء بمبادرتهم نالوا شرف السبق إلى الإسلام، وما كان لهم أن يتشرفوا بهذه المكرمة من الله، إلا لما لهم من صدق السريرة، والبذل، والتضحية. فخديجة لا يخفى ما كان لها من بذل كريم من مالها، مواساة لرسول الله ﷺ، وتضحية عظيمة، بوقوفها إلى جانبه، وتثبيته، وتسليته في كل أزماته. أما أبوبكر فاشتهر بملاصقته للحبيب المصطفى ﷺ أكثر من غيره، وتأثره بأخلاقه، حتى صار يكره ما يكره من التقرب للأصنام والتوسل لها، وصار بينهما إلفة لا تدانيها إلفة، مما جعل أبا بكر يثق بمحمد ﷺ، ويصدقه، ويؤثره على نفسه، ويجعل ماله هبة له يتصرف به كيف شاء. فروى بسند صحيح: أن رسول الله ﷺ قال: (ما نفعني مالٌ قط ما نفعني مال أبي بكر). فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال: (وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله). فلا عجب أن يكون أول رجل يدعوه الرسول ﷺ إلى الإسلام، فيبادر دون نظر أو تردد. أما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد هيأ الله له الأسباب ليكون من ألصق الفتيان بمحمد ﷺ، حين كان والده أبو طالب كثير العيال، قليل المال، فطلب منه محمد ﷺ أن يأخذ علياً ليكون

عنده، وينفق عليه، ليخفف بذلك من معاناة عمه. لذا عاش علي ﵁ في حجر الرسول ﷺ منذ نعومة أظفاره، وتأثر به، وتخلق بأخلاقه، وأحبه، ودخل فيما جاء به. أما مولاه زيد بن حارثة ﵁، فقد كان لحبه محمداً ﷺ، وتفضيل قربه، والعيش معه، على والديه، ما أهّله لنيل شرف السبق، ليكون أول مولى يدخل دين الله.

كان هؤلاء المبادرون للإسلام أول من أسرَّ لهم الرسول ﷺ بدعوته، وأول من تذوق حلاوة الإيمان بعد رسول الله ﷺ، ثم سعى هؤلاء لدعوة غيرهم للدخول في الدين الجديد، فدخل على يد أبي بكر عدد من المسلمين، حتى تكاثر عدد الداخلين في الإسلام في هذه المرحلة، فبلغ أكثر من أربعين مسلماً ومسلمة[1]. وكل ذلك خفية. حتى إن بعض هؤلاء المسلمين لا يعرف بإسلام بعضهم الآخر.

فوائد في موضوع المرحلة السرية:

[١] أن المحسن يلقى جزاء إحسانه في الدنيا والآخرة، فأكرم الله أولئك السابقين بالرفعة في الدنيا على مبادرتهم. فخديجة ﵂ أول من يبشر من الله بالجنة، كما جاء عن الرسول ﷺ: (**أمرت أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب**)[2]. ويرفع الله ذكر أبي بكر ﵁ فهو ثاني اثنين في الغار، وأول خليفة لرسول الله ﷺ. وعلي بن أبي طالب ﵁ يرفع الله ذكره بالزواج من بنت رسول الله ﷺ، ويكون له منها حفيدا رسول الله ﷺ وسيدا شباب أهل الجنة، الحسن والحسين رضي الله عنهما. وزيد ابن حارثة يرفعه الله بحب نبيه ﷺ له، فهو حب رسول الله ﷺ.

[٢] من وفقه الله للخير، ومنَّ عليه بالهداية، فلا يقصر ذلك على نفسه، بل يدعو غيره إليه، ويحب لغيره ما يحب لنفسه. وبمثل هذا الخلق انتشر الإسلام، وبه ينتشر الخير وينحسر الشر في كل زمان ومكان.

مرحلة الجهر بالدعوة:

(١) للوقوف على إسلام من أسلم في هذه المرحلة انظر:سيرة ابن هشام: ١/ ٢٢٤-٢٣٦.

(٢) صحيح البخاري: مناقب الأنصار : باب تزويج خديجة وفضلها: . وصحيح مسلم: فضائل الصحابة: باب فضائل خديجة أم المؤمنين.

إن دعوةً مثل دعوة محمد ﷺ - جاءت لجميع البشر - لا يمكن أن تطول مدة سرّيتها، بل لا بد أن تعلن للملأ، ويجهر بها علناً، لذا أمر الله نبيه في السنة الرابعة من البعثة، أن يجهر بالدعوة، حيث نزل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[(١)].

وأمره أن يبدأ بعشيرته الأقربين، حيث نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[(٢)] فكان يجمع قومه ليدعوهم إلى دين الله، وينذرهم من عاقبة إعراضهم عن دعوته. فمن ذلك أنه صعد يوماً على جبل الصفا منادياً: يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني كعب؛ أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟ قالوا نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال عمه أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله فيه: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾[(٣)].

ومن ذلك ما رواه أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال لَمَّا أُنْزِلَتْ هذه الْآيَةُ: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ دَعَا رسول اللَّهِ ﷺ قُرَيْشًا فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فقال يا بَنِي كَعْبِ بن لُؤَيٍّ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ من النَّارِ يا بَنِي مُرَّةَ بن كَعْبٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ من النَّارِ يا بَنِي عبدشَمْسٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ من النَّارِ يا بَنِي عبد مَنَافٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ من النَّارِ يا بَنِي هَاشِمٍ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ من النَّارِ يا بَنِي عبد الْمُطَّلِبِ أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ من النَّارِ يا فَاطِمَةُ أَنْقِذِي نَفْسَكِ من النَّارِ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ من اللَّهِ شيئا غير أَنَّ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا[(٤)].

---

(١) سورة الحجر، الآية [٩٤].

(٢) سورة الشعراء، [٢١٤].

(٣) سورة المسد، الآية [١].

(٤) عن خبر إنذار الرسول ﷺ لعشيرته انظر: صحيح مسلم: كتاب الإيمان/ باب في قوله تعالى: وانذر عشيرتك الأقربين. السيرة النبوية لابن كثير: ١/ ٤٥٥.

لكن قومه بادئ الأمر لم يعطوا دعوته أهمية، فلم يستجيبوا ولم ينكروا، حتى بدأ ينكر عليهم اتخاذهم الآلهة مع الله، ويسفه عقولهم بعبادتهم أصناماً لا تضر ولا تنفع، حينها تبدل موقفهم إلى مواجهته بالعنف، والسعي للقضاء على دعوته، وإيقاف حركة الدخول فيها، سالكين في ذلك أساليب شتى.

أساليب المشركين في مواجهة الدعوة في مكة

سلك المشركون في مكة- لمواجهة الدعوة- أساليب شتى، نذكر أهمها:

[١] الاستهزاء والسخرية:

سلك المشركون في مواجهتهم للدين الجديد أسلوب السخرية والاستهزاء بالنبي المصطفى ﷺ، وبما أنزل عليه من الوحي. فكانوا يقولون: أما وجد الله إلا أن يرسل محمداً، وفي قريش من هو أشرف منه وأعظم؟ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[١].

فكانوا لا يسمونه باسمه، بل بألقاب فيها السخرية والاستهزاء، مثل: "مذمم" و"الصابي"، ورموه بالسحر، والكهانة، والجنون، والكذب. وقد رد الله عليهم في كل ما اتهموه به من تلك الأوصاف، التي هم أول من يعلم براءته منها.

كما كانوا يسخرون من أتباعه، فيقولون: أما تبعه إلا هؤلاء من بيننا، ويقولون له - سخرية - إذا أردت أن نتبعك فاطردهم عنك. وقد ورد في القرآن ما يبين بعض مشاهد استهزاء المشركين بالمؤمنين، مثل قوله تعالي في سورة المطففين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾.

(١) سورة الزخرف، الآية [٣١].

والسخرية، والاستهزاء، والكذب، سلاح ما فتئ أعداء الإسلام يستخدمونه لتشويه صورة الإسلام والمسلمين، في كل عصر لاسيما في هذا العصر، مستغلين جميع وسائل الإعلام؛ وذلك حين عجزوا، أمام حجج الإسلام، وبراهينه الساطعة الدامغة.

[٢] اضطهاد أتباعه وفتنتهم:

وقد سلكت قريش في محاولتها فتنة المسلمين أسلوبين، هما:

(أ) الضغوط النفسية:

يلجأ بعض أقارب المسلمين من الكفار، إلى الضغوط النفسية، للتأثير على المسلمين، كما فعلت أم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، حين أقسمت أن لا تكلمه، وأن لا تأكل، ولا تشرب، حتى يكفر بدينه؛ لعلمها أن المسلمين يحترمون والديهم. وقالت: «زعمتَ أن الله وصاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا». فكان يغشى عليها من الجهد والتعب، فإذا أجبروها على شربة ماء شتمت سعداً، فشق ذلك عليه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١).

(ب) التعذيب الجسدي:

لقي أتباع النبي ﷺ من الأذى أشده، ومن التعذيب أقساه، من كفار قريش، في محاولة منهم لإيقاف حركة هذا الدين الجديد، وصد الناس عن الدخول فيه. يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، موضحاً ظروف تلك الفترة العصيبة، التي عاشها أوائل المسلمين: (كان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يفتن في دينه، إما قتلوه، وإما يعذبوه)(٢).

وكان من وسائلهم في ذلك: الضرب، وحبسهم في حر الشمس وقتاً طويلاً، مع وضع الصخور الثقيلة عليهم، أو إلباسهم الدروع الحديدية الحارة، وأمر الصبيان بسحبهم في الطرقات ليسخر منهم الناس. فمنهم من فقد بصره، ومنهم من مات في

(١) سورة العنكبوت، الآية [٨].

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ٣٠.

التعذيب، ومنهم من يغمى عليه من شدة الأذى، واضطر بعضهم أن يستجيب لقريش من شدة الأذى وينطق- مكرهاً- بالكفر بمحمد، ليتخلص من العذاب، فإذا أفاقوا من العذاب شق عليهم ما تكلموا به، فأنزل الله على نبيه قرآناً يبيح لهم ذلك، مادامت قلوبهم مطمئنة بالإيمان، فقال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾[1].

ولقد كان نصيب الموالي الذين لا يجدون عشيرة تحميهم من هذا التعذيب كبيراً، ولا يتسع المجال لذكر ألوان العذاب الوحشي التي تعرّض لها الموالي، ولكن على سبيل المثال: فقد كان أمية بن خلف يمنع مولاه بلال بن أبي رباح رضي الله عنه من الماء، حتى إذا اشتد عطشه أخرجه في الرمضاء، في اليوم الحار، ويعذبه، ويأمر بتعذيبه، ويضع الصخرة العظيمة على صدره، حتى إذا بلغ به العذاب منتهاه قال له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فلا يزيد ذلك بلالاً إلا إصراراً، فيقول: أنا كافر باللات والعزى. فيغتاظ منه أمية فيجعل في رقبته حبلاً ويدفعه للصبيان يجرونه في شوارع مكة. ولا يزال أميَّة يكرر معه هذه الطريقة الوحشية في التعذيب، وكثيراً ما يغشى على بلال من شدة التعذيب، وحينما يطلبون منه الكفر بمحمد ودينه لا يزيد على قوله: أحدٌ أحد. وظل على هذه الحال حتى اشتراه أبو بكر رضي الله عنه وأعتقه[2].

وممن عذب من الموالي خباب بن الأرت. فقد ناله قريباً مما نال بلال، بوضع الصخر الملتهب على جسده، ومرة أُوقدت نار ووضع عليها، فما أطفأها إلا ودك

(١) سورة النحل، الآية [١٠٦].

(٢) لكثرة ما لقي بلال من العذاب وردت عدة روايات في بيان ألوان العذاب التي مر بها، وللاختصار فقد صغت مجمل ما ورد في تلك الروايات. انظر: ابن هشام: سيرة النبي ﷺ: ١/ ٣٣٩-٣٤٠. وعن تلك الروايات انظر: مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ١٨٧، ١٨٨.

ظهره[1]. وقد دخل خباب على عمر بن الخطاب ﭭ في خلافته وكشف عن ظهره وأراه أثر النار في ظهره[2].

أما آل ياسر (ياسر وزوجته سمية وابنه عمار) فهم مثال صادق للأسرة المبتلاة في سبيل الثبات على الدين. فكان أسيادهم بنو مخزوم يخرجونهم إذا اشتدت الظهيرة، فيعذبونهم، فيمر بهم رسول الله ﷺ فلا يملك إلا أن يقول مثبتاً لهم: (أبشروا آل عمار وآل ياسر فإن موعدكم الجنة)[3]. وقد استشهدت سمية من جراء التعذيب، ثم لحق بها زوجها ﭭ.

وإذا كان نصيب الموالي والضعفاء، الذين لا يجدون عشيرة تحميهم، من هذا التعذيب أكبر قدراً من غيرهم، فإن أهل الشرف ومن لهم عشيرة قد نالوا نصيبهم من أذى التعذيب. فقد ضرب المشركون أبا بكر ﭬ في المسجد الحرام، حتى ما يعرف وجهه من أنفه[4]. وكان الحكم بن أبي العاص- عم عثمان بن عفان ﭬ - حين بلغه إسلام عثمان يوثقه رباطاً[5]. وكان عم الزبير بن العوام يلف الزبير ﭬ بحصير[6]، ثم يدخِّن عليه النار[7].

ولم تكن المرأة المسلمة في تلك المرحلة بمعزل عن هذا التعذيب الوحشي، بل كان لها نصيب لا يقل عن نصيب الرجل من العذاب. فكما سبق، كانت سمية "أم عمار"

---

(١) سنن ابن ماجة، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة: ١/ ٣١ حديث ١٥٣، وأبو نعيم: حلية الأولياء: ١/ ١٤٤.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى:٣/ ١٦٥.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك: ١/ ٤٠٤. وقال صحيح على شرط مسلم. ابن هشام: سيرة النبي: ١/ ٣٤٢. والرواية فيه عن ابن إسحاق بلفظ: صبراً آل ياسر موعدكم الجنة.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية:٣/ ٣٣،٣٤. مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ١٨٢.

(٥) ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٣/ ٥٥.

(٦) الحصير بساط يصنع من أوراق النخل.

(٧) أبو نعيم: حلية الأولياء:١/ ٨٩. مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ١٨٤.

أول شهيدة ضحت بنفسها تحت التعذيب، وكانت مولاة تسمى "زنيرة" فقدت بصرها من شدة التعذيب، فقال لها المشركون: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: (كذبوا وبيت الله، ما تضر اللات والعزى، وما تنفعان، فرد الله بصرها)[1]. أما "أم شريك" غزية بنت جابر، فحين أسلم زوجها وهاجر، جاءها أهل زوجها وسألوها إن كانت على دينه، فلما أقرت بإسلامها، أجمعوا على تعذيبها، فأطعموها خبزاً وعسلاً، ومنعوا عنها الماء، وتركوها في الشمس، حتى ذهب عقلها وسمعها وبصرها، وكرروا ذلك ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث طلبوا منها ترك دينها، فلم تفعل غير الإشارة بأصبعها بالتوحيد، ولا تعي ما يقولون من شدة الإغماء، وفيما هي على هذه الحال أكرمها الله بدلو ماء نزل إلى فيها، فشربت منه، فكان ذلك سبباً في إسلام أهل زوجها[2].

وقفة مع التعذيب:

حين يستجمع الإنسان قواه، ويركز تفكيره، ويستجلب عواطفه- وهو يطَّلع على هذه الصور البشعة من التعذيب- لا يملك إلا أن يتكدر خاطره، ويملأ الأسى أعماقه. هذا لمجرد قراءة نماذج محدودة من ذلك التعذيب، فكيف به لو كان شاهداً حياً لصور ذلك التعذيب؟ هل سيتحمل أو يطيق المشاهدة؟ فكيف لو كان هو أحد أولئك الذين اكتووا بنار ذلك التعذيب المفرط؟. إننا لا نملك أمام هذه الصور المفزعة إلا أن نقول: يا الله! ويا عجباً لذلك المخلوق المسمى "الإنسان"! حين نقف أمام صورتين متقابلتين:

الصورة الأولى: حين يتجرد ذلك الإنسان من عواطفه، عندما يمتلك شيئاً من القوة، فَيَلِجُّ في الظلم والطغيان وإيذاء الآخرين، إلى حدٍّ يخرجه من آدميته إلى طبيعة الوحوش والسباع، بل أشد!.

والصورة الأخرى: للإنسان، حينما يؤمن بفكرة سامية، ويملأ الإيمان بها قلبه، فبها يحيا وعليها يموت، ويهون عليه من أجلها كل شيء! ويزداد العجب حين نرى تلك

---

(١) ابن هشام: سيرة النبي: ١/ ٣٤١،٣٤٠.

(٢)ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٧/ ١٥٥ـ ١٥٧.

العَظَمَة الزائفة في الصورة الأولى للإنسان الطاغي، تتحطم على صخرة العَظَمَة الحقيقية في الصورة الثانية، ونعجب كيف يتحول عِزّ أولئك الطغاة وجبروتهم الزائف إلى ذلٍ مهينٍ أمام صمود المستضعفين المؤمنين بفكرتهم. إنها صور متقابلة تتكرر في كل عصر، وفي عصرنا الحاضر شواهد حية على ذلك.

ولكن من أهم ما يمكن استخلاصه مما سبق: أن المبادئ العظيمة السامية، لا يمكن أن ترسخ في النفوس، ويعلم صدق إيمان أصحابها بها، ولا يمكن أن يكون لها وهج يجتذب غير المؤمنين بها؛ إلا بمثل ما حدث لأولئك المؤمنين، أو قريباً منه.

[٣] محاولة إحراج الرسول ﷺ بطلب المعجزات:

وفي محاولة من قريش لإحراج الرسول ﷺ، أخذوا يلحون عليه بطلب المعجزات، كتحويل بعض جبال مكة إلى ذهب، وتفجير الأرض ينابيع، مثلما جاء في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾.

كما استعانوا باليهود في إثارة الأسئلة المحرجة له ﷺ، فقالوا لهم سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فإنه نبي فاتبعوه، وإن هو لم يخبركم فهو رجل مُتَقَوِّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فجاؤوا وسألوا الرسول ﷺ فقال: (**أخبركم بها غداً**)، ولم يقل إن

شاء الله، فأخر الله عنه نزول الوحي خمسة عشر ليلة، ففرح المشركون بتأخر الجواب وأرجفوا، وكان في هذا درس للنبي وعاه كما قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ وأنزل الله جواب السؤالين الأولين في سورة الكهف، وأجاب عن الروح بقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] ولم يزيدهم الجواب إلا تعنتا لأنهم واليهود معهم لم يريدوا بهذه الأسئلة غير إحراج الرسول ﷺ،ولم يكن الحق مقصدهم.

[٤] بث الإشاعات والتشويش للحيلولة دون سماع القرآن.

لأن مشركي قريش يدركون أن للقرآن الكريم أثرا نافذ إلى القلوب، لذا حاولوا أن يحولوا بين الناس وسماع القرآن الكريم، فكانوا إذا رأوا الرسول ﷺ يتلوا القرآن في الصلاة أو في أحد المجامع نهو الناس عن الاستماع إليه، ورفعوا أصواتهم باللغط والتصفير والتصفيق كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[2] كما كانوا حريصين أشد الحرص على أن لا يسمعه أحد من القادمين من خارج مكة، فحين اقترب موسم الحج قال الوليد بن المغيرة: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا واحداً... وبعد طرح عدة اقتراحات حول ما يقال فيه، مجنون؛ أم كاهن، أم شاعر... أجمعوا على رأي الوليد بأن يقولوا عن الرسول ﷺ إنه ساحر يفرق بين المرء و أبيه، وبين المرء أخيه وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا على ذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا له أمره.[3]

---

(١) سورة الإسراء، الآية [٨٥].

(٢) سورة فصلت، الآية [٢٦].

(٣) سيرة ابن هشام: ٢٨٣، ٢٨٤.

[٥] المفاوضات مع أبي طالب ليتخلى عن حماية الرسول ﷺ:

من حكمة الله أن عطف قلب أبي طالب على ابن أخيه محمد ﷺ وجبله على حبه حبا طبيعيا، جعله يحنوا عليه ويدافع عنه، وكانت قريش تحترم أبا طالب لمكانته فيهم، وتقدر له بقاءه على دينهم، وتراعيه خشية أن يدفعه حبه لابن أخيه إلى الدخول في دينه، ومع هذا فقد كان التزام أبي طالب بحماية الرسول ﷺ يحول دون كثير من مساعيهم لإيقاف دعوة الرسول ﷺ، لذا فقد حاولوا مرارا التأثير على أبي طالب للتخلي عن حماية ابن أخيه مستخدمين أساليب متنوعة لتحقيق ذلك. ففي المرة الأولى جاءه وفدهم لأبي طالب فقالوا له: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه. فقال لهم قولا لينا وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه[1].

وورد أنهم أتوه مرة أخرى فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك يأتينا في كعبتنا ونادينا فيسمعنا ما يؤذينا به فإن رأيت أن تكفه عنا فافعل. فبعث إلى النبي ﷺ فجاءه فقال له: إن بني عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم فانته عن أذاهم. فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: (أترون هذه الشمس؟) قالوا: نعم. قال: (فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة) فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي فارجعوا[2].

وفي رواية أن قريشا حين رأوا أن الرسول ﷺ ماض في طريقه وأن عمه لم ينهه، جاء وفدهم مرة أخرى ولكن بلهجة أشد حين قالوا: يا أبا طالب؛ إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: ١/ ٢٧٧. من رواية ابن إسحاق بسند منقطع. مهدي رزق الله: ١٦٦.

(٢) ابن إسحاق: السير والمغازي، تحقيق سهيل زكار: ١٥٥، بسند حسن، وصحح الألباني هذه الرواية: "سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ١٤٧".

حتى يهلك أحد الطرفين. فبعث أبو طالب إلى النبي ﷺ وقال له: إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا.. فابق على نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أن عمه سيتخلى عن نصرته فقال: **(يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته)**. ثم بكى ﷺ وقام من عند عمه. فلما ولَّى ناداه عمه، وقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً[(1)].

وهكذا ذهبت محاولات قريش لزحزحت أبي طالب عن موقفه من حماية ابن أخيه أدراج الرياح، واستمر ﷺ في تبليغ دعوة ربه لا يكل ولا يمل.

[٦] مساومة الرسول ﷺ للوصول معه إلى حل:

لما رأت قريش أن السخرية والعنف لم يجديا مع الرسول ﷺ وأصحابه،وأنها لم تخرج بشيء من عمه في كف ابن أخيه، وأن الداخلين في الإسلام في ازدياد، خاصة بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، لجأت إلى أسلوب المساومة مع الرسول ﷺ علها تدفع به ولو خطوة واحدة في طريق التنازل عما هو عليه، لتكون مقدمة لخطوات أخرى تصل بها معه إلى منتصف الطريق. فورد أن قريشاً بعثت عتبة بن ربيعة ليعرض على الرسول ﷺ بعض الإغراءات، فجاء عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السِّطة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها. فقال رسول الله ﷺ: **(قل يا أبا الوليد أسمع)**. فقال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا القول مالا، جمعنا لك من أموالنا

---

(١) هذا ملخص لما ورد عند ابن هشام: السيرة النبوية: ١/ ٢٧٨. عن ابن إسحاق.وهذه الرواية وإن كانت مشهورة لكنها ضعيفة سندا. انظر حكم الألباني على الرواية: هامش فقه السيرة للغزالي/ ١١٤. و السلسلة الضعيفة ٢/ ٣١١. العمري: السيرة النبوية الصحيحة:١/ ١٦٠. ولكن ضعف سندها لا يعني بالضرورة عدم ثبوتها.

حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تريد شرفا، شرفناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وأن كنت تريد ملكا، ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئي[1] تراه ولا تستطيع أن ترده عن نفسك، طلبنا لك الطبيب، وبذلنا فيه أموالنا حتى يبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له. ورسول الله ﷺ يستمع منه، فلما فرغ قال رسول الله ﷺ: (**أفرغت يا أبا الوليد؟**) قال: نعم، قال فاسمع مني، قال أفعل، فقرأ عليه ﷺ سورة فصلت التي أدهشت آياتها عتبة، فأنصت ملقياً بيديه خلف ظهره معتمداً عليها، فلما فرغ رسول الله ﷺ من قراءته قال: (**قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك**) فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال: ورائي أني والله قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها فيّ، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! فقال: هذا رأيي لكم فاصنعوا ما بدا لكم[2]. وفي بعض الروايات أنه لما بلغ ﷺ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾. قال له عتبة: حسبك حسبك، ما عندك غير

(١) الرئي يقال للتابع من الجن.

(٢) هذا ملخص قصة التفاوض الذي أوردها ابن هشام في السيرة النبوية:١/ ٣١٣، ٣١٤. عن ابن إسحاق، وقد علق الألباني رحمه الله عليها بقوله: «هذه القصة أخرجها ابن إسحاق بسند حسن عن محمد بن كعب القرظي مرسلا، ووصله عبد بن حميد وأبو يعلى البغوي من طريق أخرى من حديث جابر ﷺ، كما في تفسير ابن كثير وسنده حسن، إن شاء الله». انظر هامش فقه السيرة للغزالي: ١١٣. ووردت قصة التفاوض هذه من طرق عدة فيها بعض التفاوت في ألفاظها، انظر: المصنف لابن أبي شيبة: ١٤/ ٢٩٥ ، وأبو يعلى في مسنده:٣/ ٣٤٩ ، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٥٣، وصححه ووافقه الذهبي، وأورد ابن كثير الروايات في تلك الحادثة في تفسيره: ٧/ ١٥١.

هذا؟. كما ورد أن عتبة عرض عليه إن كان يرد النساء فيلختر أي نساء قريش يريد، ويزوجونه عشرا[1].

ومن مواقف المساومة ما ورد من أن بعض رجال قريش طلبوا من الرسول ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة، وقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما في يديك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت منه بحظك. فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[2].

وفي آخر حياة أبي طالب وحين مرض حرص مشركو قريش على أن يتوصلوا إلى حل مع النبي ﷺ يحقق لهم ما يريدون منه قبل أن يموت أبو طالب فيضطرون إلى استخدام ما لم يكونوا يجرؤن عليه في حياة عمه فتعيبهم به العرب.

فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه فلينصفنا منه فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه الذي يعبده، فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه شيء فتعيرنا به العرب، يقولون تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه[3]. فلما جاؤوا إلى أبي طالب دعا الرسول ﷺ وقال له ما شأن قومك يشكونك؟ قال يا عم: إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي إليهم بها العجم الجزية، ففزعوا لكلمته ولقوله فقال بعضهم كلمة واحدة؟؛ نعم وأبيك وعشرا، وما هي؟ قال: لا إله إلا الله. فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا

(١) المصنف لابن أبي شيبة: ١٤ / ٢٩٦.

(٢) تفسير الطبري (:٣٠:/ ص٣٣١. الدر المنثور: ج٨/ ص٦٥٥ وقال وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري نحوه. عن موسوعة المكتبة الألفية للسنة النبوية/ مركز التراث للبرمجيات) وانظر: تفسير ابن كثير: ٨/ ٥٢٧.

(٣) سيرة ابن هشام:٢/ ٢٦، ٢٧. تفسير ابن كثير: ٧/ ٤٧، ٤٨.

لشيء عجاب. فأنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾[1].

[٧] مقاطعة قريش لبني هاشم:

لما رأى المشركون من قريش أن كل وسائلهم السابقة لم تجد مع الرسول ﷺ، في إيقاف دعوته، أو منع أحدٍ من الدخول فيها، بل رأت أن أمره في ازدياد، خاصة بعد دخول عمه حمزة، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما في الإسلام، مما زاد المسلمين عزة وقوة. لما رأت قريش ذلك لجأت إلى موقف أكثر جدية، فجدوا في التنكيل بالمسلمين حيث وكلوا إلى كل قبيلة تعذيب من أسلم منها. «فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم»[2] وأمام تداعي المشركين لمواجهة الرسول ﷺ وأصحابه، والوقوف بحزم للحد من حركة الدخول في الإسلام، رأى أبو طالب أنه بحاجة إلى من يعضده في حماية ابن أخيه، فدعا قومه من بني هاشم وبني المطلب إلى ما هو عليه من منع رسول الله ﷺ والقيام دونه، فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، إلا ما كان من أبي لهب عدو الله.[3] وأمام هذا الإصرار من أبي طالب وقومه في حماية الرسول ﷺ عزمت قريش على الضغط عليهم ليسلموا لهم الرسول ﷺ ويتخلوا عن حمايته، فقامت جميع بطون قريش، ومعهم قبيلة كنانة، على توقيع اتفاقية مقاطعة لبني هاشم وبني المطلب، تقتضي: أن لا يناكحوهم، ولا

---

(١)سورة (ص) وانظر الخبر في:صحيح ابن حبان: ١٥/ ص٨٠. مسند الإمام أحمد: ح/٢٠٠٨، ٣٤١٩. عن موسوعة المكتبة الألفية للسنة النبوية/ مركز التراث للبرمجيات) تفسير ابن كثير: ٤٨/٧. سنن الترمذي: ٥/ ٣٤١. وقال حديث حسن صحيح.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٢٨١.

(٣) انظر: المصدر السابق.

يبايعوهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا لهم محمداً للقتل. فاضطر أبو طالب ومعه بنو هاشم وبنو المطلب، مسلمهم وكافرهم، إلى دخول أحد الشعاب، ومكثوا على هذه الحالة محصورين قرابة ثلاث سنوات، نالهم فيها الجهد، والجوع، حتى إنهم ليأكلون أوراق الشجر، والجلود اليابسة، ودخلهم الخوف حتى لا يخرجون منه إلا للحاجة: كالطواف بالبيت، أو قدوم السوق حينما يعلمون أن قافلة تجارية قادمة للتموّن منها،وحتى إذا فعلوا ذلك، فإن بعض رجالات قريش يحذرون أصحاب القوافل أن يبيعوهم، ويغرونهم بالشراء منهم بثمن مغرٍ، كما كانوا يمنعون من أراد تزويد أحدٍ من أقربائه المحاصرين في الشعب بشيء من الزاد.

بقي الرسول ﷺ وقومه من بني هاشم وبني المطلب ومن انضم إليهم من المؤمنين في حالة الحصار قرابة ثلاث سنوات، حتى أخذت الشفقة خمسة من كبار قريش[(١)] حكموا عقولهم، فاتفقوا فيما بينهم على إنهاء تلك المقاطعة، فدخلوا المسجد منفردين واتخذ كل واحد منهم مكانه فأعلن أولهم معارضته لهذه المعاهدة الجائرة ودعا لتمزيقها، فكذبه أبو جهل وأنكر عليه، فقام الثاني وصدق الأول ودعا لما دعا إليه، ثم قام الثالث وبعده الرابع ثم الخامس ودعوا الناس لنقض هذه الصحيفة الجائرة وتمزيقها، فتم لهم ما أرادوا. ومزقت الصحيفة، فخرج الرسول ﷺ وقومه من الشعب، وما زاده هذا الحصار إلا إصراراً على المضي في دعوته.[(٢)]

[٨] الاعتداء على الرسول ﷺ بعد وفاة أبي طالب وخديجة:

ما كادت محنة المقاطعة تتزحزح عن الحبيب المصطفى ﷺ ، حتى أصيب بابتلاء عظيم، تمثل في فقد عمه أبي طالب، وزوجته خديجة رضي الله عنها، في السنة العاشرة من

(١) وهم: هاشم بن عمرو العامري، ومطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، وأبو البختري بن هاشم بن الحارث بن أسد بن عبد العزى، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة.

(٢) أخرج البخاري أصل حادثة الحصار في كتاب الحج:باب نزول النبي مكة، ومسلم في صحيحه: كتاب الحج: باب النزول بالمحصب يوم النفر. وفصلت كتب السير والمغازي في ذكر الحادثة:سيرة ابن هشام:١/ ٣٧١. ابن سعد: الطبقات الكبرى: ١/ ١٨٨.

مبعثه، وسمي هذا العام عام الحزن، لما اجتمع عليه فيه من الأحزان والمصائب[1]. فقد كان عمه يؤمِّن له الحماية من أن تنال منه قريش ما تريد، وكان قد عاهد قومه على نصرة ابن أخيه، فوافقوه مع كفرهم، إجلالاً له وتقديراً لبقائه على دينهم، فلما توفي أبو طالب لم يعد قومه على استعداد لتقديم ذلك القدر من الحماية لمحمد ﷺ، لما يجره عليهم ذلك من صدام مع بطون قريش، فتخلوا عن نصرته. أما زوجته خديجة رضي الله عنها فكانت سنداً قوياً له في قيامه بدعوته، فكلما أصابه همّ أو غمّ في طريق دعوته، ورجع إليها، خففت من آلامه، وهوّنت عليه مصابه، وأعطته دفعة قوية للمضي في سبيله. لذا دخل ﷺ همّ وغمّ بفقد عمه وزوجته. وجرأ ذلك قريشاً على النيل منه، فأصبحوا يخلصون إلى ما لم يكونوا يخلصون إليه في حياة أبي طالب، لا سيما لما رأوا النبي ﷺ ماض في دعوته، والداخلين في دينه في تزايد، فلم تكتف قريش في إيذائها له بالسخرية والاستهزاء، بل أقدموا على إيذائه جسدياً. فمن ذلك أنه كان قائماً يصلي عند الكعبة، وبعض رجالات قريش ينظرون إليه، فقال أحدهم: أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيضعه عليه إذا سجد؟ فقام عقبة بن أبي معيط، فجاء بذلك ووضعه على الرسول ﷺ حين سجد. فضحك القوم حتى وقع بعضهم على بعض. فلما علمت ابنته فاطمة رضي الله عنها، جاءت فألقته عن أبيها، وهي تبكي وتسبهم، والرسول ﷺ مستمر في صلاته، فلما فرغ منها أقبل عليهم، وقال: **(اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك**

---

(١) لم يرد بسند صحيح أن الرسول ﷺ سمى هذا العام بعام الحزن، ولكن أطلق بعض المؤلفين المتاخرين هذه التسمية على هذا العام لما أصاب الرسول ﷺ فيه من الهم والحزن لتتالي المصائب عليه. ويستأنس لذلك بما ورد في الصحيحين وغيرهما حين سألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ: هل مر عليك يوم أشد من أحد؟ فقال: **(لقد لَقِيتُ من قَوْمِكِ وكان أشَدُّ ما لَقِيتُ منهم يوم الْعَقَبَةِ إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي على بن عبد يا ليل بن عبد كُلَالٍ فلم يُجِبْنِي إلى ما أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وأنا مَهْمُومٌ على وَجْهِي فلم أَسْتَفِقْ إلا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ)** وفي مسند أبي عوانة (٤/ ٣٤٠) ورد (وأنا حزين) بدل وأنا مهموم.

بقريش. وأخذ يذكر أسماء أشدهم إيذاء له ويدعو عليهم، فما بقي ممن ذكر إلا وهلك في معركة بدر)[1].

وأقسم أبو جهل مرة أن يطأ على رقبة محمد ﷺ إن رآه يصلي. فلما جاء النبي يصلي تقدم إليه أبو جهل ليفعل به ما قال، ولكن الله منعه من ذلك، فقد جعل بينه وبين الرسول ﷺ خندقاً من نار، وأموراً رآها ولم يرها غيره، فعاد خائفاً.[2]

كما تعرض له بالأذى عقبة بن أبي معيط مرة أخرى عند الكعبة، حيث أخذ بمنكب رسول الله ﷺ، ولوى ثوبه على عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، حتى تدخل أبوبكر رضي الله عنه، فدفع عقبة، وقال: **(أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟)**[3]. بل لم يسلم ﷺ من أذى النساء، فقد كانت زوجة عمه أبي لهب تضع الأذى في طريقه، فنزل فيها قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبۡلٌ مِّن مَّسَدِۭ﴾[4] كل ذلك والرسول ﷺ ماض في دعوته، يبلّغ أمر ربه.

موقف الرسول ﷺ من هذه الابتلاءات:

وقف الرسول ﷺ في تلك المرحلة من أنواع الابتلاءات التي مرت به وأصحابه موقفاً عظيماً يتناسب مع عظمة رسالته، مستمداً تلك المواقف من توجيهات ربه، ونجملها في الآتي:

[١] ترسيخ الإيمان وتقوية الصلة بالله:

حرص ﷺ على تربية أصحابه تربية إيمانية قوية، تمدهم بالعزيمة، التي تعينهم على تحمل تلك الابتلاءات. فكان يغرس فيهم الإيمان ويرسخه في نفوسهم، حيث كان يلتقي بهم سراً في دور بعضهم، يعلمهم القرآن وما ينزل عليه من تعاليم ربه، كما

---

(١) عن هذه الحادثة انظر: صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي شيئاً. وصحيح مسلم : ٣/ ١٤١٨-١٤٢٠.

(٢) صحيح مسلم: باب صفة القيامة والجنة والنار. تفسير ابن كثير، تفسير سورة العلق.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف: ١٤/ ٢٩٧.

(٤) سورة المسد، الآيتان [٤-٥].

كان يقوي فيهم الصلة بربهم، فيقوم معهم نصف الليل، أو قريباً منه لأداء الصلاة، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[1] فقاموا سنة على ذلك حتى تفطرت أقدامهم، فخفف الله عنهم بقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾[2]. ولا شك أن لقيام الليل أثره الكبير في إعداد ذلك الجيل الفريد، لتحمل تلك المسؤولية السامية، والمهمة العظيمة. وهذا ما ذكره الله تعالى في توجيهه لنبيه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[3]. ومثل هذه التربية ضرورية لكل من يتصدى لمثل تلك المهمة العظيمة، مهمة الدعوة إلى الله، في كل زمان ومكان. وهي ضرورية لكل من ينشد لنفسه اجتياز امتحان الدنيا، وشهواتها، ومفاتنها، وابتلاءاتها، بنجاح.

[٢] التحلي بالصبر:

كان الله يأمر نبيه بأن يتحلى بالصبر على ما يلقاه من سخرية، وأذى، في طريق الدعوة، بمثل قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[4] وكان الرسول ﷺ بدوره يحث أصحابه على الصبر على ما يلقونه من تعذيب وابتلاء، ويعدهم الجنة لقاء صبرهم وثباتهم. فكان يمر على آل ياسر وهم يعذبون، فيقول: (اصبروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة)[5]. وجاء خباب بن الأرتّ وبعض الصحابة

---

(١) سورة المزمل، الآيتان [١-٤].

(٢) سورة المزمل، الآية [٢٠].

(٣) سورة المزمل، الآيتان [٥- ٦].

(٤) سورة المزمل، الآية [١٠].

(٥) إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية: ٧٠ ، وقال: قال الهيثمي في المجمع: ٩/ ٢٩٣ ورواه الطبراني ورجاله ثقات ، وابن هشام: سيرة النبي: ١/ ٣٤٢.

ﷺ وسألوا رسول الله ﷺ أن يدعو الله لهم، أن يخفف عنهم ما يجدونه من العذاب، فتغير وجهه وقال: (لقد كان من قبلكم يحفر له حفرة ويجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيشق، ما يصرفه عن دينه، ويمشط بأمشاط من الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه عن دينه...)[١].

[٣] أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة:

لما رأى ﷺ الأذى يزداد على أصحابه- حتى مات بعضهم- وهو لا يستطيع حمايتهم، ندب من يستطيع إلى أن يهاجر إلى أرض الحبشة، قائلاً: (إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه). فهاجر مجموعة من أصحابه إلى الحبشة الهجرة الأولى، وكان عددهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، ومكثوا أشهراً ثم عادوا إلى مكة، وفي حسبانهم أن حِدَّة موقف قريش قد هدأت، بعد إشاعة سَرَت إليهم بذلك. ولكن لما وجدوا أن موقف قريش لم يتغير، بل زاد سوءاً، عندها أذن لهم ﷺ بالهجرة مرة أخرى، فهاجروا الهجرة الثانية في مجموعة أكثر من المرة الأولى، حيث بلغ عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً، وثمان عشرة امرأة. وهناك في الحبشة تغيرت الحال، وعاش أولئك المهاجرون كما قالت أم سلمة رضي الله عنها: (لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار: النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه...)[٢] ولم يكدر صفو عيشهم هناك غير ثلاثة أمور:

أولها: غربتهم عن وطنهم، وبعدهم عن أحبابهم، لا سيما عن رسول الله ﷺ، الذي هم بأمس الحاجة لتوجيهاته. وقد عبرت إحدى المهاجرات- أسماء بنت عميس رضي الله عنها- عن هذه المعاناة في حوار مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي كان يرى أنه ومن بقي مع رسول الله ﷺ في مكة وهاجر إلى المدينة أفضل ممن هاجر إلى الحبشة، حين قال لها: (سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق منكم برسول الله). فقالت: (كلا والله، كنتم

(١) صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار : باب ما لقي النبي وأصحابه من المشركين.

(٢) ابن هشام:سيرة النبي: ٣٥٧.

مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم،وكنا في دار البعداء البغضاء في الحبشة، وذلك في الله، وفي رسوله...)[1].

الثاني: وهو أشد ما كدر على المهاجرين عيشهم في الحبشة، حينما علموا بقدوم وفد محمل بالهدايا، بعثته قريش، ليطلب من النجاشي رد المسلمين إلى مكة[2]. وبدأ الوفد بالاتصال بالبطارقة المحيطين بالنجاشي، وغمروهم بالهدايا، وطلبوا منهم أن يشيروا على النجاشي برد المسلمين إلى قومهم، دون أن يكلمهم. فوافقوا على ذلك. ثم دخلوا على النجاشي وقدموا له الهدايا، فقبلها، ثم قالوا له: «أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دينهم، ولم يدخلوا دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم...» ثم طلبوا منه أن يسلمهم إليهم. وهنا تكلم البطارقة وأشاروا على النجاشي أن يسلمهم. ولكن النجاشي أبى حتى يسمع من المسلمين. فحضر المسلمون، وقد فوضوا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للحديث عنهم، فبين للنجاشي حالهم قبل مبعث النبي ﷺ، ووضح حقيقة الدين الذي آمنوا به، وذكر أهم التعاليم والأخلاق التي يحثهم عليها. ثم طلب النجاشي من جعفر أن يقرأ شيئاً مما جاء به نبيهم. فقرأ أول سورة "مريم"؛ فلم يتمالك النجاشي وبطارقته أنفسهم من البكاء، تأثراً بما سمعوا، ورفض طلب الوفد. وكان عمرو بن العاص داهية، فأراد أن يثير غضب النجاشي على المسلمين، فجاء من الغد وقال للنجاشي: إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً. فأرسل النجاشي إلى المسلمين ليسمع منهم ما يقولونه في عيسى عليه السلام. فدخل على المسلمين همّ عظيم، لكنهم اتفقوا على أن يقولوا الصدق مهما كلفهم الأمر. فلما سأل النجاشي جعفر عن عيسى قال: (نقول فيه الذي جاءنا به نبينا: هو عبدالله، ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول). ولم يكن النجاشي مقتنعاً بما يعتقده عامة النصارى في عيسى عليه السلام؛ لذا فقد صدّق

(١) صحيح البخاري: المغازي/ ٣٨، وصحيح مسلم: فضائل الصحابة/ ١٦٩.

(٢) كان الوفد مكون من رجلين من دهاة قريش هما: عمرو بن العاص، وعبدالله بن أبي ربيعة.

ما قاله جعفر في عيسى، ولم يبال باعتراض البطارقة، ومن جديد أعطى المسلمين الأمان في بلاده، ووضع غرامة مالية على كل من يتعرض لمسلم بأذى. فزال بذلك خوف المسلمين، وعاشوا في أمن وطمأنينة.

الثالث: عاود المؤمنين في الحبشة الخوف حين ظهر منازع للنجاشي في حكمه، ودارت بينهما حرب ظل المسلمون خلالها يدعون الله أن ينصر النجاشي على خصمه. وزال خوف المسلمين بعد أن استجاب الله دعاءهم وانتصر النجاشي. وظل المسلمون في الحبشة حتى عاد بعضهم إلى المدينة بعد تسع سنوات من هجرة الرسول ﷺ إليها، قبيل معركة بدر، وأما الباقون فقد مكثوا قرابة خمسة عشر سنة، حتى عادوا يوم فتح خيبر[1]. وهكذا نجد أن الهجرة إلى الحبشة قد أسهمت في التخفيف من معاناة بعض المسلمين.

[٤] الدخول في الجوار:

ومما استفاد منه الرسول ﷺ وأصحابه للتخفيف من وطأة التعذيب ما يسمى بـ"الجوار". والجوار عرف اجتماعي التزم به العرب في حياتهم الاجتماعية، وذلك حين يلجأ من يخاف على نفسه- لأمر ما- للدخول تحت حماية رجل يحتل مكانة في قومه، تمكنه من حماية من يدخل في جواره، فلا يجرؤ أحد على إيذائه. وهو يشبه اللجوء السياسي لدى الدول في العصر الحديث.

ومن أبرز الذين دخلوا في جوار بعض المشركين: أبو بكر الصديق رضي الله عنه. فقد خرج من مكة يريد الهجرة إلى الحبشة، فلقيه ابن الدَّغِنَة - سيد إحدى القبائل العربية- فقال: «مثلك يا أبا بكر لا يَخرُج ولا يُخرَج...» وأدخله في جواره، وعاد معه إلى مكة. فاشترطت قريش أن يصلي أبو بكر داخل داره بعيداً عن أنظار النساء والأطفال؛ خشية أن يتأثروا بصوته الرقيق بالقرآن، الذي غالباً ما يخالطه البكاء من خشية الله، وصلى أبو بكر مدة في داره، ثم بنى له مسجداً بفناء داره، فإذا صلى فيه

---

(١)عن تفاصيل الهجرة إلى الحبشة انظر: سيرة ابن هشام: ١/ ٣٤٣، السيرة النبوية لابن كثير: ٢/ ٣.

اجتمع نساء وأطفال المشركين لسماع قراءته، فأقلق ذلك المشركين فكلموا ابن الدَّغِنَة ليطلب من أبي بكر أن يصلي داخل داره، حيث لا يسمع صوته. فطلب منه ابن الدَّغِنَة أن يفعل ذلك أو يرد عليه جواره. فقال أبو بكر ﷺ: (إني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله ورسوله)[1].

ومنهم عمر بن الخطاب ﷺ، فإن خاله العاص لما رأى أذى المشركين يشتد عليه أجاره، ولكن لم يلبث عمر حتى رد جوار خاله، ليصيبه ما يصيب إخوانه المسلمين من الأذى.

ومنهم عثمان بن مظعون ﷺ فقد أجاره الوليد بن المغيرة، ولكنه لم يطق أن يرى إخوانه يعذبون وهو آمنٌ، فرد جوار المغيرة. فلما رأى المغيرة عثمان وقد لُطمت عينه من أحد المشركين قال له: «أما والله يا ابن أخي إن عينك عما أصابت لغنية، لقد كنت في ذمة منيعة». فقال عثمان: (بل إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر). وحين طلب منه المغيرة العودة إلى جواره أبى عثمان بن مظعون ﷺ ذلك[2].

أما رسول الله ﷺ فقد اضطر إلى الدخول في جوار المطعم بن عدي[3]، لا من أجل حمايته من الأذى، ولكن ليتمكن من عرض دعوته، ونشر رسالته، حين طرده أهل الطائف وعاد إلى أهل مكة الذين أخرجوه.

والحقيقة أن عدداً قليلاً من المسلمين هم الذين تمكنوا من الحصول على الجوار؛ حيث لا يجار - عادة - إلا من له مكانة، أو قربى، ولم يترتب على هذا الجوار شيء من الذلة لمن حصل عليه، فضلاً أن يكون على حساب دينهم. فلم يقبل أحد منهم أي شرط يجبره على التخلي عن أي ممارسة يمليها عليه دينه، بل إن أغلبهم- إن لم

---

(١) انظر: صحيح البخاري:كتاب الكفالة/ باب جوار أبي بكر. وكتاب الصلاة/ باب هجرة النبي ﷺ.

(٢) ابن حجر: فتح الباري: ٧/ ١٥٣.

(٣) الطبقات الكبرى: ١/ ٢١٢.

يكن جميعهم- قد تحلل من هذا الجوار، حيث لم تسمح لهم أنفسهم بأن يروا إخوانهم المسلمين تحت العذاب، وهم في مأمنٍ منه.

ومن هنا نعلم، أن المسلمين لم يستفيدوا كثيرا من الجوار للتخفيف من أذى المشركين؛ لذا، كان تعويل الرسول ﷺ الأكبر لتخطي تلك المرحلة الحرجة من عمر الدعوة في مكة، على تربية أصحابه ـ كما سبق ذكره ـ تربية إيمانية تقوي صلتهم بالله، وتغذيهم بالصبر، احتساباً لما أعده الله للصابرين من أجر.

البحث عن نصير للدعوة:

الرحيل إلى الطائف:

بعد وفاة أبي طالب، واشتداد أذى قريش على المصطفى ﷺ، سعى جاهداً لإيجاد سند يخلف عمه أبا طالب في حمايته؛ لمواصلة دعوته. فرحل إلى الطائف أملاً في كسب قبيلة ثقيف، لحمايته، ومناصرة دعوته. فبدأ بساداتها فدعاهم للإسلام، وعرض عليهم دعوته، وطلب منهم مناصرته، فلم يقبلوا منه، وسخروا منه. فطلب منهم أن يكتموا موقفهم، وما دار بينه وبينهم؛ حتى لا يثيروا عليه الناس. لكنهم لم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم، وعبيدهم، فشتموه، ورجموه بالحجارة حتى أدموا عقبه، واجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى أحد البساتين(1). فلما تفرق الناس، ورجع السفهاء، وخلا الحبيب المصطفى ﷺ بنفسه، وقد بلغ الألم والهم منه مبلغه، ليس على ما أصاب شخصه فحسب، بل لخيبة أمله في ثقيف؛ إذ لم يجد فيهم سنداً يمكنه من مواصلة دعوته.في هذا الظرف العصيب يلجأ الرسول ﷺ إلى ربه، الذي لم يفقد الثقة به لحظة من اللحظات؛ ليشكو إليه وحده، بثه وحزنه، ويعرض عليه مصابه. فرفع يديه وقال: (اللهم إليك أشكو ضَعْفَ قُوّتِي، وقِلّةَ حِيلَتِي، وهَوَانِي على النّاسِ. يا أرحمَ الراحمين، أنتَ ربُّ المستضعفينَ، وأنتَ رَبّي، إلى مَنْ تَكِلُنِي؟ إلى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي؟ أم إلى عَدُوٍّ مَلّكْتَه أمري؟ إنْ لم يكنْ بكَ عَلَيّ غَضَبٌ فلا أُبَالِي ولكِنّ عَافِيَتَكَ هي أوسَعُ لي، أعُوذُ بنُورِ وجهِكَ

(1) كان هذا البستان لشيبة وعتبة ابني ربيعة من قريش.

الذي أشرَقَتْ له الظُّلُمَاتُ،وصَلَحَ عليه أمرُ الدنيا والآخرةِ، مِن أنْ تُنزِلَ عليَّ غضبَك، أو يحلُّ عليَّ سخطُك، لك العُتْبى حتى ترضَى، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بك)(١).

التقط الرسول ﷺ أنفاسه في هذا البستان، الذي أشفق عليه صاحباه، فأمرا غلاماً نصرانياً لهما اسمه عداس، أن يقدم للنبي ﷺ قطفاً من العنب. وكان عداس هذا هو المستفيد الأكبر من قدوم الرسول ﷺ للطائف، حين انتهى لقاؤه بالرسول ﷺ بدخوله في الإسلام(٢).

التسلية والتثبيت (الدعم المعنوي):

في خضم الآلام والمصاعب التي تعرض لها المصطفى ﷺ بعد عام الحزن، أراد الله أن يخفف على نبيه مصابه، ويمده بما يقوي عزيمته، ويثبت فؤاده، فكانت له بعض الأحداث التي أسهمت في تسليته وتثبيته، ومنها:

عرض ملك الجبال:

بينما كان ﷺ عائداً من الطائف، والهموم تثقله، حتى لم يعد يشعر بنفسه، فإذا بسحابة تظله، فنظر فإذا بجبريل يناديه قائلاً: **(إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت)**. فناداه ملك الجبال قائلاً: **(يا محمد، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين)**(٣). فقال ﷺ: **(بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً)**(٤).

إسلام بعض الجن:

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام:٢/٤٨. وقد روى هذا الدعاء ابن إسحاق، ولكن لأنه لم يسند فقد ضعفه الألباني، فقه السيرة للغزالي: ١٣٢. ورواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. قاله الهيثمي في مجمع الزوائد: ٦/ ٣٥.

(٢) ذكر ابن حجر إسلام عداس في الإصابة:٤/ ٢٢٧.

(٣) جبلا مكة أبو قُبيس والذي يقابله.

(٤) القصة وردت في صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق: باب /٧ ح/ ٣٢٣١ في الفتح ٦/ ٣١٢، ٣١٣ ، وصحيح مسلم: ٣/ ١٤٢٠ح/ ١٧٩٥.

بعد عودة الرسول ﷺ من الطائف، وحين نزل ببطن نخلة قريباً من مكة، قام يصلي، فبعث الله له نفراً من الجن فاستمعوا لقراءته، وآمنوا برسالته، ورجعوا إلى قومهم يدعونهم للدخول في الإسلام. وقد أوحى الله إلى نبيه بخبر هؤلاء الجن، وما كان منهم، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[1] وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾[2] ولاشك أن في هذا الحدث دعماً معنوياً للنبي ﷺ، وفألاً حسناً بانفراج الأمر. فالذي صرف قلوب أولئك الجن للدخول في الإسلام، والدعوة إليه، جدير بأن يصرف قلوب أولئك المعاندين من الإنس للدخول في الإسلام، والدعوة إليه كذلك.

الإسراء والمعراج:

كانت حادثة الإسراء والمعراج قبل الهجرة بسنة، ومجمل هذه المعجزة أن الله أسرى بنبيه من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى في فلسطين، ومن المسجد الأقصى عُرج به إلى السماوات السبع، فرأى في رحلته تلك من آيات ربه الكبرى، وتم فرض الصلوات الخمس خلالها[3]. فجاءت تلك الحادثة للنبي ﷺ تثبيتاً وتسلية له في تلك الظروف.

العرض على القبائل:

بعد رجوع المصطفى ﷺ من الطائف، لم ييأس في بحثه عن نصير يحميه لتبليغ دعوته، فعاد إلى بلده، بعد دخوله في جوار المطعم بن عدي، وأخذ يعرض نفسه على مختلف القبائل التي تفد إلى مكة في موسم الحج. فكان يتنقل بين القبائل، وتجمعات الناس في الحج، وكان مما يقوله في ذلك: (يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه، وأن تؤمنوا بي،

(١) سورة الأحقاف، الآية [٢٩].

(٢) سورة الجن، الآية [١]. وعن خبر استماع الجن انظر: سيرة ابن هشام:٢/ ٣١.

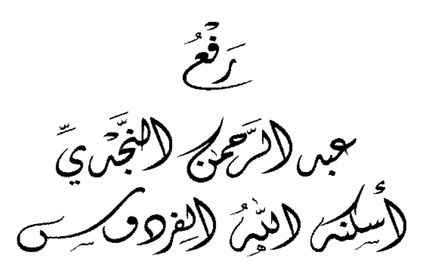
(٣) سيأتي ذكر الإسراء والمعراج في فصل معجزات النبي ﷺ.

وتصدقوني، وتمنعوني؛ حتى أبين عن الله ما بعثني به). ومن ذلك قوله: (هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي). وكان عمه أبو لهب يسير خلفه يحرض القبائل على عدم سماع كلامه، ويحذرهم من الدخول في الدين الذي جاء به.[1]

مكث المصطفى ﷺ في مكة وشغله الشاغل عرض نفسه على القبائل، دون أن يحظى بقبول أحدها لنصرته. وقد اختلفت تلك القبائل في طريقة ردها، فمنها من كان في ردها قبح، ومنها من كان في ردها لين واعتذار، ومنها من قبل بشروط لم يكن في مقدور الرسول ﷺ قبولها؛ فقد قال له رجل من بني عامر بن صعصعة: أرأيت إن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟. فقال ﷺ: (الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء)[2]. بقي ﷺ على هذه الحال، حتى هيأ الله له نفراً من أهل المدينة، آمنوا به، وبايعوه، كما سيأتي بيانه.

(١) السيرة النبوية لابن هشام:٢/ ٥٠.وانظر: مسند الإمام أحمد ٣/ ٤٩٢ـ ٤/ ٦٣، ٣٤١، وأكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ١٩٣.

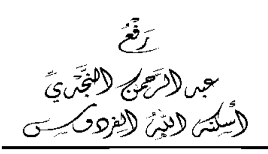
(٢) عن عرض الرسول نفسه على القبائل، انظر: سير ابن هشام: ٢:٣١ وما بعدها.



الهجرة وقيام الدولة الإسلامية

وفيه:

- مقدمات الهجرة:
- بدء إسلام الأنصار.
- بيعة العقبة الأولى.
- بيعة العقبة الثانية.
- هجرة المسلمين.
- الهجرة النبوية.
- ركائز المجتمع المسلم في المدينة.
- بناء المسجد.
- المؤاخاة.
- المعاهدة مع اليهود.
- التشريعات، وقيام مؤسسات الدولة.



تمهيد: يثرب قبل الهجرة:

إن المطلع على ملابسات وظروف الهجرة النبوية؛ ليدرك بجلاء، أن أحداث الدعوة الإسلامية كانت تجري بتدبير محكم من العليم الحكيم، يحوطها برعايته، ويصونها بعنايته، ويهيىء لها الأسباب رغم الصعاب. فمن ذلك أن هيأ المناخ المناسب في "يثرب"[1] لتكون دار هجرة لنبيه، ومحضناً لدعوته، بعدما ضاقت بها مكة. كما هيأ الأوس والخزرج "سكان يثرب" لنصرتها، وتحمل أعباء نشرها؛ بعدما تخلى عن تلك المهمة السواد الغالب من قريش، وزعمائها، في مكة.

فقد سكنت مجموعة من طوائف اليهود "يثرب"، بعد فرارهم من الشام، على أثر القتل والسبي والاضطهاد الذي لقوه - في فترات مختلفة - على يد بختنصر البابلي، وبعض قادة الرومان؛ جزاءً من الله لهم على قتل بعض أنبيائهم، وإفسادهم في الأرض. وقد سمحت القبائل العربية- وفي مقدمتها كبراها قبيلة "العماليق" لليهود بمجاورتهم في يثرب والعيش معهم بسلام. وأهم طوائف اليهود: بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع.

حرص اليهود في أول الأمر على تحاشي الصدام مع غيرهم، واهتموا ببناء الحصون، وتعزيز أحوالهم الاقتصادية بجمع الثروات من خلال العمل في الزراعة والتعامل بالقروض الربوية الفاحشة، حتى ما لبثوا أن سيطروا على الحركة الاقتصادية في يثرب، كما تكاثر عددهم مقابل تناقص عدد العماليق.

ثم جاءت هجرة قبيلتي "الأوس والخزرج" العربيتين من اليمن بسبب تهدم سد مأرب لتعيد التوازن بين اليهود والعرب في يثرب، ففي أول الأمر استغل اليهود حاجة رجالات الأوس والخزرج، واستغلوهم في العمل في مزارعهم، ومع مرور الزمن تكاثر الأوس والخزرج، وتحسنت حالتهم الاقتصادية، فخشي اليهود منافستهم، فسعوا لإضعاف جانبهم بطرق عدة: بدأت بقتال اليهود للأوس والخزرج، وحين استنجد الأوس والخزرج ببعض القبائل العربية المحيطة بيثرب عمد اليهود إلى خطة جديدة تقوم على التفريق بين القبيلتين، وضرب بعضهم ببعض، عن طريق التحالف

---

(١) اسم المدينة النبوية قبل الهجرة.

الصوري، فتحالف بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس، وتحالف بنو قينقاع مع الخزرج، وأخذ كل طرف من اليهود يذكي الأحقاد والضغائن لدى حلفائه من العرب على الطرف الآخر، ومازالوا ينمون الأحقاد بينهم حتى آتت جهودهم الماكرة ثمارها المرة، فأخذ العرب يأكل بعضهم بعضاً، في سلسلة متصلة من المعارك التي لا مبرر لها، على حين قوي اليهود وتكاثروا، ونمت ثرواتهم[1].

فبسبب تلك الحروب التي قضت على معظم زعماء الأوس والخزرج، وكدرت عليهم حياتهم، وزعزعت أمنهم، أصبحت كل قبيلة تبحث عن مخرج لتبقي على البقية الباقية من رجالها، وتنشد ما يحقق لها السلام والوئام. وقد كان اليهود حين يحل بينهم أدنى خلاف مع سكان يثرب يذكرون لهم بأن هناك نبياً قرب زمن خروجه، ويتوعدونهم بأنهم سيتبعونه ويحاربون معه العرب ويبيدونهم. لهذا وذاك أسرع رجال الخزرج والأوس في الدخول في الإسلام، راجين بذلك إنهاء الحروب بينهم، وليبعدوا عنهم شبح الإبادة التي يخوفهم بها اليهود. تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في ذلك: (كان يوم بعاث[2] يوماً قدّمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله وقد افترق ملؤهم، وقتلت سرواتهم وجرحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ، في دخولهم الإسلام)[3].

مقدمات الهجرة:

بدء إسلام الأنصار:

سارت أحداث الهجرة بشكل تبدو فيه بوضوح عناية الله ورعايته لنبيه ﷺ ودعوته. فبينما كان ﷺ في موسم الحج في السنة الحادية عشرة يعرض نفسه على القبائل يطلب نصرتهم، لقي ستة نفر من الخزرج، فاستوقفهم وقال: (من أنتم؟)

(١) عن موضوع هجرة اليهود إلى يثرب، وما وقع بينهم وسكانها العرب. انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ١/ ٥٨٦-٥٩٠. تاريخ ابن خلدون ٢/ ١٠٦، ١٠٧، ١٤٠. السمهودي: وفاء الوفاء: ١/ ١٦٠، ١٧٨. فقه السيرة للغزالي: ١٠٣.

(٢) بعاث: اسم لواحدة من الحروب التي دارت بين الأوس الخزرج وقتل فيها عدد كبير من الطرفين.

(٣) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب مناقب الأنصار حديث ٣٧٧٧. فتح الباري: ٧/ ١١٠.

قالوا: نفر من الخزرج. قال: (أمن موالي يهود ؟) قالوا: نعم. قال: (أفلا تجلسون أكلمكم؟) قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.فقال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، وصدقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.

وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك.[1] ثم رجعوا إلى بلادهم يحملون هذا الدين الجديد. وفي الحين الذي كان رسول الله ﷺ ينتظر ثمار ذلك الغراس الجديد في يثرب واصل دعوته في مكة.

بيعة العقبة الأولى:

إن هذا الإيمان الجديد الذي ملأ قلوب أولئك النفر الستة من الخزرج بالسعادة والرضا، وغمرهم بالفرحة، لِمَا وجدوا فيه من الحلاوة، ولما يأملونه من تحقيق سلام دائم بينهم وبين إخوانهم من الأوس، شجعهم على إعلان هذا الدين، والجد في الدعوة إليه في يثرب، حتى أصبحت مجالس الأوس والخزرج عامرة بذكر الإسلام، والحديث عن النبي الجديد لا تخلو منه دار، وقد أثمرت دعوة هؤلاء النفر بدخول عدد لا بأس به في الإسلام.

وفي الموسم التالي للحج قدم اثنا عشر رجلاً "عشرة من الخزرج واثنان من الأوس" والتقوا برسول الله ﷺ سراً عند العقبة من منى، فبايعوه على الالتزام بما أنزل من شرائع الإسلام وأخلاقه، وطاعة الله ورسوله، ولكن لم يكن في هذه البيعة التزام بإيواء الرسول ﷺ وحمايته ونصرة دعوته. يقول عبادة بن الصامت رضي الله عنه: (بايعنا رسول الله على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان

(١) عن إسلام هؤلاء النفر انظر: سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٨. دلائل النبوة للبيهقي: ٢/ ٤٣٣ الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ٢١٨.

نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف...)[1] وهذه البيعة تسمى بيعة النساء. لأن عقد هذه البيعة مشابه لما كان يبايع الرسول ﷺ النساء عليه[2].

سفير موفق ودعوة ناجحة:

بعدما أتم أولئك النفر من أهل يثرب حجهم بعث معهم الرسول ﷺ مصعب بن عمير ليعلمهم الإسلام، ويقرئهم القرآن، ويؤمهم في الصلاة. ونزل مصعب عند أسعد بن زرارة ـ أحد الستة الأوائل ـ وكان أسعد يخرج بمصعب يدور به على دور الخزرج والأوس يدعوهم للإسلام.

وقد نجح مصعب بن عمير رضي الله عنه في القيام بالمسؤولية العظيمة التي اختارها له ﷺ واختاره لها. ولم تكن وسيلته في تحقيق ذلك عصا سحرية يذهل الناس مرآها، ولم يكن صاحب كلام منمق، أو لسان حاد يغشى به الجموع يعدهم ويمنيهم زخرف الحياة الدنيا، كحال من يطمع في كسب أصوات الناس بزخرف الكلام، وسراب الوعود في دنيا الانتخابات، كما لم يكن يحمل صرراً من المال يدفعها للفقراء بيد، ويجرهم لما يريد بيده الأخرى مستغلاً فاقتهم كما يفعل دعاة التنصير وغيرهم.لم يكن يفعل شيئاً من ذلك، لأنها وسائل لا تصل إلى القلوب، ولا تنبع عن الدخول فيما يريده الداعي عن قناعة وتسليم. إنما كان مصعب رضي الله عنه يملك لتحقيق مهمته السامية إيماناً يعمر قلبه، يلحظه من يراه إشراقاً في وجهه، وصدقاً في حديثه، ولديه إصرار وعزيمة صادقة على نشر هذا الدين والتضحية من أجله، اكتسبها من تلك الظروف التي عاشها والمؤمنون في مكة تحت طائلة القهر والاضطهاد، وفوق ذلك فمعه قرآن عظيم راسخ في قلبه، فإذا ما رتله بصوته الندي لا تملك القلوب إلا أن تتجاوب معه.

---

(١) عن هذه البيعة انظر: صحيح البخاري: مناقب الأنصار: باب وفود الأنصار وبيعة العقبة.وصحيح مسلم: كتاب الحدود: باب الحدود كفارات لأهلها. سيرة ابن هشام: ٣٩- ٤١.

(٢) كان ﷺ يبايع النساء على ما ورد في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الممتحنة [١٢].

ويتضح هذا في قصة إسلام أسيد بن الحضير وسعد بن معاذ رضي الله عنهما، فقد خرج أسعد بن زرارة ومعه مصعب رضي الله عنهما للدعوة فاجتمع حولهما جمع من الفتيان، فسمع بهما سعد بن معاذ سيد بني عبد الأشهل وهو ابن خالة أسعد بن زرارة ومعه صاحبه أسيد بن الحضير، فقال لأسيد: إئت أسعد بن زرارة فازدجره فليكف عنا ما ذكره، فإنه قد بلغني أنه قد جاء بهذا الرجل الغريب معه يتسفه به سفهاؤنا وضعفاؤنا، فإنه لولا ما بيني وبينه من القرابة كفيتك ذلك، فأخذ أسيد بن حضير الحربة ثم خرج حتى أتاهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا والله سيد قومه قد جاءك فأبل فيه بلاء حسناً. قال: إن يقعد أكلمه، فوقف عليهما متشتماً، فقال: يا أسعد مالنا ولك تأتينا بهذا الرجل الغريب يسفه به سفهاؤنا وضعفاؤنا، فقال: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره، فقال: قد أنصفتم، ثم ركز الحربة وجلس، فكلمه مصعب بن عمير رضي الله عنه وعرض عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن. فيقول أسعد: فوالله لعرفنا الإسلام في وجهه قبيل أن يتكلم لتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله وكيف تصنعون إذا دخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل وتطهر ثيابك وتشهد شهادة الحق وتصلي ركعتين ففعل ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً من قومي إن تابعكما لم يخالفكما أحد بعده..، وتمكن أسيد من إقناع سعد بن معاذ للذهاب إليهما، فلما قدم عليهما دعواه كما دعوا صاحبه فأسلم سعد وعاد إلى قومه فقال لهم: (يا بني عبد الأشهل أي رجل تعلموني فيكم؟ قالوا: نعلمك والله خيرنا وأفضلنا فينا رأياً، قال: فإن كلام نسائكم ورجالكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله وحده وتصدقوا بمحمد)، فوالله اليوم ما أمسى في ذلك اليوم في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً[1].

---

(١) الموقوف على تفاصيل خبر إسلام سعد بن معاذ وأسيد، انظر: دلائل النبوة للبيهقي ٢/ ٤٣٨، السيرة النبوية لابن كثير عن ابن إسحاق ٢/ ١٨١، وقال مهدي رزق الله عن الخبر: رواه ابن إسحاق بسند حسن ولكنه مرسل. (السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ٢٤٧).

بيعة العقبة الثانية:

أمضى مصعب بن عمير رضي الله عنه قريباً من سنة في يثرب وهو في دأب لا يفتر، وهمة لا تقصر في نشر الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار "الأوس والخزرج" إلا وفيها رجال ونساء مسلمون[1]، وفي مقدمتهم زعماء وكبار القبيلتين. وإذا كان رجاء تحقيق مصلحة السلم والوئام بين الأوس والخزرج، ونبذ حياة الفرقة والقتال، من أهم دوافع إسلام رجال القبيلتين، إلا أنه بمجرد دخولهم في هذا الدين، وتمكّن الإيمان من قلوبهم، فإنهم لم يقفوا عند هذا الهدف القريب الخاص، بل تخطوه إلى ما هو أكبر وأسمى، فربطوا مصيرهم بمصير هذا الدين، وأصبح تأمين سبيل الدعوة ونصرة رسول الله ﷺ أهم من النظر إلى مصالحهم، وأكبر ما يشغل بالهم؛ لذا فإنهم سرعان ما ساءلوا أنفسهم- وهم يعلمون حال رسول الله ﷺ وأصحابه المضطهدين- كما قال جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما: (فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة ويُخاف؟..)[2] وعقدوا العزم على دعوة الرسول ﷺ لإيوائه ونصرته، وقبل موسم الحج التالي قدم مصعب بن عمير رضي الله عنه مكة مبشراً رسول الله ﷺ بما تحقق من نتائج عظيمة، ويخبره بقدوم وفد كبير ممن أسلم لمبايعته.

قدم الوفد المسلم من يثرب في موسم الحج مع عامة المشركين من حجاج أهل يثرب، وهم يخفون غايتهم التي قدموا من أجلها، وحين قدموا اتصلوا بالرسول ﷺ سراً فواعدهم أوسط أيام التشريق ليلتقوا به ليلا في العقبة من منى، وعلى حين غفلة من أهل الموسم تسللوا فرادى تحت جنح الليل حتى تكامل وجودهم عند رسول الله ﷺ، وعددهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، ودار حوار بين الوفد ورسول الله ومعه عمه العباس بن عبدالمطلب، الذي حضر ليتأكد لابن أخيه ويوثق له العهود والمواثيق من الأنصار، حين قال: يا معشر الخزرج إن محمداً في منعة من قومه وبلاده، وقد

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٦.

(٢) سنن البيهقي الكبرى:٩/ ٩.

منعناه ممن ليس على مثل رأينا فيه، وقد أبى إلا الانقطاع إليكم، فان كنتم ترون أنكم توفون له بما وعدتموه فأنت وما جئتم به، وإن كنتم تخافون عليه من أنفسكم شيئا فالآن فاتركوه، فإنه في عز ومنعة. قالوا قد سمعنا ما قلت. ثم قالوا لرسول الله ﷺ تكلم فخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فبين لهم الرسول ﷺ على ما يبايعونه حيث قال: (**تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن تقولوا في الله لا تخافون لومه لائم وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة**)[1].

ولأن هذه البيعة سيترتب عليها عواقب كبيرة أراد بعض الأنصار أن يتأكد من معرفة الجميع لهذه العواقب واستعدادهم لتحملها، فقال العباس بن عبادة بن نضلة يا معشر الخزرج هل تدرون علام تأخذون محمدا فإنكم تأخذونه على حرب الأحمر والأسود فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكتم أسلمتموه فمن الآن فاتركوه وإن صبرتم على ذلك فخذوه. فقالوا بل نأخذه على ذلك[2].

وحينما مدّ الرسول ﷺ يده لمبايعتهم أخذ أسعد بن زرارة بيده وقال: رويدا يا أهل يثرب إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن يعضكم السيف فإما أنتم قوم تصبرون عليها إذا مستكم وعلى قتل خياركم ومفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذر عند الله عز وجل فقالوا يا أسعد أمط عنا يدك فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيله[3]. فبايع الجميع وهم مدركون لما تعنيه هذه البيعة العظيمة.

---

(١) سنن البيهقي: ٩/ ٩. مستدرك الحاكم: ٢/ ٦٨١٦٢٤،. مسند الإمام أحمد:٣/ ٣٢٢،٤٦١. الثقات: ج١/ ص١٠٩.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام:٢/ ٥٥. ابن حجر: الإصابة:٤/ ٣٠.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٣/ ٣٢٢. المستدرك على الصحيحين: ٢/ ٦٨١.

وأحب الأنصار- بعد أن ربطوا بهذه البيعة مصيرهم بمصير الإسلام ورسوله- أن يؤكدوا بأن لا يكون هذا الارتباط من طرف واحد، فقال أحدهم: (يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها - يعني اليهود- فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا)؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: (بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم)[١]. وتسمى هذه البيعة بالبيعة الكبرى لما ترتب عليها من نتائج كبيرة.

عاد الوفد بعد نجاح مهمتهم بلقائهم الرسول ﷺ ومبايعته، منتظرين هجرته وأصحابه إليهم بشوق.

هجرة المسلمين:

بعد فشو الإسلام في يثرب، ومبايعة الأنصار لرسول الله ﷺ في العقبة الثانية على نصرته، أصبحت يثرب مهيأة لهجرة المؤمنين إليها، خاصة أن زعماء قريش لما تأكد لهم مبايعة الأنصار للرسول ﷺ زادوا من أذاهم للمسلمين، مما جعل الرسول ﷺ يأمر أصحابه بالهجرة قائلاً: (**إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها**)[٢] وجاء تحديد يثرب لتكون دارا للهجرة بوحي من الله لنبيه. فقد ورد في الأحاديث الصحيحة أنه رأى في المنام أن مهاجره إلى يثرب[٣].

بدأ أصحاب رسول الله هجرتهم إلى يثرب "المدينة" متسللين خفية حتى لا يعلم بهم كفار قريش، ونجح الكثير منهم في الهرب من مكة والإفلات من مراقبة قريش والوصول إلى المدينة.

---

(١) مسند الإمام أحمد:٣/ ٤٦١. وللوقوف على تفاصيل بيعة العقبة الثانية انظر: السيرة النبوية لابن هشام:٢/ ٤٧ وما بعدها. السيرة النبوية لابن كثير: ٢/ ١٩٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٦. السيرة النبوية لابن كثير: ٢/ ٢١٥.

(٣) انظر: صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب / ٤٥ هجرة الرسول ﷺ وأصحابه، وصحيح مسلم: ٤/ ١٧٧٩. فتح الباري: ٧/ ٢٣١.

«وقد سعت قريش بشتى الطرق إلى عرقلة الهجرة إلى المدينة، وإثارة المشكلات أمام المهاجرين، مرة بحجز أموالهم ومنعهم من حملها، ومرة بحجز زوجاتهم وأطفالهم، وثالثة بالاحتيال لإعادتهم إلى مكة. لكن شيئاً من ذلك كله لم يعق موكب الهجرة، فالمهاجرون كانوا على أتم الاستعداد للانخلاع عن أموالهم وأهليهم ودنياهم كلها تلبية لداعي العقيدة»[١].

مضت هجرة أصحاب رسول الله ﷺ رغم كل المعوقات حتى لم يبق في مكة إلا من حبسه المشركون أو من لا يستطيع الخروج، كما بقي رسول الله ينتظر الإذن من الله، وأمر أبا بكر بالبقاء ليكون رفيقه في الهجرة، وعلي ابن أبي طالب ليرد ما عند رسول الله ﷺ من الأمانات إلى أصحابها.

خلت طرقات مكة وبطاحها من أولئك المؤمنين، وخلت منهم ديارهم، فأوحشت بعد إيناس، وأقفرت بعد أن كانت آهلة، وغدت خاوية تخفق فيها الرياح، وتخفق بخفقها قلوب من يرونها وقد أخرج منها أهلها بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، فتتحرك عواطفهم مهما كانت جامدة، وتلين قلوبهم مهما كانت قاسية. مرَّ عتبة بن ربيعة والعباس "عم الرسول ﷺ" وأبو جهل على واحدة من تلك الدور[٢]، فنظر إليها عتبة تخفق الريح بأبوابها ليس بها ساكن، فتنفس نفساً عميقاً وقال:

وكــلُّ دارٍ وإن طالــتْ سَــلامَتُها ... يومــاً ســتُدْرِكُها النَّكْبَـاءُ والحُـوبُ[٣]

ثم قال متألماً: أصحبت دار بني جحش خَلاء من أهلها. لكنَّ هناك قلوباً شاذة نُزعت منها معاني الخير فلا تعرف إلا الشر، وقلب أبي جهل واحد منها، لذا قال لعتبة منكراً عليه حزنه وتألمه: وما تبكي عليه من «قُل بن قُل»[٤] ثم التفت على العباس

(١) العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٢٠٢.

(٢) دار بني جحش.

(٣) النكباء: الريح إذا انحرفت ووقعت بين ريحين. والحوب بالضم، الهلاك والبلاء. (القاموس المحيط)

(٤) تقال لمن لا يُعرف ولا يُعرف أبوه وهذا سخرية من أبي جهل بصاحب الدار رضي الله عنه.

وقال: هذا من عمل ابن أخيك، فرّق جماعتنا، وشتت أمرنا، وقطع بيننا[1]. وهـذه عـادة المجرمين والطغاة في كل حين «يجرمون ويرمون الوزر على أكتاف غيرهم»[2].

الهجرة النبوية:

حين رأى كفار قريش أن المسلمين هاجروا وأفلتوا من أيديهم زادهم ذلك غيظاً، وأحسوا بأن الخطر الذي يتوقعونه من محمد ﷺ ودعوته بات قريباً إن لم يتداركوا الأمر، لأنه إذا ما تكامل انتقال المسلمين ورسولهم معهم إلى المدينة فهذا يعني لديهم أنه سيقود حرباً ضدهم. لذا لم يعد في أيديهم - وقد هاجر معظم المسلمين- من الحلول سوى ما يتعلق بمحمد ﷺ، ولأن الأمر لا يحتمل التأجيل فقد عقدوا اجتماعاً طارئاً في "دار الندوة" حضره من كل قبيلة أشرافها لبحث ما يجب أن يفعلوه.ويروي قتادة ما دار في هذا الاجتماع بقوله: دخلوا في دار الندوة يأتمرون بالنبي ﷺ فقالوا: لا يدخل معكم أحد ليس منكم فدخل معهم الشيطان في صورة شيخ من أهل نجد، فقال بعضهم: ليس عليكم من هذا عين،[3] هذا رجل من أهل نجد. قال: فتشاوروا فقال رجل منهم أرى أن تُركِبوه بعيرا ثم تخرجوه، فقال الشيطان: بئس ما رأى هذا. هو هذا قد كان يفسد ما بينكم وهو بين أظهركم، فكيف إذا أخرجتموه فأفسد الناس ثم حملهم عليكم يقاتلوكم، فقالوا: نعم ما رأى هذا الشيخ. فقال قائل آخر: فإني أرى أن تجعلوه في بيت وتُطيِّنوا عليه بابه وتدعوه فيه حتى يموت. فقال الشيطان: بئس ما رأى هذا، أفترى قومه يتركونه فيه أبدا ؟ لا بد أن يغضبوا له فيخرجوه. فقال أبو جهل: أرى أن تخرجوا من كل قبيلة رجلا ثم يأخذوا أسيافهم فيضربونه ضربة واحدة فلا يدري من قتله فتدونه[4]. فقال الشيطان: نعم ما رأى هذا[5]. فتفرقوا على ذلك.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٩.

(٢) الغزالي: فقه السيرة: ١٦٦.

(٣) العين: الجاسوس.

(٤) أي تعطون قومه ديته.

(٥) مصنف عبدالرزاق: ٥/ ٣٩٠،٣٨٩. وأورد ابن إسحاق حديث دار الندوة بتفصيل أكثر وذكر فيه أسماء أبرز المشاركين. (سيرة ابن هشام: ٢:٩٣ ـ ٩٥)

وقد أشار الله في كتابه الكريم إلى هذا الاجتماع وما تم طرحه فيه من آراء للتخلص من محمد ﷺ فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾(1).

اتفق القوم على رأي أبي جهل بقتل الرسول ﷺ بطريقة جماعية، بحيث تختار كل قبيلة شاباً من شبابها ليقوم مع شباب القبائل الأخرى بضرب الرسول ﷺ ضربة رجل واحد، فيصعب على قوم محمد مواجهة جميع القبائل فيرضون مرغمين بالدية. وتم تحديد موعد للتنفيذ تحت إشراف أبي جهل وتوجيهه.

وهنا حين استكمل الرسول ﷺ جميع الأسباب، واتخذ كل الوسائل، وسلك كل الطرق لدعوة أهل مكة، وحين وصل معهم إلى طريق مسدود، هنا جاء أمر الله لنبيه بالهجرة، فأرسل له جبريل يخبره بما تآمر به القوم، ويأمره ألا يبيت في فراشه.

على الفور شرع ﷺ في أمر الهجرة، ومع يقينه بأن الله ناصره ومتم أمر هجرته، إلا أنه اتخذ كل الأسباب التي عليه ـ كبشر ـ أن يراعيها ويتبعها، ويترك كل ما هو فوق طاقته لله تعالى يتولاه. فأمر علي بن أبي طالب بالمبيت في فراشه ليلة موعد تنفيذ القتل، كما أمر أبا بكر أن يُعدّ له الراحلة، واتفق مع عبدالله بن أريقط ـ أحد المشركين المشهورين بمعرفة الطرق ـ ليسلك به طريقاً غير معروف، واختار أن يختبئ بغار ثور ثلاثة أيام حتى يهدأ الطلب والبحث عنه، ويقع هذا الغار في الجهة المعاكسة لطريق المدينة، للتعمية على طالبيه، وكان عبد الله بن أبي بكر يأوي إليهما ليلاً في الغار ليخبرهما بتحركات قريش وكل ما سمعه من أخبار ثم يعود قبل طلوع الفجر، كما كان مولى أبي بكر عامر بن فهيرة يمر عليهما بغنم معه كأنما يرعى بها ويتأخر إلى أول الليل ويمكث حتى ينتشر الظلام فيسقيهما من حليبها. بهذا فعل ﷺ كل أسباب الحيطة والحذر التي بمقدوره ليكون في ذلك درس لأمته(2).

(1) سورة الأنفال، الآية [٣٠].

(2) عن هذه التدابير التي اتخذها ﷺ انظر: صحيح البخاري: كتاب الصلاة/ باب هجرة النبي ﷺ.

أما ما لا قدرة له عليه كبشر فقد تركه لله فتولى الله ذلك، فأخرجه من بيته والقوم محيطون به دون أن يروه، بعد أن جعل على أبصارهم غشاوة فلم يروه، وحين وصل بعضهم إلى الغار للبحث عنه حتى لو نظر أحدهم إلى موضع قدميه لرآى رسول ﷺ وصاحبه أبا بكر مما جعل أبا بكر يخاف على نبيه، فقال له ﷺ: (**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما**)[1] فأعمى الله أبصارهم فرجعوا موقنين أن ليس في الغار من أحد. كما حفظه في الطريق من محاولة سراقة اللحاق به.

مكث المصطفى ﷺ وصاحبه أبو بكر ﷺ في الغار ثلاثة أيام ثم انطلقا مع دليلهما الذي سلك بهم الطريق الساحلي المهجور.

أما قريش فلما أعياها الطلب ولم تدر عن أمر محمد شيئاً فقد أعلنت عن جائزة كبرى لمن يعثر على محمد حياً أو ميتاً. وكان "سراقة بن مالك" ممن طمع في نيل هذه الجائزة فجهز نفسه، وسلك الطريق الذي سلكه الرسول ﷺ وصاحبه، فلما اقترب منهم حدث له أمر غريب، فكان كلما اقترب منهما غاصت قوائم فرسه في الأرض، فعلم أن الله مانعهما منه ومظهر أمر محمد ﷺ، فطلب منه أن يكتب له أماناً يحتفظ به لنفسه عند محمد ﷺ فيما بعد، فكتب له بذلك. فعاد مخذلاً عنهما بعد أن خرج في طلبهما، فكان يقول لمن أراد أن يبحث في ذلك الطريق قد كفيتكم ذلك الطريق، ابحثوا في طريق غيره[2].

مضى ﷺ في هذا الطريق المهجور متعرضاً لعدد من المخاطر، والتقى بعدد من السالكين لهذا الطريق، ووقعت له بعض الأحداث كان من أهمها نزوله على امرأة تدعى بـ"أم معبد" في خيمة لها، وكان التعب والجوع والظمأ قد بلغت فيه ومن معه مبلغها، فالتمس طعاماً عند أم معبد فلم تجد ما تسعفه به، فنظر الرسول ﷺ إلى شاة قد خلفها الهزال عن السير مع بقية الغنم للرعي وقد جف ضرعها، فاستأذن أم معبد في حلبها فقالت: إن رأيت بها حلباً فاحلبها. فمسح على ضرعها وذكر اسم الله ودعا فدرت حليباً فشرب منه وشرب من معه حتى شبعوا، ثم حلب ثانية حتى ملأ الإناء وتركه لأم معبد،

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل أصحاب النبي: باب مناقب المهاجرين مناقب أبي بكر.

(٢) أورد البخاري خبر سراقة مفصلا في صحيحه: كتاب الصلاة/ باب هجرة النبي ﷺ.

فلما قدم زوجها تعجب من أمر هذا الإناء المملوء، فأخبرته بما حدث، ووصفت له محمداً وأصحابه، فقال: والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا..."[1].

أما المسلمون في المدينة فلما سمعوا بخروج الرسول ﷺ من مكة كانوا يجتمعون خارج "يثرب" ينتظرون مقدمه في الغداة كل يوم، حتى إذا اشتد بهم حر الشمس عادوا إلى منازلهم. فلما كان اليوم الذي قدم فيه وانتظروا حتى زالت الشمس وعادوا إلى منازلهم، قدم وفد الرسول ﷺ المبارك حين عودتهم، فأبصرهم أحد اليهود فصاح مخبراً المسلمين بقدوم من ينتظرونه، فخرجوا فاستقبلوه والفرحة تعلوهم والسعادة تغمرهم في يوم مشهود شهده الكبير والصغير، والنساء والصبيان يرددون أصوات الفرحة منشدين: قدم رسول الله، جاء رسول الله.

كان نزوله ﷺ أول ما قدم بقباء فمكث به أياماً أسس فيها مسجد قباء الذي قال الله فيه: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾[2] ثم انطلق من قباء وأدركته الجمعة في منازل بني سالم بن عوف فصلى بهم الجمعة، وهي أول جمعة صلاها ﷺ،[3] ثم انطلق ماراً بأحياء المدينة والناس محتشدين من بين يديه ومن خلفه، وصعد الرجال والنساء فوق المنازل، والصبيان والخدم ينسابون في الطرقات مرحبين به يرددون: (يا محمد يا رسول الله، يا محمد يا رسول الله)[4] (ادخل المدينة راشدا مهديا)[5]. وكلما مر بحي من أهل المدينة أمسكوا بزمام ناقته وسألوه أن ينزل عندهم، فكان يقول: **(دعوها فإنها مأمورة)**[6].

---

(١) عن قصة نزول الرسول ﷺ على أم معبد انظر: المستدرك للحاكم: ٣/ ٩. المعجم الكبير للطبراني:٤/ ٤٨. مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: ٢٨١.

(٢) سورة التوبة، الآية [١٠٨].

(٣) المعجم الكبير للطبراني: ٦/ ٣٠.

(٤) صحيح مسلم: ٤/ ٢٣١١. وانظر العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ٢١٨، ٢١٩.

(٥) سير أعلام النبلاء:٢/ ٤٠٦.

(٦) انظر تخريج هذا الحديث: العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ٢١٩. وقال بعد ذكر الروايات الواردة في الحديث، فيرقى إلى الحسن لغيره.

حتى بركت في أرض ليتيمين من بني مالك بن النجار عند بيت أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وهو المكان الذي بني فيه مسجده ﷺ. ونزل في دار أبي أيوب رضي الله عنه.

وهكذا استقر الرسول ﷺ في المدينة بين أصحابه من أهل مكة والمدينة، ولقد صدق المسلمون من الخزرج والأوس في بيعتهم فآووا رسول الله ﷺ وأصحابه حيث نزلوا عليهم في دورهم، واتسعت لهم صدورهم، واختفت هنا الأسماء والألقاب المبنية على العنصر القبلي، وأصبح لفظ المهاجرين عَلَماً يشمل كل من هاجر من مكة إلى المدينة، كما دخل المسلمون من أهل المدينة تحت مسمى **الأنصار**، واختفى اسم "**يثرب**" ليحل محله "**مدينة الرسول**".

ولما ترتب على الهجرة من نتائج عظيمة كان لها أثرها في تاريخ الإسلام، استحقت الهجرة أن تكون أعظم حدث في تاريخ الإسلام يؤرخ به المسلمون أحداثهم إلى قيام الساعة.

وحينما كانت دولة الإسلام الناشئة بحاجة إلى القوة لتقف على قدميها وتحمي نفسها، في مجتمع يموج بالأعداء المتربصين بها. واجتماع المسلمين وتكثير سوادهم من أهم عوامل تلك القوة، لذا كانت الهجرة إلى المدينة فرضاً على كل مسلم خارجها، وتوعد الله الذين لم يمتثلوا أمره بالهجرة بالعذاب الشديد، ولم يستثن سوى العاجزين والمغلوبين على أمرهم فقال تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[1]. ووعد من يهاجر بالخير الوفير والأجر الكبير في قوله: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2].

---

(١) سورة النساء، الآيات [٩٧-٩٩].

(٢) سورة النساء، الآية [١٠٠].

وحينما أصبحت الدولة الإسلامية قادرة على الدفاع عن نفسها بعد غزوة الأحزاب، وبعدما انتشر الإسلام بين كثير من القبائل في أعقاب صلح الحديبية، وبعد كسر شوكة المشركين بفتح مكة، أسقطت فرضية الهجرة ووجوبها، حيث قال ﷺ: (**لا هجرة بعد الفتح**)[1].

ركائز المجتمع المسلم في المدينة:

بعد الهجرة انتقل المسلمون إلى مرحلة جديدة، أعز الله فيها الإسلام وقامت له فيها دولة، وأصبح للمسلمين مجتمع خاص تكاملت فيه - على مراحل - مؤسساته المختلفة. وسنتحدث عن أهم الركائز التي شرع رسول الله ﷺ في بنائها بعد الهجرة لتأسيس الدولة الإسلامية وإرساء قواعد المجتمع الإسلامي.

[١] بناء المسجد:

كان أول عمل قام به ﷺ بناء المسجد؛ لأهميته في حياة المسلمين أفراداً وجماعات. فأصدر أمره ببنائه في المكان الذي بركت فيه ناقته. وعلى الرغم من إصرار الغلامين ـ مالكي الأرض ـ على التبرع بالموقع إلا أنه ﷺ أصر إلا أن يشتريه منهما.

وبهمة لا تعرف الكلل، وتفان في الفوز بعظيم الأجر، بدأ العمل في مشروع البناء، وشارك الرسول ﷺ أصحابه في العمل مما زادهم همة ونشاطاً. وكان المسجد متواضعاً في مبناه، لبناته من الطين، وأعمدته من جذوع النخيل، وسقفه من جريد النخل[2]، لكنه عظيم في معناه، كبير في مهمته، فهو كما قال عماد الدين خليل: «رمز لما يتسم به الإسلام من شمولية وتكامل، فقد أصبح مركزاً روحياً لممارسة الشعائر وأداء العبادات، ودائرة سياسية عسكرية لتوجيه علاقات الدولة في الداخل والخارج، ومدرسة علمية يجتمع في ساحاتها أصحاب الرسول ﷺ، وتدار في باحاتها الندوات،

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد. باب: فضل الجهاد والسير.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الصلاة: باب بنيان المسجد. فتح الباري: ١/ ٥٤٠.

وتلقى على منبرها المتواضع التعاليم والكلمات، ومؤسسة اجتماعية يتعلم المسلمون فيها النظام والمساواة، ويمارسون التوحد والإخاء والانضباط..»[1].

وبُني بجوار المسجد دور متواضعة لتكون سكناً للرسول ﷺ وأزواجه الطاهرات رضي الله عنهن.

[٢] المؤاخاة:

كان المهاجرون قد تركوا أوطانهم ومساكنهم وأموالهم وأهليهم في مكة، وجاؤوا بأنفسهم لا يملكون غير دينهم الذي فروا به، فاجتمع عليهم عدة مشكلات: غربة الوطن والأهل، وقلة ذات اليد، وعدم وجود السكن والمأوى. ومشكلة النازحين من بلدانهم إلى بلاد أخرى لا تزال مشكلة تعاني منها المجتمعات الإنسانية في كل حين، وليس من السهل حلها في وقت قليل وبجهد يسير، إلا أن سيد البشرية ﷺ وضع حلاً فريداً وناجعاً لهذه المشكلة في أوجز وقت وبأيسر جهد. وهو نظام المؤاخاة، فربط كل مهاجري بأخ له من الأنصار يواسيه في غربته ويخفف عنه كربته، ويأنس كل منهما بالآخر. وقد وصلت تلك الأخوة بين المهاجرين والأنصار إلى درجة أعمق من رابطة النسب، في صورة لم تشهدها الروابط الإنسانية في عصر من العصور، حتى كان من حقوق تلك الأخوة أن يرث بعضهم بعضاً دون ذوي الأرحام. ولا تحسبن أن هذه المؤاخاة كانت ثقيلة على نفوس الأنصار حيث عليهم العبء الأكبر من الإنفاق والمواساة، بل على العكس من ذلك كانوا يودون أن يقدموا أكثر مما تتطلبه هذه الأخوة، فقد عرضوا على الرسول ﷺ أن يقسم مزارع نخيلهم بينهم وبين إخوانهم المهاجرين، فلما رفض ذلك، عرضوا أن يعمل المهاجرون في مزارعهم ويشاركوهم في الثمر، فوافق لهم المهاجرون[2].

---

(١) دراسة في السيرة : ١٤٩.

(٢) ابن حجر: فتح الباري : ٥/ ٨، ٣٢٢. في شرحه الحديث الذي جاء في صحيح البخاري برقم ٢٣٢٥، ٢٧١٩.

وقد امتدح الله الأنصار وبين ما وصلوا إليه من سخاء وإيثار بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1] بل إن المهاجرين أشفقوا وخافوا أن يذهب الأنصار بالأجر من الله عنهم فقالوا للرسول ﷺ: يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن بذلاً من كثير، ولا أحسن مواساة في قليل، قد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ، فقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال ﷺ: **(كلا، ما أثنيتم عليهم به، ودعوتم الله - عز وجل- لهم)**[2]. وتوضح قصة سعد بن الربيع الأنصاري مع أخيه عبد الرحمن بن عوف المهاجري رضي الله عنهما، ما كان عليه الأنصار من صدق في الإيثار، وما كان عليه المهاجرين من عرفان للجميل. فحين آخى الرسول ﷺ بينهما عرض سعد الأنصاري على عبد الرحمن المهاجري أن يعطيه نصف ماله، وأن يطلق له إحدى زوجتيه ليتزوجها، فقال له عبدالرحمن: (بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق). فأصبح يغدو ويروح إلى السوق حتى أصبح من أغنياء المهاجرين[3].

وقد أدت تلك المؤاخاة أثرها في ربط قلوب المؤمنين، ومواساة المهاجرين، وبناء مجتمع متراص الصفوف تملؤه المحبة ويسوده التآخي. فلما استقرت حياة المهاجرين وتوفرت لديهم سبل العيش وأغناهم الله، أبطل الله حق التوارث في هذه الأخوة، بقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ﴾[4].

(١) سورة الحشر، الآية [٩].

(٢) سنن الترمذي: ٤/ ٦٥٣. مسند أحمد: ٣/ ٢٠٠. سنن البيهقي: ٦/ ١٨٣.

(٣) عن هذه القصة انظر صحيح البخاري: كتاب البيوع: باب فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض: حديث ٢٠٤٨، ٢٠٤٩.

(٤) سورة الأنفال، الآية [٧٥].

[٣] المعاهدة مع اليهود:

عندما قدم الرسول ﷺ المدينة كان اليهود يمثلون جزءاً من سكانه، فاستكمالاً لتكامل بناء المجتمع في المدينة، وإرساءً لقواعد الدولة الإسلامية على أرضية ثابتة صلبة، كان لابد من تحديد نوع العلاقة مع اليهود، حتى تسير بعد ذلك الدولة المسلمة في مراحل بناء صرحها بوضوح وعلى خطى ثابتة. وهذا ما فعله ﷺ، فقد وقع وثيقة معاهدة مع طوائف اليهود، ومن أهم بنود هذه المعاهدة:

* كفالة حرية الدين «فللمسلمين دينهم ولليهود دينهم».
* اشتراك الجميع في مسؤولية الدفاع عن المدينة حين تتعرض لخطر خارجي.
* أمن المدينة الداخلي مسؤولية الجميع «فعلى كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلهم».
* كل طرف يحترم حلفاء الطرف الآخر باستثناء قريش، فلا تجار ولا من نصرها.
* أن تكون العلاقة بين الطرفين مبنية على النصح وعدم إضمار الخداع والغش.
* وحيث إن الرسول ﷺ هو القائد الأعلى في المجتمع، واليهود جزء من هذا المجتمع، فعليهم الخضوع للقيادة العليا، فعند الخلاف يرجع إليه، وتكون الكلمة له في الحروب ونحوها.[1]

وببناء المسجد، وعقد المؤاخاة، وكتابة الوثيقة مع اليهود، يكون الرسول قد أرسى قواعد الدولة الإسلامية على أسس متينة. «فالمسجد فيه تربية المسلمين وتنظيم سلوكهم، والأخوة ترفد الحياة الاجتماعية بالحب والوفاء والإيثار، والوثيقة تضبط سلوك أولئك الذين لا ينتمون للدين الإسلامي»[2].

(١) للوقوف على تفاصيل وثيقة المعاهدة ومعرفة طرقها وتحليلها انظر: العمري:السيرة النبوية الصحيحة: ٢٧٢ ـ ٢٨٠. مهدي رزق الله: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: ٣٠٦ ـ ٣١٨. ٢٨٢ ـ ٢٩٢.

(٢) صالح الشامي: من معين السيرة: ١٦٥.

التشريعات وقيام مؤسسات الدولة:

وبعد ذلك أخذت الحياة العامة في المجتمع الإسلامي تسير نحو التكامل شيئاً فشيئاً، فنزلت التشريعات التي تمثل تعاليم الإسلام وشريعة الله لتنظيم مختلف جوانب الحياة في المجتمع المسلم والدولة المسلمة، منها ما يتعلق بتنظيم حياة الفرد وعلاقته مع ربه، ومع غيره من أفراد المجتمع، ومنها ما يتعلق بتنظيم الدولة فيما يتعلق بواجباتها وحقوقها، وكل ذلك احتاج إلى قيام بعض المؤسسات التي ترعى تطبيق تلك التشريعات، من مؤسسات تعليمية لنشر تلك التعاليم وتبصير الناس بأمور دينهم، ومحاكم قضائية لنشر العدل وإقامة الحدود، وأجهزة لضبط الأمن الداخلي، وجيوش لحماية الدولة الإسلامية، وفتح البلاد لإيصال دعوة الله إلى الناس كافة، ومن أهم التشريعات التي نزلت في السنوات الأولى للهجرة ما يلي:

مشروعية الأذان:

كان المسلمون إذا أردوا الصلاة اجتمعوا لوقتها في المسجد دون نداء، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يجعل بوقا كبوق اليهود يدعو به للصلاة ثم كرهه، ثم أمر بالناقوس فنحت ليضرب به للمسلمين إلى الصلاة، فبينما هم على ذلك رأى عبد الله بن زيد الخزرجي رضي الله عنه في نومه رجلاً عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوسا في يده، يقول عبدالله فقلت: يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس؟ فقال: وما تصنع به؟ قلت ندعو به إلى الصلاة، فقال: ألا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال تقول: الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر..إلى آخر الأذان، وكذلك علمه الإقامة للصلاة. فأخبر زيد رسول الله ﷺ برؤياه فقال: إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه فإنه أندى صوتا منك، فلما أذن بلال سمعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في بيته فخرج إلى رسول الله ﷺ يجر رداءه وهو يقول: (يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل ما رأى). فقال رسول الله ﷺ: **(فلله الحمد فذاك أثبت)**[1].

---

(١) عن خبر الأذان انظر:صحيح ابن حبان ج٤/ ص٥٧٢ ومسند الإمام أحمد: ٤/ ٤٢.

تحويل القبلة:

كان النبي ﷺ في مكة يتوق إلى التوجه في صلاته إلى الكعبة، وكان بإمكانه ـ آنذاك ـ أن يجمع بين هذا الميل وتلبية أمر الله تعالى بالتوجه نحو بيت المقدس، فكان إذا توجه لصلاته يجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس، فلما هاجر لم يكن يستطع ذلك. ولما كان الإسلام الحق يقتضي تقديم أمر الله على رغبات النفس فقد امتثل النبي ﷺ ـ وهو الأسوة الحسنة ـ أمر ربه بالتوجه إلى بيت المقدس في صلاته، وفي الوقت نفسه كان يكثر التطلع نحو السماء، راجيا أن ينزل الله وحيا يأمره بالتوجه إلى البيت الحرام، فجاء الأمر من الله بتحويل القبلة في الشهر السادس عشر أو السابع عشر من الهجرة النبوية [1] حين أنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾[2]، وكان يسر اليهود توجه المسلمين نحو بيت المقدس، لما يرون فيه من تبعية لهم، فلما أمر الله بتحويل القبلة ساءهم ذلك، واتخذوا منه مدخلا للطعن في الإسلام وتشكيك المسلمين، فقالوا ما ولَّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ كما قال المشركون: تحير على محمد دينه فتوجه بقبلته إليكم وعلم أنكم أهدى منه، ويوشك أن يدخل في دينكم، وقال المنافقون: ما بالهم كانوا على قبلة زمانا ثم تركوها وتوجهوا غيرها[3] فأنزل الله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4] لقد كان تحويل القبلة حدثا ينطوي على معان ودلالات عظيمة منها:

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير/ باب قوله تعالي: سيقول السفهاء من الناس....

(٢) سورة البقرة، الآية [١٤٤].

(٣) الدر المنثور:١/ ص٣٤٥.

(٤) سورة البقرة، الآية [١٤٢].

* في تحويل القبلة رد على من يزعم أن الرسول ﷺ قد يشرع من عنده أو يقول القرآن من تلقاء نفسه، فعلى الرغم من شوقه وميله الشديد للتوجه نحو الكعبة إلا أنه مكث سبعة عشر شهرا ممتثلا لأمر ربه مخالفا لرغبته، حتى جاء الأمر من الله.

* وكما كان الحدث دليلا على امتثال الرسول ﷺ بأمر الله في التشريع، كذلك كان دليلا على صدق المسلمين في اتباع أوامر الله كما أظهر نفاق المنافقين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ..﴾[1]. فلم يؤثر فيهم ما أثاره اليهود والمشركون من استهزاء أو تشكيك.

* في تحويل القبلة تميز لأمة الإسلام عن غيرها، فلم يكن توليهم بيت المقدس إلا أمرا مؤقتا للحكمة التي أرادها الله في اختبار الناس، فلما تحققت جاء الأمر باستقلال المسلمين بقبلتهم.

مشروعية الجهاد:

بقي المسلمون في مكة ثلاثة عشرة سنة يتحملون ألون التعذيب وصنوف الأذى، دون أن يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم لرد العدوان عليهم، ومع أن الحكمة تقتضي - لقلة المسلمين آنذاك - إيثار الصبر وعدم الدخول مع المشركين في قتال، إلا أن السبب الرئيس في ذلك هو أمر الله لهم بالكف عن القتال، فقد يصل التعذيب بالمسلمين إلى حالة يضجرون فيها فيضطرون للدفاع عن أنفسهم مهما كلفهم الأمر، ولكن يمنعهم من ذلك الالتزام بأمر الله. فروي أن مشركي مكة كانوا يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أذى شديدا، وكانوا يأتون رسول الله ﷺ من بين مضروب ومشجوج ويتظلمون إليه فيقول اصبروا فإني لم أومر بقتال[2]. وجاء نفر من الصحابة لرسول الله ﷺ فقالوا: يا نبي الله كنا في عز ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة فقال: (**أني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم**)[3].

(١) البقرة/ ١٤٣.

(٢) الزيلعي: تخريج الأحاديث والآثار: ٢/ ٣٨٧. وقال الزيلعي في الحديث: غريب جدا وعزاه الواحدي في الوسيط للمفسرين.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٢/ ٧٦. سنن البيهقي الكبرى: باب قوله تعالى: ألم ترى إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم.

ولعل من الحكم في أمر المؤمنين بالكف في تلك المرحلة تهيئة الأجواء والنفوس لسماع تفصيلات العقيدة الإسلامية، وإفساح المجال لسماع الحجج القرآنية التي تدحض ما يتذرع به المشركون في تبرير ما هم عليه من الشرك، فكم يود المشركون لو دخل معهم المسلمون في معاركات ومصادمات ينشغل الناس بأخبارها والتعليق عليها عن متابعة ما يدعو له الرسول ﷺ وما ينزل عليه في القرآن من حجج وبراهين هي أعظم على المشركين من القتال، ولهذا كان الكف عن القتال واحتمال الأذى مع السعي الحثيث في بيان العقيدة الصحيحة ومحاربة المعتقدات الباطلة بالحجج والبراهين القرآنية الجهاد المناسب في تلك المرحلة في مكة، وهو ما أمر الله به نبيه بقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ..﴾ أي بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (١).

و أما بعد الهجرة فقد أصبح وضع المؤمنين في المدينة مهيئا لنوع آخر من الجهاد وهو الجهاد بالسيف وقد مر هذا النوع من الجهاد بمراحل ثلاث هي:

الأولى: الإذن بالقتال لرفع الظلم: وذلك حين نزل قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٢).

الثانية: قتال المقاتلين المعتدين: وذلك حين نزل قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (٣).

الثالثة: مرحلة قتال المشركين كافة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (٤).

من يحكم الجهاد:

وقد بين الله في عدد من الآيات الحكم والمصالح التي شرع الجهاد من أجلها، ومن أهمها منع الفساد في الأرض، ونشر الحق المتمثل في الاعتقاد الصحيح الذي يدعو

(١) تفسير ابن كثير: تفسير سورة الفرقان، آية/ ٥٢.

(٢) سورة الحج، الآية [٣٩].

(٣) سورة البقرة، الآية [١٩٠].

(٤) سورة التوبة، الآية [٣٦].

لتوحيد الخالق، والحد من الشر المتمثل في الشرك بالله وإضلال عباده، فقد اقتضت حكمة الله وإرادته الكونية أن يكون الناس في الأرض ـ منذ أهبط آدم وإبليس إليها ـ فريقين مختلفين متعاديين ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ..﴾(١) فريق يتبع هدي الأنبياء والرسل، ويعمل لنشر الخير والصلاح، وفريق يتبع الشيطان الذي أخذ على نفسه أن يعمل لإضلال العباد، متخذا من زخرف القول والإغراء بالشهوات وإثارة الشبهات وسائل لنشر الضلال، مستعينا بشياطين الإنس جنودا لنشر فساده في الأرض، لذا شرع الله الجهاد لأهل الحق والإصلاح لدفع فساد هذا الفريق الذي لا يخلو منهم مكان أو زمان. وهذا ما بينه الله في أعقاب المعركة التي خاضها المؤمنون بقيادة الملك طالوت ومعه داود عليه السلام ضد الكافرين بقيادة جالوت، حين قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾(٢).

فالجهاد إذاً ليس لفرض سلطان مخلوق على آخر، ولا لتحقيق المكاسب ونهب الثروات. إنه إنقاذ للخلق من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق، ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٣). وقد فهم الصحابة هذا الهدف السامي للجهاد، فهذا ربعي بن عامر حينما بعثه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه للتفاوض مع قائد الفرس "رستم" فيقول له: (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام...)(٤).

(١) سورة طه، الآية [١٢٣].

(٢) سورة البقرة، الآية [٢٥١].

(٣) سورة الأنفال، الآية [٣٩].

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية: ٧/ ٣٩.



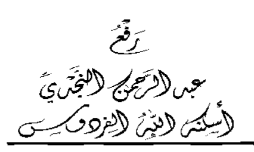
الدولة الإسلامية في مواجهة القوى المختلفة

وفيه:

أولاً: الدولة الإسلامية ومواجهة المشركين.

ثانياً: الدولة الإسلامية ومواجهة أهل الكتاب.

ثالثاً: الدولة الإسلامية ومواجهة المنافقين.



تمهيد:

كان قيام الدولة الإسلامية في المدينة مؤذناً بمرحلة جديدة من مراحل الجهاد والابتلاء للمسلمين ودولتهم الناشئة، فلم يعد العداء محصوراً في قريش، بل شاركها العداوة قوى أخرى، فدخل كثير من القبائل المشركة مع قريش في حربها ضد المسلمين، وكان هناك أهل الكتاب وفي مقدمتهم اليهود الذين أغاظهم ـ أولاً ـ أن النبي الذي كانوا يعلمون ظهوره لم يكن منهم، وأغاظهم ـ ثانياً ـ ما ترتب على الهجرة من توحد العرب في المدينة، وهم يرون في ذلك إضعافاً لجانبهم، وهدماً لما عملوه في سنين لزرع الفرقة بين العرب. كما أن هناك عدواً ملتفاً حول المسلمين وداخلاً بين صفوفهم، ينفذ سهامه المتنوعة كلما وجد فرصة، وهم المنافقون. وستتناول أهم مظاهر المواجهة بين هذه القوى والدولة الإسلامية الناشئة.

أولاً: الدولة الإسلامية ومواجهة المشركين:

كان مشركو قريش في مكة أول من ناصب الدعوة الإسلامية العداء ووقفوا في طريقها، وسلكوا كل الوسائل الممكنة للصد عنها، فلما هاجر ﷺ أغاظهم ذلك؛ لإفلاته وأصحابه من أيديهم، فلا بد أن يضربوا ـ كما يظنون ـ ضربتهم للقضاء على محمد وأصحابه قبل أن يستفحل أمرهم، فكتبوا إلى عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول ومن كان معه يقولون: إنكم قد آويتم صاحبنا، وإنكم أكثر أهل المدينة عدداً، وإنا نقسم بالله لَتُقَاتِلُنَّهُ، أو لتُخرِجُنه، أو لَنَسِيرَنَّ إليكم بِأجْمَعِنَا حتى نَقْتُلَ مُقَاتِلَتَكُمْ وَنَستَبِيحَ نِسَاءَكُمْ. فلما بلغ ذلك عبد الله بن أُبيٍّ ومن معه من عَبَدَةِ الأوثان تراسلوا واجتمعوا وأجمعوا لقتال النبي ﷺ وأصحابه[1]. وفي الوقت نفسه قام مشركو مكة بغارات سريعة كان الغرض منها تهديد المسلمين في المدينة وإرهابهم، ففي شهر ربيع الأول من السنة الثانية أغار كرز بن جابر الفهري في مجموعة من المشركين على مراعي المدينة واستاق بعض المواشي[2].

---

(١) سنن أبي داود: ٣/ ١٥٦. باب في خبر النضير. تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٣٢.

(٢) الطبقات الكبرى:٢/ ٩. الثقات:١/ ١٤٧.

أما الرسول ﷺ فقد كان من أولوياته ﷺ بعد الهجرة أخذ الثأر من كفار قريش الذين عذبوا المؤمنين وسلبوهم أموالهم، وشردوهم من ديارهم ظلماً وعدواناً. فحين وقع وثيقة المسالمة مع اليهود شدد على عدم إجراء أي تحالف مع قريش، أو إجارتهم، أو حماية تجارتهم، مما يدل على عزمه على الدخول في حرب معهم، ومنذ الأيام الأولى والرسول ﷺ والمسلمون متحفزون قد أخذوا تهديدات قريش مأخذ الجد، فعن أُبيٍّ بن كعب رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه[1]. وكان ﷺ يضع الحرس عليه أول الأمر، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[2]، فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: (أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله)[3].

أهم السرايا والغزوات قبل معركة بدر[4]:

حين نزل الإذن بالقتال وجه الرسول ﷺ عددا من السرايا والغزوات[5] كان الهدف منها إشعار قريش بتيقظ المسلمين من جهة، واعتراض تجارة قريش لتعويض المهاجرين ما سلب منهم في مكة من جهة أخرى، ومن أهم تلك السرايا والغزوات:

* سرية حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه في ثلاثين من المهاجرين، لاعتراض عير لقريش قادمة من الشام بقيادة أبي جهل، فالتقوا بهم عند ساحل البحر، وحين اصطفوا للقتال حجز بينهم مجدي ين عمرو الجهني، وكان حليفا للفريقين.

(١) المستدرك على الصحيحين: ٢/ ٤٣٥.

(٢) سورة المائدة، الآية [٦٨].

(٣) المستدرك على الصحيحين: ٢/ ٣٤٢. سنن البيهقي الكبرى: ٩/ ٨.

(٤) انظر خريطة الغزوات والسرايا قبل بدر في ملحق الخرائط؟

(٥) السرية ما عقد الرسول ﷺ لوائها لأحد أصحابه ولم يخرج فيها، والغزوة ما خرج الرسول ﷺ على رأسها.

* سرية عبيدة بن الحارث بن الطلب ﷺ في ستين من المهاجرين، فاعترضوا عند بطن رابغ[1] عيرا لقريش بقيادة أبي سفيان في مائتي رجل، وحدث بين الفريقين مناوشة بالرمي دون الاقتتال بالسيوف، و كان سعد بن أبي وقاص ﷺ أول من رمى فيها، فهو أول من رمى بسهم في الإسلام.

* سرية سعد بن أبي وقاص ﷺ في عشرين من المهاجرين، لاعتراض قافلة لقريش، وكانوا يسرون بالليل ويكمنون بالنهار،فلما بلغوا الخرَّار،[2] وجدوا العير قد مرت فرجعوا. (وكانت جميع السرايا الثلاث في السنة الأولى من الهجرة)

* غزوة الأبواء، وفيها خرج رسول الله ﷺ ومعه عدد من المهاجرين، وهي أول غزوة غزاها ﷺ، لاعتراض عير لقريش فلم يجدها ولم يلق كيدا. وفيها وادع بني ضمرة على أن لا يغزوهم، ولا يغزوه، ولا يعينوا عليه عدوا..وكتب بينه وبينهم كتابا بذلك.

* غزوة بُواط، وفيها خرج رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه لاعتراض عير لقريش عددها ألفان وخمسمائة بعير بقيادة مائة رجل، فبلغ بواط ولم يلق كيدا.

* غزوة سَفَوان [3] وفيها خرج رسول الله ﷺ يطلب كرز بن جابر الفهري الذي أغار على المدينة في نفر من قريش ـ كما سبق ـ فلما بلغ ﷺ سَفَوان دون أن يدرك كرزا رجع إلى المدينة.

* غزوة العُشَيْرة [4]، وفيها خرج رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه، ليعترض عيرا لقريش بلغه أنها خرجت من مكة إلى الشام بقيادة أبي سفيان، فلما بلغ العشيرة علم أن العير فاتته، فوقّع موادعة مع بني مدلج ورجع إلى المدينة منتظرا عودة العير من الشام. (وكانت جميع غزوات الرسول ﷺ تلك في النصف الأول من السنة الثانية من الهجرة).

---

(١)بطن رابغ واد من الجحفة له ذكر في المغازي وفي أيام العرب وقال الواقدي هو على عشرة أميال من الجحفة فيما بين الأبواء والجحفة (معجم البلدان: ٣/ ١١)

(٢) تقع الخرّار شرق رابغ على قرابة (٢٥) كيلا عند غدير خم. (البلادي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية: ١١٢)

(٣) سَفَوان قرب بدر ولذا تسمى بدر الأولى.

(٤) العشيرة تصغير عشرة، وهي من ناحية ينبع بين مكة والمدينة وقال أبو زيد العشيرة حصن صغير بين ينبع وذي المروة (معجم البلدان ٤/ ١٢٧

* سرية عبدالله بن جحش رضي الله عنه، في رجب من السنة الثانية حيث بعثه الرسول ﷺ في اثني عشر رجلا من المهاجرين، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمر به، ولا يستكره من أصحابه أحداً، فلما سار يومين فتحه فإذا فيه: **(إذا نظرت في كتابي هذا فأمض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا أخبارهم)** فلما قرأ الكتاب قال لمن معه: لست بمستكره أحدا منكم، فمن كان يريد الشهادة فليمض فإني ماض لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى القوم معه، فلما بلغوا نخلة مرت بهم قافلة تجارية لقريش قادمة من الطائف، في أربعة نفر بقيادة عمرو بن الحضرمي، وكان اليوم آخر يوم من شهر رجب والقتال فيه محرم، فتشاور عبدالله وأصحابه في أمرهم فقالوا:إن نأخرنا عنهم هذا اليوم دخلوا الحرم فامتنعوا، وإن أصبناهم، أصبناهم في الشهر الحرام، واتفقوا على مهاجمة القافلة فقتلوا قائدها، وأسروا اثنين، وأفلت الثالث من أفرادها، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام فوقّف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا، فسُقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنفهم المسلمون فيما صنعوا، واستغل المشركون الحدث، فأثاروا حربا إعلامية ضد المسلمين مشنعين عليهم انتهاك الأشهر الحرم، فتولى الله عز وجل الرد على المشركين حين أنزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[1] فبين سبحانه وتعالى أن ما فعله المشركون في مكة من الصد عن دين الله، والكفر به، وإخراج المسلمين من ديارهم، كل ذلك أكبر مما فعله عبدالله بن جحش وأصحابه رضي الله عنهم.

---

(١) سورة البقرة، الآية [٢١٧]. وعن السرايا والغزوات التي سبق ذكرها انظر: (ابن هشام: ٢/ ٢٢٣_٢٤٣. الطبقات الكبرى:٢/ ٥ _١٠. زاد المعاد:٣/ ١٦٣ _١٧٠ وترتيب الغزوات بحسب ترتيب ابن سعد في الطبقات).

مراحل المواجهة مع المشركين:

كل ما سبقت الإشارة إليه من تغيظ مشركي مكة من إفلات المسلمين من قبضتهم بالهجرة، وشعورهم بأنهم الأقوى والأقدر على القضاء على المسلمين وسعيهم لذلك، وفي المقابل تيقظ المسلمين، ومحاولاتهم الجادة في الانتقام من قريش باعتراض قوافلهم التجارية، كل ذلك كان مؤذنا باندلاع حروب كبيرة بين الطرفين، وهذا ما حدث، فقد اندلعت الحرب بينهما في السنة الثانية من الهجرة. ويمكن تقسيم مجريات الحروب بين المسلمين المشركين إلى ثلاث مراحل:

«مرحلة غزو المشركين للمسلمين، مرحلة الصلح والهدنة، مرحلة غزو المسلمين للمشركين».

المرحلة الأولى: غزو المشركين للمسلمين:

استغرقت هذه المرحلة الخمس السنوات الأولى بعد الهجرة،وكانت فيها قريش تزحف وحلفاؤها بجيوشهم نحو المدينة، أملاً في القضاء على الدولة الإسلامية الناشئة، وخاض الطرفان خلال تلك المرحلة عدة غزوات، كان أكبرها شأناً وأبعدها أثراً **«غزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة الأحزاب»**.

غزوة بدر[1]:

هي أول معركة فاصلة بين المسلمين والمشركين، ومن خلال معرفة سبب هذه المعركة وسير أحداثها، ندرك أن الله تعالى أراد من هذه المعركة إنهاء حالة الضعف التي عاشها المسلمون في مكة، ولا يزال المشركون يتعاملون معهم من خلالها. كما أراد أن تكون ضربة موجعة لكبرياء قريش وتسلطها، ويكون فيها درس للجميع بأن القوة الحقيقية هي قوة الإيمان، وأن الله - ولا بد- ناصر نبيه ومظهر دينه.

سببها:

خروج الرسول ﷺ وأصحابه لاعتراض قافلة قريش بقيادة أبي سفيان، التي أفلتت منهم ـ كما سبق ـ في غزوة العُشيرة. فقد ظل الرسول ﷺ يتحين فرصة رجوعها من

---

(١) انظر: خريطة غزوة بدر ملحق الخرائط.

الشام، وحين اقترب موعد رجوعها بعث من يتحسس خبرها[1]، فلما جاءه الخبر برجوعها انتدب أصحابه للخروج فقال: هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها[2]، وخرج على وجه السرعة ولم ينتظر أحداً، حيث قال: **(فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا)**[3]. وخرج معه بضعة عشر وثلاثمائة[4] من المهاجرين والأنصار، ومعهم فرسان وسبعون بعيرا يتعاقب البعير الثلاثة نفر[5].

تتطور الأمور إلى غير ما يريده المسلمون:

خرج الرسول ﷺ وأصحابه على أمل اعتراض القافلة، ولكن الله أراد غير ذلك، فقد أفلتت القافلة؛ لأن قائدها - أبا سفيان - كان قد بعث من يستكشف الطريق، فعلم بخروج المسلمين في طريقه فأخذ طريقاً آخر نحو الساحل، واستأجر ضمضم بن عمرو ليستنفر قريشا لإنقاذ العير، فتوجه ضمضم إلى مكة ودخلها وشق قميصه وصاح: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة[6]، قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث..[7]، فخرج منهم على وجه السرعة عدد كبير يقدر بألف وثلاثمائة رجل. وبعد أن اطمأن أبو سفيان على القافلة وتجاوزها الخطر أرسل إلى قريش يخبرهم

---

(١) بعث ﷺ في الاتجاه الشمالي لطريق الشام، طلحة بن عبيدالله وسعيد بن زيد بن نفيل رضي الله عنهما، ووصلا إلى أرض الحوراء، وبعث بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء جهة بدر.. (الطبقات الكبرى: ٢/ ١١ـ ١٢) وفي صحيح مسلم ذكر أن المبعوث جهة بدر "بسيسة" (كتاب الإمارة/ باب ثبوت الجنة للشهيد).

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٤٤. عن ابن إسحاق، وقال العمري: بسند صحيح إلى ابن عباس. السيرة النبوية الصحيحة:٢/ ٣٥٦.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإمارة: باب ثبوت الجنة للشهيد.

(٤) المصنف لأبن أبي شيبة: ٧/ ٣٦٣.

(٥) وكان الرسول ﷺ وعلي بن أبي طالب وأبو لبابة رضي الله عنهما ما يتعاقبون بعيرا واحدا، فقالا للنبي غشي وتركب، فقال: (ما أَنْتُمَا بِأَقْوَى مني وَلاَ أنا بِأَغْنَى عَنِ الأَجْرِ مِنْكُمَا) مسند الإمام أحمد: ١/ ٤١١. المستدرك للحاكم: ٣/ ٢٣.

(٦) اللطيمة: الجمال التي تحمل العطر والبز غير الميرة (لسان العرب: ١٢/ ٥٤٤).

(٧) الطبقات الكبرى: ٨/ ٤٤. الثقات:١/ ١٥٥.

بنجاة قافلتهم ويأمرهم بالرجوع، فرأى بعضهم أن يعودوا إلى مكة، إلا أن الغرور أخذ أبا جهل وقال: لا نرجع حتى نرد بدراً فنقيم بها ثلاثاً، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً. فأطاعه معظمهم ورجع حوالي ثلاثمائة. وسار أبو جهل بما يقرب من تسعمائة وخمسين رجلا، وتوجهوا للنزول أمام بدر لاستعراض قوتها وإخافة المسلمين.

استشارة الرسول ﷺ أصحابه:

حين علم المصطفى ﷺ بمسير قريش إلى بدر لم يكن أمامه إلا أن يتخذ القرار المناسب لهذا الظرف الحرج؛ فجمع أصحابه واستشارهم في الأمر، فتكلم كبار المهاجرين كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ما فأحسنا، وممن تكلم المقداد بن عمرو رضي الله عنه حيث قال: (يا رسول الله امض إلى حيث أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون....)[1] فأثنى عليهم الرسول ﷺ ودعا لهم، ولكنه استمر في حث الناس على إبداء الرأي، وهو يريد أن يعلم موقف الأنصار؛ لأنهم أكثر عدداً، ولأن بيعتهم له في العقبة الثانية لا تلزمهم بالقتال معه خارج المدينة. وفهم الأنصار ذلك فقال حامل لوائهم - سعد بن معاذ رضي الله عنه -: (والله لكأنك تريدنا يا رسول الله)؟ قال: (أجل). فقال سعد: (فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لَصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، ولعل الله يريك ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله). فسُرّ بذلك رسول الله ﷺ فقال: **(سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم..)**[2].

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٥٣.

(٢) سيرة ابن هشام:٢/ ٢٥٤. السيرة النبوية لابن كثير: من رواية ابن إسحاق بسند صحيح. نقلا عن العمري:السيرة النبوية الصحية:٢/ ٢٥٩.

الاستعداد للمعركة:

بعد تأكد الرسول ﷺ من قناعة أصحابة في خوض المعركة نظم جيشه، فعقد الألوية، فعقد للمهاجرين لواء مع مصعب بن عمير، وللخزرج لواء مع الحُباب بن المنذر، وللأوس لواء مع سعد بن معاذ رضي الله عنهم أجمعين، وجعل لكل لواء شعارا ـ كلمة السر ـ وجعل للمسلمين جميعا شعاراً وهو: (يا منصور أمت) وسار حتى نزل بأدنى بدر، فقال الحُباب بن المنذر: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزل أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الحرب والرأي والمكيدة، قال: فإن هذا ليس بمنزل، فانهض حتى نأتي أدنى قليب[1] من القوم فننزله ثم نغور ما سواه من القُلب، ثم نبنى حوضا فنملأه، ثم نقاتل فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: **(قد أشرت بالرأي)**، وعمل برأيه. كما أخذ برأي سعد بن معاذ رضي الله عنه في بناء عريش للرسول ﷺ، فبني العريش حماية للرسول ﷺ، وليكون مقرا للقيادة تدار منه المعركة، وكان أبو بكر رضي الله عنه يجلس فيه مع الرسول ﷺ.

المعركة:

بعدما استقر المسلمون في بدر جاءت جموع قريش في ثلاثة ألوية ونزلوا في العدوة القصوى من بدر، فلما رآهم الرسول ﷺ قال: **(اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها وفخرها، تحادُّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني..)**[2]، ولكي يُتم الله اللقاء بين الطرفين فقد قلل عدد المشركين في أعين المسلمين، وقلل عدد المسلمين في أعين المشركين ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[3] وبدأ القتال بمبارزات بين فردية من الطرفين انتهت لصالح المؤمنين، ثم نشب قتال عنيف أسفر عن نتيجة موجعة للمشركين؛ فقد قتل منهم سبعون رجلاً فيهم معظم رؤوس الكفر وصناديده، وأسر

---

(١) القليب: البئر، والقُلب جمع قليب.

(٢) سيرة ابن هشام:٢/ ٢٦٠، فتح الباري: ٧/ ٢٨٩. عن ابن إسحاق.

(٣) سورة الأنفال، الآية [٤٤].

منهم سبعون رجلاً، بينما استشهد من المسلمين أربعة عشر رجلاً فقط. وقد سطر المسلمون بطولات في هذه المعركة يطول سردها[1].

نتيجة معركة بدر:

كان أهم نتيجة لمعركة بدر كسر شوكة قريش وإذلال كبريائها، ففيها قتل وأسر طغاتها وكبار زعمائها، فممن قتل أبوجهل، وعتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وأمية بن خلف، وممن أسر عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وكل هؤلاء سادة قريش وأكثر من تزعم إيذاء المسلمين والصد عن دين الله. فكانت تلك النتيجة بحق ضربة موجعة لقريش خاصة وللمشركين عامة.

أسباب النصر في بدر:

جاءت نتيجة غزوة بدر مفاجئة لقريش وقبائل العرب المشركة، بل ستظل هذه النتيجة محل استغراب كل من يطلع عليها من الماديين، الذين لا يعترفون إلا بالحسابات المادية المحسوسة. ولكنها تبدو طبيعية عند الذين يدركون السنن الإلهية في هذا الكون. ومن أبرز أسباب انتصار المسلمين ما يلي:

[١] **القناعة الذاتية:** استخدم الرسول ﷺ جميع الأسلحة الفعالة المتاحة في القتال، وأهمها تربية أصحابه على القناعة الذاتية في قتالهم للعدو، وفي هذا تعويض عن نقص العدد في جانب المسلمين. وهذه القناعة مبنية على الرغبة فيما أعده الله للمجاهد من أجر عظيم، ويكفي مثالاً لتوضيح ذلك قصة عمير بن الحُمام رضي الله عنه، فحين حث الرسول ﷺ أصحابه على القتال قائلاً: **(قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض)** فقال عمير متعجباً: يا رسول الله؛ أجنة عرضها السموات والأرض ؟ قال: (نعم). فأخرج تمرات كانت معه وأكل منها ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى ما تبقى معه ثم قاتل حتى قتل[2].

(١) عن أحداث معركة بدر انظر: صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب قصة غزوة بدر وما بعده. السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ السيرة النبوية لابن كثير:٢/ ٣٨٠. الطبقات الكبرى:٢/ ١١.

(٢) عن قصة عمير انظر: صحيح مسلم: ٣/ ١٥٠٩، ١٥١٠، حديث ١٩٠١. سيرة بن هشام: ٢/٢٦٧، ٢٦٨. ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٢/ ٢٥.

[٢] سلاح الدعاء: كما استخدم ﷺ سلاحاً فتّاكاً كان له أثره في تحقيق النصر، وهو سلاح الدعاء. فبه يُستجلب النصر من صانع النصر ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾(١) فقد بات ﷺ ليلة المعركة - والناس نيام - يدعو ربه ويناشده النصر، وكذا في صبيحتها، حتى أشفق عليه أبو بكر ﵁ وقال: يارسول الله: (كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك).(٢) وكذلك كان المسلمون يناشدون ربهم النصر، فاستجاب الله لدعاء نبيه ﷺ وصحابته، كما قال تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾(٣).

[٣] مشاركة الملائكة: ومن أسباب نصر المؤمنين إمداد الله لهم بالملائكة؛ يثبتون قلوبهم، ويقاتلون معهم عدوهم. وقد دلت الآيات والأحاديث الصحيحة على مشاركة الملائكة في القتال مع المؤمنين(٤).

لقد انتهت معركة بدر بالنتيجة التي أرادها الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۞ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾(٥).

---

(١) سورة آل عمران، الآية [١٦٠].

(٢) عن دعاء النبي وتضرعه في بدر انظر: صحيح البخاري: المغازي، باب: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾ حديث رقم: ٣٩٥٩. صحيح مسلم كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة. سيرة ابن هشام: ٢٦٧.

(٣) سورة الأنفال، الآية [٩].

(٤)من الأحاديث صحيح البخاري: كتاب المغازي باب شهود الملائكة بدراً. وصحيح مسلم كتاب الجهاد، باب الإمداد بالملائكة.

(٥) سورة الأنفال، الآيتان [٧-٨].

أسرى بدر:

بعد المعركة أمر الرسول ﷺ بدفن الشهداء من المسلمين، ورمي قتلى المشركين في قليب بدر، ثم توجه إلى المدينة ومعه الأسرى السبعون، وقد بعث من يسبقه ببشرى النصر إلى أهل المدينة، وفي الطريق أمر بقتل اثنين من الأسرى هما، النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، لكونهم من المستهزئين والمكثرين من إيذاء الرسول ﷺ وأصحابه، وحين قدم المدينة استشار أصحابه في أمر الأسرى فكان رأي أبي بكر رضي الله عنه أن يأخذ الفداء منهم معللا لذلك بقوله: (هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ أرَى أنْ تَأْخُذَ منهم فِدْيَةً فَتَكُونُ لنا قُوَّةً على الْكُفَّارِ فَعَسَى الله أنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ). بينما كان رأي عمر بن الخطاب رضي الله عنه مخالفاً لذلك، فكان يرى قتلهم؛ لأنهم كما قال: (فإِن هَؤُلَاءِ أئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا) ولكن الرسول أخذ برأي أبي بكر ففرق الأسرى بين أصحابه ليوثقوهم حتى يتم فداؤهم[1]. وقال: (اسْتَوْصُوا بِالأَسَارَى خَيْرًا)[2] وأطلق عدد منهم بالفداء والبعض الأخر منّا بدون فداء. ونزل القرآن مؤيدا رأي عمر رضي الله عنه ومعاتباً على أخذ الفداء في قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3].

مواقف القوى بعد بدر:

أحدثت معركة بدر هزة عنيفة في مكة والمدينة وما حولهما، بل وصلت أصداؤها كافة أرجاء الجزيرة العربية، ويمكن أن نتبين مواقف أهم القوى من نتيجة المعركة:

أما المشركون في مكة فقد أصيبوا ـ كما سبق ـ بصدمة مذهلة أعيت عقولهم أن تصدق الخبر أول ما جاء، فحين جاء أول المخبرين وعدَّد القتلى، قال صفوان بن أمية

(١) عن استشارة الرسول ﷺ في أمر الأسرى، انظر: صحيح مسلم: كتاب الجهاد/ باب الإمداد بالملائكة. تفسير ابن كثير:٢/ ٢٩٠.

(٢) المعجم الكبير: ٢٢/ ٣٩٣. ابن هشام: ٢/ ٢٨٨.

(٣) سورة الأنفال، الآيتان [٦٧-٦٨].

وهو جالس عند الكعبة: والله إن يعقل هذا ؟ فاسألوه عني ؛ (أي والله لا يَعْقِلُ هذا المخبر ما يقول، فاسألوه عني فلفقده عقله سيذكرني في القتلى) فقالوا: وما فعل صفوان بن أمية ؟ قال: هو ذاك جالسا في الحجر، وقد رأيت والله أباه وأخاه حين قتلا.[1] أما أبو لهب فقد مات من هول الصدمة بعد سبعة أيام.[2] ولم يبق في مكة بيت إلا وقد تغشاه الحزن، ومع هذا منعت قريش البكاء والنياحة، حتى لا يشمت بهم المسلمون، واجمعوا على الانتقام، ولشدة الهول والرغبة في الانتقام لم ينتظر بعض الأفراد الانتقام العام، فقاموا بأعمال انتقامية سريعة، فقام أبو سفيان ومعه مائتي رجل بهجوم على أطراف المدينة فقتلوا رجلين وأحرقوا مجموعة من النخيل. وتوجه عمير ابن وهب في مغامرة جريئة ـ بعد اتفاقه مع صفوان بن أمية على أن يكفل له أولاده ـ إلى المدينة لاغتيال الرسول ﷺ[3].

أما المشركون من غير قريش فهم وإن لم يصابوا في بدر إلا أن هزيمة قريش ـ وهي زعيمة الشرك ـ قد أفزعتهم، ورأوا في ذلك تهديدا لهم، فتربصوا بالمسلمين شرا، وحاولت بعض القبائل المشركة مهاجمة المسلمين.

ومن القوى التي أفزعتها نتيجة بدر اليهود، فقد أغاظهم انتصار المسلمين، وأظهر بنو قينقاع أحقادهم وجهروا بمعاداة المسلمين.

أما المنافقون فقد أخفوا كفرهم، أمام قوة المسلمين، وأعلن كثير منهم الإسلام نفاقا وهم في الداخل باقون على كفرهم.

أما المسلمون فإنهم لم يركنوا للنصر الكبير في بدر، ولم يغتروا به فيغفلوا عما يحيط بهم من أخطار، بل عمل الرسول ﷺ على الاستفادة من هذا النصر لتحقيق انتصارات أخرى، فجابه وأصحابه الموقف بالحيطة والحذر، وواجه القوى المتربصة دون تردد،

---

(١) ابن هشام: ٢/ ٢٨٩. عن ابن إسحاق دون إسناد. الثقات: ١/ ١٧٧.

(٢) ذكره ابن إسحاق بسند متصل عن ابن عباس. (ابن هشام: ٢/ ١٩٠،٢٨٩) الثقات: ١/ ١٧٧.

(٣) انتهت محاولة اغتيال عمير للرسول ﷺ بإسلام عمير، حينما أخبره الرسول ﷺ بالحديث السري الذي دار بينه وبين صفوان. انظر تمام القصة: ابن هشام:٢/ ٣٠٦. دلائل النبوة للبيهقي: ١/ ١٤٠.

فوقف من مجاهرة يهود بني قينقاع وعدائهم موقفا حازما انتهى بطردهم من المدينة كما سيأتي بيانه[1]. كما أمر أصحابه بقتل كعب بن الأشرف لوقوفه مع قريش في مصابهم في بدر وتحريضه لهم على المسلمين، واعتدائه على حرمات نساء المسلمين[2].

كما قام ﷺ بمهاجمة القبائل المشركة التي أخذت تتربص بالمسلمين، فبث العيون ورصد تحركات تلك القبائل، ثم هاجم من تحرك منهم لمهاجمة المسلمين، مثل مهاجمته لبني سُليم وغطفان، وحين علم بتجمع غطفان في "ذي أمر" هاجمهم ففروا منه[3].

وأما قريش فبالإضافة إلى تصديه لهجوم أبي سفيان وملاحقته ـ فيما عرف بغزوة السويق ـ فقد حرص الرسول ﷺ على مواصلة محاصرتهم اقتصاديا باستمرار اعتراض قوافلهم التجارية، حتى لجأت قريش إلى سلوك طريق لم تكن تسلكه من قبل عبر نجد على الرغم من طوله وصعوبته، ومع هذا فقد تمكن الرسول ﷺ من اكتشاف أول قافلة لقريش عبر هذا الطريق، وبعث زيد بن حارثة في سرية نجحت في الاستيلاء على القافلة وما تحويه من أموال ومتاع بعد فرار حراسها[4].

جدول يوضح أبرز مظاهر النشاط العسكري للمسلمين بين غزوتي بدر وأحد[5]

النشاط	الشهر/السنة	هدفه
غزوة السويق	١٢/ ٢هـ	للتصدي لهجوم أبي سفيان في رجال من قريش
غزوة الكُدْر	١/ ٣هـ	إلى جمع من بني سُليم وغطفان
غزوة ذي أمَر	٣/ ٣هـ	لمهاجمة جمع من بني ثعلبة ومحارب أرادوا مهاجمة المدينة
غزوة بُحران	٥/ ٣هـ	مهاجمة جمع من بني سُليم
سرية زيد بن حارثة	٦/ ٣ هـ	لاعتراض عير لقريش سلكت ناحية ذات عرق

(١) انظر موضوع المواجهة مع اليهود.

(٢) عن مقتل كعب بن الأشرف انظر: صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب قتل كعب بن الأشرف. صحيح مسلم: باب قتل كعب بن الأشرف. ابن هشام:٢/ ٤٣٦.

(٣) ابن هشام:٢/ ٤٢١، ٤٢٥.

(٤) ابن هشام: ٤٢٩ .الطبقات الكبرى:٢/ ٣٦.

(٥) انظر خريطة توضح هذا النشاط في ملحق الخرائط.

غزوة أحد[1]:

سببها:

بعد هزيمة كفار قريش المروعة في غزوة بدر، أرادوا أن يأخذوا بثأرهم ويردوا اعتبارهم عند العرب، فتداعوا إلى الخروج لغزو المسلمين، وجعلوا القافلة التي أفلتت من المسلمين في نفقات الحرب، وخرجوا يشاركهم عدد من بعض القبائل الحليفة لهم، وساروا في ثلاثة آلاف نحو المدينة، وذلك في السنة الثالثة من الهجرة.

الرسول يستشير أصحابه:

جاء رسول الله ﷺ كتاب من عمه العباس يخبره بخروج قريش، فجمع أصحابه واستشارهم في الأمر، وكان رأيه- وعدد من المسلمين- أن يقيموا في المدينة ولا يخرجوا لملاقاة المشركين، فإن دخلوا المدينة قاتلهم الرجال في الطرقات والنساء من فوق المنازل. ولكنه - كعادته - أحب أن يستشير أصحابه، فرأى عدد كبير ممن فاته القتال في بدر أن يخرجوا لقتالهم، وألحوا على الرسول ﷺ حتى وافقهم، فدخل منزله ولبس "لأمته"[2]. فلما خرج عليهم ندموا على إكراههم لرسول الله، وقالوا: إن أحببت أن نمكث بالمدينة فافعل. فقال ﷺ: (ما ينبغي لنبي لابس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه)[3]. فخرج وخرج معه ألف رجل. وفي الطريق رجع عبدالله بن أُبيّ بن سلول، ورجع معه ثلث الجيش من المنافقين، وكان ممن يرى البقاء في المدينة، وقال: أطاعهم وعصاني، فعلام نقتل أنفسنا. وأبدى هو وأصحابه عذراً تافهاً فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع.

التخطيط للمعركة:

كان المشركون قد نزلوا قريباً من جبل أحد، فجاء رسول الله ﷺ وجعل الجبل في ظهره، واختار خمسين من أصحابه من الرماة وجعلهم على تل مقابل لجبل

---

(١) انظر خريطة غزوة أحد في ملحق الخرائط.

(٢)أي سلاحه. وتنطق أيضاً "لامة" بالتخفيف.

(٣)صحيح البخاري: كتاب الاعتصام بالسنة: باب قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى: ٢٨]. سيرة ابن هشام: ٣/ ٧.

أحد[1]، وجعل عبدالله بن جبير ﷺ أميراً عليهم، وأمرهم بالذب عن ظهور المسلمين، ونبل المشركين؛ لإعاقة تقدمهم خلال القتال، وأمرهم بلزوم مكانهم وقال: (كونوا مكانكم لا تبرحوا وإن رأيتم الطير تخطفنا)[2].

أحداث المعركة:

بدأت المعركة بمبارزات فردية تمكن فيها المبارزون المسلمون من قتل أضدادهم من المشركين، واستطاع المسلمون بقوة إيمانهم، والتخطيط المحكم، أن يتفوقوا على أعدائهم، فركز المسلمون على حامل لواء المشركين فقتلوه، وقتلوا كل من حمله واحدا تلو الآخر فلما قتل العاشر منهم سقط اللواء ولم يجد من يحمله[3]، فحلت الهزيمة بالمشركين على كثرتهم، واضطرهم المسلمون إلى الفرار من ميدان المعركة.

معصية الرماة تغير مسار المعركة:

لما رأى الرماة انتصار المسلمين وفرار المشركين اجتهدوا فقرروا النزول لمشاركة المسلمين في جمع الغنائم، وعلى الرُّغم من تحذير أميرهم عبد الله لهم من خطورة تصرفهم هذا، وتذكيره لهم بتوجيهات رسولهم ﷺ لهم، إلا أنهم أصروا على النزول، فنزلوا ولم يبق مع أميرهم إلا نفر يسير دون العشرة. وكان لمخالفة هؤلاء الرماة لأمر الرسول ﷺ أثر غير مسار المعركة. فلما رأى خالد بن الوليد - وكان على ميمنة قريش- الرماة نزلوا من التل، قام بحركة التفاف من وراء جبل الرماة، حتى صعد الجبل، وقاتل بفرقته من بقي من الرماة حتى قتلهم، وهجم على المسلمين من خلفهم. فلما رأى من بقي من المشركين ما قام به خالد عادوا لميدان القتال، فأصبح المسلمون في موقف حرج، فاضطربوا واختل نظامهم، وتفرقوا، واشتد عليهم المشركون، فاستشهد من المسلمين سبعون رجلاً، ونال الرسول ﷺ ما ناله من الأذى، فجُرح وكسرت رباعيته، وأشيع أنه قتل، فقلل هذا من

---

(١) سمي بعد ذلك جبل الرماة.

(٢) سنن النسائي الكبرى: ٥/ ١٨٩. وفي صحيح البخاري:كتاب المغازي: باب غزوة أحد. قال ﷺ (لَا تَبْرَحُوا إن رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عليهم فلا تَبْرَحُوا وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فلا تُعِينُونَا).

(٣) انظر أسماء العشرة الذين حملوا اللواء واحدا بعد الآخر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ٤١.

معنويات بعض المسلمين. إلا أن المسلمين ظلوا -على الرغم مما حل بهم- يقاتلون حتى تبين لهم أن رسول الله ﷺ حي لم يقتل، فالتفوا حوله، واستطاع ﷺ بشجاعة وثبات أن ينحاز بالمسلمين جهة الجبل ليخفف من وطأة المشركين عليهم. أمَّا المشركون فقد اكتفوا بما حققوه من نصر وتركوا الميدان، بعد شتائم وجهها قائدهم أبو سفيان للمسلمين، وتوعدهم بلقاء آخر في العام القادم. فقال الرسول ﷺ لأصحابه: (**قولوا نعم موعدنا العام القادم**).

بقي رسول الله ﷺ في الميدان، وأمر بعض أصحابه ليستطلع له هل توجهت قريش إلى مكة أم أنهم يريدون مهاجمة المدينة، وقال: (**والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثم لأناجزنَّهم**). فلما تأكد من أنهم توجهوا إلى مكة أخذ يتفقد الشهداء، ثم صلى عليهم، ودفنهم، وعاد إلى المدينة.

وقبل وصول قريش إلى مكة، كأنهم ندموا على عودتهم دون أن يستأصلوا المسلمين ويقضوا على شوكتهم، فقرروا العودة لاستئصال البقية من المسلمين. فلما علم بذلك ﷺ أمر أصحابه- الذين خرجوا معه في أحد دون غيرهم- للخروج لملاقاة المشركين، فاستجابوا للخروج على ما أصابهم، فأنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾(١).

غزوة أحد.. دروس وعبر:

على ما أصاب المسلمين في غزوة أحد من بلاء إلا أن فيها من الدروس والعبر ما جعلها من أعظم الغزوات نفعاً للمسلمين في حينها ووفي كل حين. وقد أنزل الله إحدى وستين آية في سورة آل عمران وحدها، تناولت العِبَر، وبينت الحِكَم فيما أصاب المسلمين في هذه الغزوة، ومنها:

[١] **تمحيص الصف**: فميزت تلك الغزوة المؤمنين الصادقين من أهل النفاق. فأما المؤمنون فقد ثبتوا في موطن الشدة وبقوا على صدقهم حتى آخر رمق فيهم. يقول

---

(١) سورة آل عمران، الآية [١٧٢]. وعن تفصيلات أحداث غزوة أحد انظر: سيرة بن هشام: ٣/٣ وما بعدها. الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ٣٦ وما بعدها.

أحدهم موصياً من وقف عليه وهو يلفظ أنفاسه: قل لقومي من الأنصار لا عذر لكم إن يخلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف[1]. وكان من حول الرسول ﷺ يفدونه بأنفسهم؛ حتى استشهد دفاعاً عنه عشرة من أصحابه رضي الله عنهم. وأما المنافقون فقد فرحوا بما أصاب المؤمنين وأظهروا ما تخفي نفوسهم من حقد؛ فعرفوا وظهر أمرهم.

[٢] أهمية طاعة الله وطاعة رسوله: تلقّى المؤمنون درساً عملياً في أهمية طاعة الله ورسوله ﷺ وعدم مخالفة أمرهما، وذلك حين خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ، فجاء الجواب لمن تساءل عن سبب ما أصاب المسلمين في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[2] ويدخل في ذلك طاعة القيادة المسلمة في كل زمن.

[٣] الارتباط بالفكرة دون الأشخاص: تنبه المؤمنون إلى أنه يجب أن يكون قتالهم وجهادهم لنصرة دين الله. فلا يصرفهم عن ذلك أو يقلل من حماسهم فقد شخص الرسول ﷺ أو من يتولى قيادهم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[3].

[٤] عظم مكانة الشهداء: إن الموت في سبيل الله شرف عظيم يتفضل الله به على الشهداء؛ فليسوا كغيرهم من الأموات: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[4].

---

(١) ورد هذا عن سعد بن الربيع رضي الله عنه: سيرة ابن هشام: ٣/ ٤٦، الذهبي سير أعلام النبلاء ١/ ٣١٨، ٣١٩. وورد مثله عن أنس بن النضر رضي الله عنه.

(٢) سورة آل عمران، الآية [١٦٥].

(٣) سورة آل عمران، الآية [١٤٤].

(٤) سورة آل عمران، الآيتان [١٦٩-١٧٠].

[٥] المداولة بين المسلمين وغيرهم: على المسلمين أن يتوقعوا الهزيمة -كما تحل بغيرهم- إذا قصروا في فعل الأسباب: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(١).

[٦] لا مجال - في الإسلام - للتشاؤم من المكان أو الزمان الذين يصاب فيهما الإنسان بنكبة أو مصيبة، أو أن ننسب لهما تلك النكبة أو المصيبة، كما يقال أيلول الأسود، أو نكسة حزيران. لذا لم يدع الرسول ﷺ مجالاً للنفوس أن تكره جبل أحد لارتباطه بمصاب المسلمين في تلك الغزوة، بل كان يقول: **(أحد جبل يحبنا ونحبه)**(٢).

ويطول المجال في ذكر الدروس المستفادة من غزوة أحد. وقد ذكرها ابن القيم رحمه الله بشيء من التفصيل في كتابه زاد المعاد(٣).

تضحيات جسيمة في المواجهة مع المشركين:

قدم المسلمون في مواجهتهم للمشركين بعد معركة أحد تضحيات كبيرة كان من أهمها ما حدث في سريتي الرجيع وبئر معونة.

سرية الرجيع: صفر/٣هـ

بعث رسول الله ﷺ نفرا من أصحابه، وأمر عليها عاصم بن ثابت(٤)، فانطلقوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق بين عسفان ومكة ذكروا لحي من هذيل يقال لهم

(١) سورة آل عمران، الآية [١٤٠].

(٢) صحيح البخاري: المغازي/ ٨١.

(٣) ٣:٢١٨ وما بعدها.

(٤) اختلف البخاري وابن إسحاق في عدد أفراد السرية وسببها، فيذكر البخاري أن عددهم عشرة، وأن مهمة السرية استطلاعية، بينما يذكر ابن إسحاق أن عددهم ستة نفر وذكرهم بأسمائهم، وذكر أن السبب في بعث هؤلاء النفر كان قدوم رهط من قبائل عَضَل والقَارَة فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام، فبعث رسول الله ﷺ معهم هؤلاء النفر من أصحابه. (صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الرجيع. سيرة ابن هشام: ٣/ ١٦٠)

بنولحيان، فاتبعوهم بقريب من مائة رجل رام، فاقتصوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما آنسهم عاصم بن ثابت وأصحابه لجؤوا إلى فدفد[1] وجاء القوم فأحاطوا بهم فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلا، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذمة قوم كافرين. اللهم أخبر عنا رسولك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصما في سبعة نفر. فلما قُتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن سهيل، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أحد لئن قدرتْ على رأس عاصم لتشربن في قحفه الخمر، فمنعته الدَّبْر فلما حالت بينهم وبينه قالوا: دعوه حتى يمسي فيذهب عنه، فنأخذه، فبعث الله الوادي فاحتمل عاصماً فذهب به.وقد كان عاصم قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركاً أبداً تنجساً.

وأما خبيب، وزيد بن الدثنة، وعبدالله بن طارق، فلانوا للقوم، فأسروهم وأوثقوهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا ببعض الطريق انتزع عبد الله بن طارق يده من الوثاق ثم أخذ سيفه، واستأخر عنه القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه رضي الله عنه.

وساروا بخبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة، فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة.

وإذا كان الصحابة الأربعة قد قدموا صورة مشرقة في الدفاع عن الدين والنفس، فإن خبيبا وزيدا قد قدموا صورة أخرى لا تقل إشراقا عن تلك الصورة التي قدمها أصحابهم، فأما زيد فحين خرج به المشركون لقتله خارج الحرم :سأله أبو سفيان بن حرب، قائلا: أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وإني جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً[2]. فقتل رضي الله عنه وقد قدم صورة مشرقة أظهر فيها حب المسلم الصادق حتى آخر رمق في حياته لدينه ونبيه.

(١) هي الأرض المرتفعة.: غريب الحديث لابن الجوزي ٢/ ٢٣٠.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد:٢/ ٥٦.

أما خبيب فإنه حين قرب موعد قتله طلب من إحدى نساء المنزل المأسور فيه موسى ليستحد بها[1] فلما أعطته الموسى غفلت عن غلام صغير لها فدرج حتى وصل إلى خبيب فأخذه ووضعه على فخذه، وتصف تلك المرأة شعورها قائلة: فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك مني خبيب وفي يده الموسى فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله. وإن كان هذا الموقف هزها فقد هزها موقف قبله دفعها أن تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ من ثمره، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقاً رزقه الله.

فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه قال: دعوني أصلي ركعتين، فلما صلى انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن مابي جزع من الموت لزدت. فكان ﷺ أول من سن الركعتين عند القتل. وانشد قبيل مقتله أبياتا منها:

وَلَستُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ[2]

سرية بئر معونة:

في الشهر الذي كانت فيه مصيبة "الرجيع" أصيب الرسول ﷺ والمسلمون بفاجعة كبيرة في "بئر معونة"[3] كان ضحيتها قرابة سبعين شاباً من خيرة الصحابة ﷺ من القراء، كانوا يصلون بالليل ويحتطبون بالنهار، بعثهم الرسول ﷺ ناحية نجد إلى بعض قبائل بني سُليم "رِعل، وذكوان، وعصية" لدعوتهم إلى الإسلام وتعليمهم[4]. فلما بلغ

---

(١) أي يحلق شعر عانته، ليلقى ربه نظيفا متطهرا.

(٢) عن تفاصيل غزوة الرجيع انظر: صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الرجيع. الطبقات الكبرى لابن سعد:٢/ ٥٥. سيرة ابن هشام: ٣/ ١٦٠.

(٣) بئر معونة: ماء لبني عامر بن صعصعة، بين ديار بني عامر وحرة بني سليم وهي إلى الحرة أقرب. (معجم ما استعجم:٤/ ١٢٤٥.)

(٤) ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ بعثهم بناء على اقتراح من أبي براء عامر بن مالك حين قدم عليه. وذكر البخاري وغيره أن ذلك بسبب طلب تلك القبائل التي تظاهرت بالإسلام.

هؤلاء الصحابة بئر معونة اعترضهم عامر بن الطفيل في تلك القبائل فغدروا بهم وقتلوهمهم ولم يسلم منهم إلا كعب بن زيد سقط صريعا ولا يزال به رمق فتركه القوم ظنا منهم أنه مات فعاش، وعمرو بن أمية أعتقه عامر بن الطفيل لرقبة على أمه.

وكان وقع خبر حادثتي الرجيع وبئر معونة على الرسول ﷺ وأصحابه أليما ومفجعا، لهذا قنت الرسول ﷺ شهرا في صلاته يدعو على تلك القبائل[1].

عزوة الأحزاب (الخندق)[2]:

كانت في السنة الخامسة من الهجرة[3]. وسميت بهذا الاسم لأنه اشترك فيها جميع أعداء المسلمين على مختلف أنواعهم وطوائفهم، من المشركين، واليهود، والمنافقين، وتحزبوا لحرب المسلمين.

سببها:

سَعْي زعماء يهود بني النضير - بعد أن أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة - إلى قريش والقبائل المشركة، وتحريضهم على حرب المسلمين. ولأن قريشاً تسعى للقضاء على المسلمين وتحرير طريق تجارتها من خطرهم؛ فقد وافقوا على المشاركة، ودعوا إليها حلفاءهم من قبائل نجد وتهامة. وقد أغرى اليهود قبيلة غطفان ـ كبرى قبائل نجد ـ بدفع نصف ثمار خيبر لهم. وبلغ عدد المشاركين من الأحزاب عشرة آلاف مقاتل.

---

(١) عن حادثة بئر معونة انظر: صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة الرجيع وبئر معونة. سيرة ابن هشام:٣/ ١٨٣.

(٢) انظر خريطة النشاط العسكري للمسلمين بين أحد والخندق وخريطة غزوة الخندق في ملحق الخرائط.

(٣) وقيل إنها في السنة الرابعة، ولكن الأرجح أنها في الخامسة. (زاد المعاد لابن القيم: ٣/ ٢٦٩،٢٧٠)

المسلمون وفكرة حفر الخندق:

علم المسلمون بنبأ مسير الأحزاب إليهم، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه، فأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بفكرة حفر خندق في الجهة الشمالية للمدينة، وهي المنطقة الوحيدة المكشوفة، في حين تتمتع بقية الجهات بتحصينات طبيعية، حيث تتشابك فيها الأبنية مع البساتين في جهة، وفي جهات أخرى تمتد الحرات التي من الصعب اختراقها[1]. وافق الرسول ﷺ والمسلمون على فكرة سلمان، وشرعوا في التنفيذ على الفور، فجعل الرسول ﷺ على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً[2]. وقد تخطى المسلمون كل العوائق التي مرت بهم في حفر الخندق، من قصر المدة، وبرودة الطقس، وقلة المؤونة، ووعورة الأرض، وضعف آلات الحفر. وقد كان لمشاركة الرسول ﷺ أصحابه في أعمال الحفر أثراً كبيراً في إثارة حماسهم للعمل.

كانت فكرة حفر الخندق جديدة لا يعرفها العرب، لذا فوجئت جموع الأحزاب حينما قدموا ووقفوا أمام الخندق مدهوشين، فاضطروا إلى أن يعسكروا أمامه دون أن يخترقوه. وقد رتب الرسول ﷺ المسلمين وعددهم ثلاثة آلاف، فجعل أناس يقومون بدوريات حراسة في المدينة؛ خوفاً من غدر اليهود والمنافقين داخل المدينة، وبقية الجيش لحراسة الخندق ومنع اقتحام الأحزاب له.

وقد حاول المشركون اقتحام الخندق عدة مرات، إلا أن المسلمين تمكنوا من صدهم، وحدثت مناوشات رشق بالنبل من وراء الخندق، وظل بإمكان المسلمين السيطرة على الوضع، حتى اشتدّت بهم الأزمة، عندما تمكن الأحزاب من إقناع يهود بني قريظة داخل المدينة من نقض عهدهم مع المسلمين وإعلان الحرب بجانب الأحزاب، فأصبح المسلمون في وضع حرج دفع الرسول ﷺ أن يستشير الأنصار في أن يعطي غطفان ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا فمنعه من ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وقالا: كنا نحن وهم على الشرك لا يطمعون منا في شيء من ذلك فكيف نفعله بعد أن أكرمنا الله عز وجل بالإسلام وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ما لنا

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٢/ ٦٦، ٦٧. العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٤٢٠.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٤/ ٨٣. المعجم الكبير للطبراني: ٦/ ٢١٢.

بهذا من حاجة ولا نعطيهم إلا السيف. فقال ﷺ: (فنعم إذا)[1]. وزاد من حرج الوضع مظاهرة المنافقين للأحزاب، بإشاعة الخوف بين المؤمنين، والسخرية منهم. وقد صوّر الله حالة المؤمنين الحرجة بقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾[2].

وحين فعل المسلمون ما في وسعهم، واستكملوا الأسباب المطلوبة منهم، وبعد أن أصبح الأمر فوق طاقتهم، هنا جاء نصر الله لهم. فمع أن المسلمين - آنذاك - لم يواجهوا قوة مثل هذه القوة، إلا أن الخسائر كانت فيها أقل، فقد أفسد الله مابين الأحزاب واليهود، حيث تمكن نعيم بن مسعود - الذي أسلم ولم يعلم المشركون ولا اليهود بإسلامه، وكان على علاقة حسنة بالطرفين - تمكن من زرع الشك بينهم، حتى اختلفوا وارتاب كل منهما بالآخر[3]. وأرسل الله جنوده على الأحزاب، حيث يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾[4]، فاضطر الأحزاب إلى الرحيل عن المدينة خائبين: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[5]. وبنهاية هذه الغزوة تحول المسلمون من سياسة الدفاع عن المدينة إلى غزو المشركين والهجوم عليهم في بلادهم. وقد تحدث الرسول ﷺ عن هذه النتيجة مسبقاً فور رحيل الأحزاب، حيث قال: (**الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**)[6]. والمقصود بهؤلاء مشركو قريش. وهذا لا يعني أن الرسول ﷺ لم يغز عموم

(١) عن خبر عرض الرسول ﷺ لغطفان انظر: سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٤٧. ابن سعد: الطبقات الكبرى: ٤/ ٧٣. مصنف عبدالرزاق: ٥/ ٣٦٧. فتح الباري: ٧/ ٤٠٠. على اختلاف بينهم يسير في الألفاظ.

(٢) سورة الأحزاب، الآية [١٠].

(٣) عن قصة نعيم بن مسعود انظر: سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٤٧. ابن كثير: السيرة النبوية: ٣/ ٢١٤.

(٤) سورة الأحزاب، الآية [٩].

(٥) سورة الأحزاب، الآية [٢٥].

(٦) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة الخندق: حديث ٤١١٠.

المشركين في تلك المرحلة، بل كان يتحين الفرص لتوجيه بعض السرايا لتأديب بعض القبائل المعادية له هنا وهناك.

النشاط الحربي للمسلمين بين غزوة الخندق والحديبية

نوع النشاط	الشهر/ السنة	القائد	الجهة
غزوة	١١/ ٥هـ	الرسول ﷺ	يهود بني قريظة
سرية	١/ ٥هـ	محمد بن مسلمة رضي الله عنه	القُرَطاء من بني بكر
غزوة	٣/ ٥هـ	الرسول ﷺ	بنو لحيان بعسفان
غزوة الغابة	٣/ ٦ هـ	الرسول ﷺ	الرد على غارة عيينة بن حصن
سرية	٣/ ٦ هـ	عكاشة بن محصن رضي الله عنه	نو أسد
سرية	٤/ ٦هـ	محمد بن مسلمة رضي الله عنه	بنو ثعلبة بذي القصة
سرية	٤/ ٦هـ	أبو عبيدة رضي الله عنه	بنو ثعلبة بذي القصة
سرية	٤/ ٦هـ	زيد بن حارثة رضي الله عنه	بنو سليم بالجموم
سرية	٥/ ٦هـ	زيد بن حارثة رضي الله عنه	اعتراض قافلة لقريش
سرية	٦/ ٦هـ	زيد بن حارثة رضي الله عنه	بنو ثعلبة بالطرف
سرية	٦/ ٦هـ	زيد بن حارثة رضي الله عنه	ناس من جذام بحسمى
سرية	٧/ ٦هـ	زيد بن حارثة رضي الله عنه	وادى القرى
سرية الخبط	٦هـ	أبو عبيدة رضي الله عنه	للتصدي لعير قريش
سرية	٨/ ٦هـ	عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه	دومة الجندل
سرية	٨/ ٦هـ	علي بن أبي طالب رضي الله عنه	بنو سعد بن بكر بفدك لعزمهم إمداد اليهود بخيبر
سرية	٩/ ٦ هـ	زيد بن حارثة رضي الله عنه	بنو فزارة بوادي القرى لاعتراضهم قافلة للمسلمين
سرية	١٠/ ٦هـ	كُرز بن جابر رضي الله عنه	إلى العرنيين

المرحلة الثانية: مرحلة الصلح:

صلح الحُدَيبية:

مكث المسلمون في المدينة بعد الهجرة ست سنوات منقطعين عن زيارة المسجد الحرام والطواف به، مع أنهم بإيمانهم أحق بزيارته وعمارته من المشركين، ولكن كانت ظروف المرحلة السابقة تمنعهم من زيارته. أمّا وقد أظهر الله المسلمين، وكثّر عددهم، وأضعف جانب المشركين بعد الخندق، فإنه من المناسب أن يسعى المسلمون لزيارة المسجد الحرام كغيرهم من العرب الذين يفدون إليه، وجاء تحقيق ذلك عندما رأى الرسول ﷺ في المنام من أنه يطوف وأصحابه بالبيت الحرام معتمرين: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1]. وكان ﷺ يتوقع منع قريش لهم من دخول مكة؛ لذا حاول جمع أكبر عدد من المسلمين للسير معه، فخرج ومعه ألف وأربعمائة من المسلمين[2]. وقد حاول ﷺ جهده أن يظهر لقريش نواياه السلمية، وأنه لم يخرج لحرب؛ فساق الهدي أمامه، وأحرم بالعمرة. ولما علم في الطريق أن قريشاً تستعد لمنعه من الدخول، وعزمهم على حربه؛ غير طريق سيره تلافياً للصدام معهم، وسار حتى نزل "الحديبية"[3].

بيعة الرضوان:

من الحديبية بعث ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه للحوار مع قريش، وإقناعهم بضرورة فتح المجال للمسلمين بدخول المسجد الحرام وأداء العمرة. ولكن قريشاً

---

(١) سورة الفتح، الآية [٢٧].

(٢) ورد ثلاث روايات في عدد أصحاب الحديبية، الأولى أنهم ألف وأربعمائة، والثانية ألف وخمسمائة والثالثة ألف وثلاثمائة، ولعل المشهور أنهم ألف وأربعمائة. صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب غزوة الحديبية. صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام. سيرة ابن هشام:٣/ ٢٥١.

(٣) الحُدَيبية: بتشديد الياء وتخفيفها، سميت بشجرة حدباء في ذلك الموضع، وهي التي بايع الرسول ﷺ أصحابه عندها، تبعد عن مكة (معجم البلدان: ٢/ ٢٢٩.) وتبعد عن مكة ٢٢كم غربا على طريق جدة القديم.

حبسوا عثمان رضي الله عنه، وأشاعوا قتله؛ لمعرفة رد فعل المسلمين. هنا طلب الرسول ﷺ من أصحابه مبايعته على الموت، فبايعوه على ذلك. وسميت هذه البيعة بيعة الراضون، وكانت تحت شجرة هناك، وقد أثنى الله على هذه البيعة وأهلها حيث قال: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾(١). فلما علمت قريش بذلك أطلقت سراح عثمان رضي الله عنه، ثم بعثت عدداً من الرسل للتفاوض مع محمد ﷺ. وقد أثبت كل واحد من هؤلاء الرسل لقريش أن محمداً وأصحابه لم يأتوا للحرب، وإنما قدموا لزيارة البيت الحرام، ولكن كان من العسير على قريش أن تسمح لهم بذلك، لأن فيه - كما يرون - خدش لكبريائهم أمام العرب. لذا بدؤوا يفكرون في المخرج، فحاولوا التوصل لصلح يحفظ لهم كبرياءهم، ويظهرون فيه ضعف المسلمين. وهذا ما يبدو من بنود الصلح التي وقعها الرسول ﷺ معهم، وهي:

* أن يرجع المسلمون هذا العام دون دخول مكة، ويأتون للعمرة في العام القادم.
* وقف الحرب بين الطرفين لمدة عشر سنوات.
* أن من قدم من مكة مسلماً للمدينة يُرد إلى مكة.
* من قدم من المسلمين إلى مكة مرتداً عن الإسلام لا ترده قريش إلى المسلمين.
* أن من أحب من القبائل الدخول في حلف محمد أو في حلف قريش فلهم ذلك، ويحترم كل طرف حلفاء الآخر.(٢)

وفي ظاهر تلك الشروط إجحاف بحق المسلمين، مما جعلهم يراجعون رسول الله ﷺ، ويظهرون عدم رضاهم عنها، فقد جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: (بلى). قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم. فقال: (يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدا)(٣).

(١) سورة الفتح، الآية [١٨].
(٢) للوقوف على شروط الصلح انظر: مسند الإمام أحمد: ٤/ ٣٢٥. سيرة ابن هشام:٣/ ٣٦٦.
(٣) صحيح البخاري: كتاب: كتابة الإمام الناس/ باب المصالحة.

واتضح للمسلمين فيما بعد أن تلك الشروط تحولت كلها لصالحهم، حتى إن قريشاً بنفسها طلبت إلغاء ما كان المسلمون يظنون أن فيه إجحافاً بحقهم.

نتائج صلح الحديبية:

لقد سمى الله هذا الصلح فتحاً، حين أنزل على رسوله ﷺ في طريق عودته إلى المدينة قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾(1). فسأله رجل: أفتح هو؟ فقال: **(نعم والذي نفسي بيده، إنه لفتح)**.(2) ومن أهم نتائج هذا الصلح ما يلي:

[١] في هذا الصلح اعترفت قريش لأول مرة بكيان المسلمين ودولتهم حين وقعت معهم الصلح. وقد أدى هذا إلى دخول بعض القبائل في التحالف مع المسلمين علانية، دون خوف من قريش أو مجاملة لها.كما فعلت خزاعة.

[٢] أتاح وقف الحرب للمسلمين التفرغ لتصفية الحساب مع أعداء آخرين للإسلام. فتم غزو اليهود في خيبر وفتحها سنة سبع، وغزو غطفان في نجد في غزوة ذات الرقاع، وتوجيه جيش إلى مؤتة شمال الجزيرة، وآخر في غزوة ذات السلاسل لتأديب بعض القبائل الموالية للروم.

[٣] أتاح هذا الصلح للمسلمين التفرغ لنشر الإسلام، فبعث الرسول ﷺ رسله إلى الملوك والرؤساء في الجزيرة وخارجها، يدعوهم للإسلام، كما أعطى هذا الصلح القبائل الأخرى الجرأة في الاتصال بالمسلمين والتعرف على الإسلام. ويدل على سرعة انتشار الإسلام خلال سنتين من الصلح أنه سار مع الرسول ﷺ لفتح مكة عشرة آلاف مسلم. كما كان من نتيجة الصلح دخول عدد من مشاهير قريش في الإسلام كخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(١) سورة الفتح، الآية [١]. وانظر تفسير الآية في تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير.
(٢) مسند الإمام أحمد: ٣/ ٤٢٠ ، والحاكم في مستدركه: ٢/ ٤٥٩.وصححه ووافقه الذهبي.

أهم الأحداث بين صلح الحديبية وفتح مكة[1]:

تأديب الأعراب والقبائل المتربصة:

منذ انتصار المسلمين في معركة بدر والأعراب في الجزيرة العربية - لاسيما - القريبين من مكة والمدينة وهم فزعون من قوة المسلمين ويرون فيها خطرا يهدد ما ألفوه من حياة السلب والنهب، كما أن هناك عددا من القبائل المشركة لم تزل تتربص بالمسلمين الشر إذ لم يتمكن الرسول ﷺ من توجيه ضربة قاصمة لهم، لانشغاله بحربه مع قريش، ولاعتماد تلك القبائل سياسة الانسحاب وعدم المواجهة مع جيوش المسلمين كلما غزتهم، لذا استغل الرسول ﷺ الصلح مع قريش لتوجيه جزء كبير من نشاطه الحربي لتأديب هؤلاء وهؤلاء، فوجه ما يزيد على خمسة وعشرين حملة عسكرية ضد الأعراب والقبائل المتربصة، وكان من أهمها غزوة ذات الرقاع[2].

وقد تمكن المسلمون بهذه الحملات العسكرية من تحقيق عدد من النتائج أهمها: إبقاء تفوق كفة المسلمين الحربية في المدينة، وقذف الرعب في قلوب أعدائهم، وقطع الطريق على قيام أي تحالف بين تلك القوى ضد المسلمين، ومنها الحصول على قدر كبير من الغنائم والأموال عززت من قوة المسلمين الاقتصادية.

مكاتبة الملوك والزعماء[3]:

هيّأ صلح الحديبية للنبي ﷺ فرصة كبيرة للانتقال بالدعوة إلى الميدان العالمي، تحقيقا للمهمة التي بعثه الله بها للعالم أجمع، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ

---

(١) انظر خريطة النشاط العسكري للمسلمين بين صلح الحديبية وفتح مكة في ملحق الخرائط.

(٢) عن هذه الحملات والسرايا انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ١١٧ - ١٣٣. والسيرة النبوية لابن كثير: سرايا وغزوات سنتي ست، وسبع من الهجرة.

(٣) انظر خريطة كتب الرسول ﷺ للملوك وحامليها في ملحق الخرائط.

أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(1) وقوله: وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(2) وقد حفلت السنة السابعة للهجرة بعدد من الرسائل التي وجهها الرسول ﷺ إلى الملوك والزعماء المشهورين في العالم(3). والمهم هنا أن نتعرف على مضمون تلك الرسائل، ونتبين مواقف الملوك والزعماء منها.

أما مضمونها: فقد اختلفت عبارات الرسائل قِصراً وطولاً، ولكن جميعها يتضمن البدء باسم الله،وتقديم ذكر الرسول ﷺ على المرسل إليه، وكانت التحية فيها جميعا (السلام على من اتبع الهدى) كما تضمنت جميعها الدعوة إلى الإسلام. واختلفت في بقية العبارات بحسب حال المرسل إليه، فالنصارى يُذكر في رسائلهم قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾(4) كما تضمنت تحميلهم - إن لم يسلوا - مسؤولية إثم رعاياهم.

أما الزعماء العرب الوثنيون في الجزيرة: فتضمنت الرسائل الموجهة لهم تخويفهم بأن أمر رسول الله ﷺ سيظهر، وأن جيوشه ستحل بمواضع ملكهم، كما تضمنت الوعد بإبقائهم على زعامتهم إن هم أسلموا.

أما مواقف الملوك والزعماء من تلك الرسائل فقد اختلفت على النحو التالي:

---

(1) سورة الأنبياء، الآية [١٠٧].

(2) سورة سبأ، الآية [٢٨].

(3) أشهر الذين كاتبهم الرسول ﷺ كسرى الفرس، وقيصر الروم، وملك مصر، وملك الحبشة، وحاكم البحرين، وملك عُمان، وزعيم اليمامة، وصاحب دمشق.

(4) سورة آل عمران، الآية [٦٤].

القسم الأول: من استجاب لدعوة الرسول ﷺ فأسلم:

ومن هؤلاء ملك الحبشة النجاشي واسمه أصحمة[١]، وهو الذي صلى عليه الرسول ﷺ صلاة الغائب حين جاءه الوحي بخبر وفاته[٢]. ومنهم ملك البحرين واسمه المنذر بن ساوى[٣]. ومنهم ملك عُمان جَيفر بن الجلندر[٤].

القسم الثاني: من لم يسلم ولكن كان رده جميلا وبعث بالهدايا:

ومن هؤلاء قيصر الروم هرقل، فكان في بيت المقدس حين ورده كتاب رسول الله ﷺ، فأمر أن يُبحث له عن أحد من أهل الحجاز ليسأله عن أمر النبي ﷺ، فوافق قدوم أبي سفيان إلى الشام في تجارة لقريش، فجيء به ومن معه إلى هرقل، فوجه له عدة أسئلة تبين له منها أن محمدا ﷺ نبيا حقا، فمما قال لأبي سفيان: (فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولكن لم أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه)[٥] ومنعه من الإسلام خوفه على حكمه لمعارضة البطارقة له لو أسلم.

ومنهم ملك مصر المقوقس، فورد في رده على كتاب الرسول ﷺ: (..وقد أكرمتُ رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك)[٦].

أما صاحب اليمامة (هَوذة بن علي) فقد كتب إلى رسول الله ﷺ: (ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك). وأجاز مبعوث رسول الله ببعض الهدايا. فلما جاء الخبر

---

(١) زاد المعاد/ ٣/ ٦٩٠. الرحيق المختوم:٣٦٥.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجنائز. باب موت النجاشي.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد:١/ ٢٦٣.

(٤) المعجم الكبير للطبراني: ١٢/ ٢٢١. زاد المعاد: ٣/ ٦٩٣ ـ٦٩٥.

(٥)صحيح البخاري:١/ ٦.

(٦) المعجم الكبير للطبراني: ٤/ ١٢. زاد المعاد: ٣/ ٦٩٢.

رسول ﷺ قال: (لو سألني سَيابة من الأرض [1] ما فعلت، باد وباد ما في يديه..) فلما انصرف رسول الله ﷺ من عام الفتح جاءه جبريل فأخبره أنه قد مات[2].

القسم الثالث: من أساء الرد وأخذته العزة بالإثم:

وتمثل هذا في كسرى ملك الفرس فإنه لما جاءه كتاب رسول الله ﷺ مزقه، فدعا عليهم الرسول ﷺ أن يمزقوا كل ممزق[3]. وقد استجاب الله دعوة نبيه عليه الصلاة والسلام. ولم يكتف كسرى بتمزيق الكتاب، بل كتب إلى واليه على اليمن (باذان) أن يبعث من يأتيه بمحمد، فبعث باذان وفدا إلى الحجاز، فلما قدم الوفد المدينة ذكروا للنبي ﷺ ما بعث به كسرى إلى باذان، وطلبوا منه أن ينصرف معهم، فطلب منهم الرسول ﷺ أن يقابلوه غدا، وفي الغد أخبرهم ﷺ - بوحي من الله - بقيام شيرويه بن كسرى على أبيه وأخذه الملك منه بعد قتله. فدهشوا لذلك، وطلب منهم الرسول ﷺ أن يذهبوا إلى باذان ويخبروه، فإن هو أسلم أعطاه ما تحت يده من الملك، فلما ذهبوا وأخبروا باذان بالأمر، لم يلبثوا قليلا حتى جاء كتاب شيرويه بخبر قتله لأبيه، وأخذه الملك، فأسلم باذان ومن معه من الفرس في اليمن[4].

وأما صاحب دمشق (الحارث بن أبي شمر الغساني) فقد غضب حينما قرأ الكتاب ورمى به وقال: من ينتزع مني ملكي أنا سائر إليه ولو كان في اليمن، وأمر بالاستعداد للحرب، وكتب يستأذن هرقل، فثناه هرقل عن عزمه فغيَّر موقفه، فأجاز الحارث مبعوث رسول الله ﷺ ببعض الهدايا ورده بالحسنى[5].

---

(١) السيابة: مفرد سَيَاب، وهو ثمر النخل حينما يكون بلحا. لسان العرب: سيب.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ٢٦٢.

(٣) صحيح البخاري: باب كتاب النبي إلى كسرى وقيصر. سنن البيهقي: ٩/ ١٧٧.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ٢٦٠.

(٥) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ٢٦١.

المرحلة الثالثة: غزو المسلمين للمشركين.

فتح مكة[1]:

سببه:

كانت قبيلة بني بكر قد دخلت في حلف قريش، وقبيلة خزاعة في حلف الرسول ﷺ - كما سبق في صلح الحديبية - وبعد اثنين وعشرين شهرا من الصلح[2] اعتدت بنو بكر على خزاعة، واستعانوا بقريش فأمدوهم بالرجال والسلاح وبيتوا خزاعة ليلا وهم غارُّون على ماء لهم يقال له "الوتير" وقتلوا منهم عشرين رجلا[3]. وبمقتضى شروط صلح الحديبية فإن أي اعتداء على الحليف يعد نقضاً للصلح، وبذا خرقت قريش معاهدة الصلح. وهذا ما دعا الرسول ﷺ للمسارعة لنجدة خزاعة حين قدم وفدهم بزعامة عمرو بن سالم الخزاعي الذي قال قصيدة استنجد فيها بالرسول ومما جاء فيها:

لا هُمَّ إني ناشدا محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالوتير هجدا ... فقتلونا ركعا وسجدا
فانصر رسول الله نصرا أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا[4]

فقال رسول الله ﷺ: **(نصرت يا عمرو بن سالم)**.

---

(١) انظر خريطة فتح مكة في ملحق الخرائط.

(٢) ذكر ابن سعد أن اعتداء بني بكر في شهر شعبان على رأس ٢٢ شهرا من الصلح، وذكر غيره أنه بعد الصلح بسبعة عشرة أو ثمانية عشر شهرا. ولعل ما ذكره ابن سعد أقرب للصواب فالمشهور أن الصلح كان في ذي القعدة من السنة السادسة، كما أن فتح مكة في رمضان من السنة الثامنة. وسير الأحداث يدل على أنه لم يكن بين اعتداء بكر وفتح مكة إلا وقت يسير لا يصل إلى أربعة أشهر.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ١٣٤.

(٤) سنن البهقي الكبرى:٩/ ٢٣٣. المصنف لابن أبي شيبة: ٧/ ٤٠١.

سير المسلمين إلى مكة وفتحها:

شعر مشركو قريش بالخطأ الكبير الذي وقعوا فيه باعتدائها على حلفاء الرسول ﷺ. ولتدارك الأمر أرسلوا على الفور أبا سفيان لتأكيد الهدنة مع المسلمين، ولكنه فشل في تحقيق ذلك، وعاد إلى مكة خائباً.

أمر الرسول ﷺ أصحابه بالتهيؤ للخروج معه، دون أن يحدد جهة خروجه، حتى إذا حان موعد السير أخبرهم بعزمه على غزو مكة، ويريد من ذلك مباغتة قريش حتى تستسلم دون قتال، وكاد سر الرسول ﷺ ينكشف لقريش لولا عناية الله بنبيه إذ أوحى إليه بما دبره حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، حين كتب إلى قريش يخبرهم بمسير الرسول ﷺ إليهم، ودفع بالكتاب إلى امرأة. فأرسل المصطفى ﷺ علي بن أبي طالب والزبير بن العوام والمقداد بن عمرو، فتمكنوا من أللحاق بالمرأة وأخذ الكتاب منها[1].

خرج المسلمون مع رسولهم ﷺ في العاشر من شهر رمضان المبارك، في السنة الثامنة، وانضم إليهم أعداد كبيرة من القبائل المحيطة بالمدينة التي أسلمت، حتى بلغ عددهم عشرة آلاف مجاهد. وقد حرص ﷺ على أن يفتح مكة وينهي مقاومة قريش دون إراقة دماء، يظهر ذلك جليا في حرصه على السرية والسرعة في تحركه، حتى

(١)ورد في صحيح البخاري: وغيره بيان السبب الذي دفع حاطب رضي الله عنه لاتخاذ هذا الموقف، فحين سأله ﷺ: (يا حَاطِبُ ما حَمَلَكَ على ما صَنَعْتَ؟) قال: يا رَسُولَ اللَّهِ ما لي أنْ لَا أكُونَ مُؤْمِنًا باللَّهِ ورَسُولِهِ ولَكِنِّي أرَدْتُ أنْ يَكُونَ لي عِنْدَ القَوْمِ يَدٌ يُدْفَعُ بها عن أهْلِي ومَالِي ولَيْسَ من أصْحَابِكَ أحَدٌ إلا له هُنَالِكَ من قَوْمِهِ مَن يَدْفَعُ الله بهِ عن أهْلِهِ ومَالِهِ قال صَدَقَ ولا تَقُولُوا له إلا خَيْرًا قال فَعَادَ عُمَرُ فقال يا رَسُولَ اللَّهِ قد خَانَ اللَّهَ ورَسُولَهُ والمُؤْمِنِينَ دَعْنِي فَلِأَضْرِبْ عُنُقَهُ قال: (أو ليس من أهْلِ بَدْرٍ وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عليهم فقال اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ فقَدْ أوْجَبْتُ لَكُمُ الجَنَّةَ)، فَاغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ فقال الله ورَسُولُهُ أعْلَمُ.

وقد أنزل الله معاتبا حاطب ومحذرا المؤمنين من فعله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ سورة الممتحنة، الآية [١].

يباغت قريش قبل أن تتمكن من الاستعداد،فقد بعث خيلا بين يدي جيشه تقبض العيون، كما كلف حليفته خزاعة أن لا يدعوا قادما يدخل مكة[1]. كما يظهر في حرصه على السير بأكبر عدد من المسلمين، وإظهار قوتهم لقريش ليدفعهم الرعب إلى الاستسلام، فحين قرب من مكة وقسم جيشه إلى ألوية نزل بمرّ الظهران[2] وأمر جيشه أن يوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار.

نجحت خطة الرسول ﷺ، فكانت قريش قد بعث أبا سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء في فرقة استطلاعية، فلما رأوا عدد النيران هالهم الأمر، وتمكن حرس الرسول من القبض عليهم، فأسلم حكيم وبديل فأطلق سراحهم، أما أبو سفيان فتردد فأمر الرسول ﷺ عمه العباس رضي الله عنه أن يحبسه عنده حتى يصبح، وتمكن العباس من إقناع أبي سفيان بالإسلام،فأعلن إسلامه للرسول ﷺ، فقال العباس: يا رسول الله: بأبي أنت وأمي إن أبا سفيان رجل يحب الشرف والذكر، فأعطه شيئا يتشرف به، فقال رسول الله ﷺ: **(من دخل دار أبي سفيان فهو آمن)**. فقال أبو سفيان وما تسع داري؟ فقال: **(من دخل الكعبة فهو آمن)** فقال وما تسع الكعبة؟ فقال: **(من دخل المسجد فهو آمن)** فقال وما يسع المسجد؟ فقال: **(من أغلق بابه فهو آمن)**. فقال هذه واسعة. وأمر الرسول ﷺ العباس أن يحبس أبا سفيان حتى تمر به الكتائب كل كتيبة بسلاحها.فلما مرت به الكتائب كتيبة كتيبة زاده الأمر هولا وخوفا على مصير قريش، حتى قال للعباس: أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما!. فقال العباس: إنها النبوة.

فلما اطمأن ﷺ أن الرسالة وصلت إلى أبي سفيان أطلقه ليذهب إلى قريش، فصاح فيهم: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به. قالوا فما الأمر؟ فقال من دخل داري فهو آمن. فقالوا ويحك وما دارك وما تغني عنا؟. قال ومن دخل المسجد فهو آمن. ومن أغلق عليه داره فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

---

(١) فتح الباري:٨/ ٧.

(٢) بينه وبين مكة ستة عشر ميلا. معجم ما استعجم: ٤/ ١٢١٢.

ودخلت ألوية الرسول ﷺ مكة من عدة نواح، ولم يجدوا مقاومة، إلا ما كان من لواء خالد بن الوليد رضي الله عنه فوجد مقاومة يسيرة. وفور دخول الرسول ﷺ مكة وأعلن الأمان جاء زعماء قريش خاضعين يبايعونه على الإسلام[1].

كان دخول الرسول ﷺ مكة دخول المتواضع الخاضع لربه، ولم يكن دخوله دخول الملوك الجبارين، أو الموتورين الحاقدين. فعلى الرغم من ما لقيه المسلمون من أذى من أهل مكة قبل الهجرة وبعدها، يعلن النبي الرحيم ﷺ مفاجأته للجميع- وقد تمكن من العقاب- فيقول مخاطباً جموع قريش الحائرة: (**ما تظنون أني فاعل بكم؟**) فقالوا: خيراً، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم. فقال: (**لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم**). [2] فعفا عن أهل مكة، غير نفر يسير أهدر دمهم لعداوتهم الشديدة، وتكرر نقضهم للعهود، وتطاولهم بالسخرية على الرسول ﷺ ودين الله. كما أمر بتحطيم جميع أصنام قريش، وتطهير المسجد الحرام منها، فكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما فجعل يطعن بعود في يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. [3] وأمر بها فأخرجت وأرسل بعض أصحابه لهدم أصنام القبائل الأخرى المجاورة لمكة. وبفتح مكة وإعلان الرسول ﷺ العفو العام؛ دخل أهل مكة في الإسلام، وانتهت مقاومة قريش[4].

---

(١) المعجم الكبير للطبراني: ٨/ ٩ ـ١١. فتح الباري:٨/ ٧،٨. بشيء من التصرف والاختصار. إلا قول العباس للرسول إن أبا سفيان رجل يحب الشرف... فمن تاريخ دمشق:٢٣/ ٤٤٨،٤٤٧ .

(٢)أبو عبيد:كتاب الأموال: ١/ ٢٠٢. سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٢. وفيها: اذهبوا فأنتم الطلقاء. السنن الكبرى للبيهقي: ٩/ ١١٨. وانظر تخريج طرق ورود هذه القصة عند مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٥٦٩، وقال بعد ذكر الروايات والحديث يتقوى بهذه الطرق.

(٣) صحيح البخاري: كتاب المظالم/ باب هل تكسر الدنان. وفيه نُصبا بدل صنما. وكتاب كتابة العلم/ باب من كبر في نواحي الكعبة. السنن الكبرى للبيهقي:٦ / ٣٨٢و ٥/ ١٥٨.

(٤) ولتفاصيل فتح مكة انظر: سيرة ابن هشام:٤/ ٣ وما بعدها. الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ١٣٤.

من نتائج فتح مكة:

كان فتح مكة آخر ضربة وجهت لكفار قريش. وباستسلام قريش - زعيمة الشرك - أزيحت عقبة كؤود في طريق الإسلام. فقد كانت القبائل الأخرى تتربص ما يؤول إليه الصراع بين المصطفى ﷺ ومشركي قريش، فلما انتهت مقاومة قريش ودخلت في الإسلام، بادرت القبائل الأخرى بالدخول فيه[1]. وقد أنزل الله في ذلك سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾. ويدل على كثرة الداخلين في دين الله بعد الفتح أنه حضر مع الرسول ﷺ في غزوة حنين- في أعقاب الفتح- اثنا عشر ألف مقاتل[2].

ثقيف تتزعم الشرك:

غزوة حنين (شوال/ سنة ثمان هـ):

ظلت قبائل هوازن وفي مقدمتها قبيلة ثقيف ترقب المواجهة بين المسلمين وقريش طيلة السنوات الماضية، وكانت ترى أن قريشا تكفيها عبء المواجهة والدفاع عن الشرك.فلما تم فتح مكة، وانتهت مقاومة قريش أدركت هوازن أن عليها حمل لواء مواجهة المسلمين والدفاع عن نفسها أولا، وعن الشرك ثانيا، لذا فقد تجمعت أعداد كبيرة من قبائل هوازن وفي مقدمتها ثقيف.وأحلافها[3]، وتأهبوا لمواجهة المسلمين، وكانت قيادتهم لمالك بن عوف النصري، وكان قد أمر باصطحاب النساء والأولاد والأموال، والأنعام، فاعترض عليه دريد بن الصمة وهو كبير مجرب، فقال له مالك: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم. قال دريد: وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحْت في أهلك ومالك.

لما وصلت أنباء هوازن إلى الرسول ﷺ بعث عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي رضي الله عنه ليدخل في هوازن ويعلم علمهم، فجاءه بخبر جموعهم واستعدادهم للحرب.

---

(١)صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب من شهد الفتح: حديث ٤٣٠٢ في الفتح الرباني: ٨/ ٢٢.

(٢) سيرة ابن هشام: تاريخ خليفة بن خياط: ٨٨. طبقات ابن سعد: ٢/ ١٥٤، ١٥٥. وانظر العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٢:٤٩٦.

(٣) لمعرفة بطون هوازن المشاركة في حنين لنظر: سيرة ابن هشام:٤/ ٦٥.

توجه الرسول ﷺ من مكة في اثني عشر ألف، فيهم ألفان من "الطلقاء" ممن أسلم حديثا من أهل مكة[1]. وقد اغتر بعض المسلمين بكثرة عددهم حتى قال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة.

وصل الجيش الإسلامي وادي حنين[2] وكان المشركون من هوازن قد كمنوا في مضيقه وشعابه ومنحنياته، فلما انحدر فيه المسلمون في غبش الصبح فاجأهم المشركون وحملوا عليهم حملة واحدة، وانهالت عليهم السهام من كل صوب، فانكشفت خيل المسلمين، وفرت مقدمتهم فتبعهم الناس منهزمين، وثبت الرسول ﷺ في الميدان ومعه نفر قليل من أهل بيته وأصحابه. وكانت هذه الجولة الأولى التي عاتب الله فيها المسلمين بقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[3].

أما الجولة الثانية فقد كانت للمسلمين، إذ بقي الرسول ﷺ ثابتا في الميدان يقاتل بشجاعة ومعه النفر القليل، ومعهم الملائكة تثبتهم، وأمر الرسول ﷺ عمه العباس أن ينادي في الناس، فنادى بأعلى صوته: يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت على أولادها يقولون يا لبيك يا لبيك. فحملوا على المشركين، فأشرف رسول الله ﷺ فنظر إلى قتالهم فقال: **(الآن حمي الوطيس.)** ثم أخذ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ثم قال: **(انهزموا ورب محمد)**[4] فقذف الله في قلوبهم الرعب وانهزموا لا يلوي أحد منهم على أحد، تاركين وراءهم نساءهم وأموالهم وأنعامهم، فغنمها المسلمون.

---

(١) لم يكن لدى كثير من هؤلاء الطلقاء رغبة في القتال مع المسلمين، وإنما خرجوا رغبة في الغنيمة، بل كان بعضا ممن لم يتمكن الإيمان في قلبه يتربص بالمسلمين، وكان وجودهم مع المسلمين من أسباب الهزيمة التي حلت بهم أول الأمر.

(٢) حنين واد قريب من الطائف بينه وبين مكة بضعة عشر ميلا. معجم ما استعجم:٢/ ٤٧١.

(٣) سورة التوبة، الآية [٢٥].

(٤) ورد قول الرسول ﷺ هذا في صحيح مسلم: باب غزوة حنين.

وهذه الجولة التي قال الله فيها: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

ولم يكتف الرسول ﷺ بهزيمة هوازن في حنين، بل بعث من يتعقب فلول المنهزمين حتى لا يتمكنوا من التجمع من جديد فألحق بهم المسلمون هزائم جديدة في معركتي أوطاس، ونخلة[2].

حصار الطائف:

لما انهزمت هوازن لجأت ثقيف ومعهم مالك بن عوف إلى الطائف وتحصنوا فيها، فتوجه الرسول ﷺ لحصارهم، وكانت الطائف حصينة بجبالها وأسوارها، كما كان أهلها يمتلكون وسائل الدفاع الفتاكة، كالمنجنيق. وهذا ما جعل المسلمين يجدون مشقة في حصار الطائف على الرغم من استبسالهم واستخدامهم المنجنيق وبعض الدبابات[3] وقد استشهد في الحصار اثنا عشر رجلا، وأمام هذا الوضع جاء بعض أصحاب رسول الله وقالوا: يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم. ولكنه ﷺ بدل أن يدعو عليهم دعا لهم بقوله: (اللهم اهد ثقيفا وات بهم)[4] ثم رجع إلى المدينة. وأيقنت ثقيف- لما رأت البلاد من حولها دخلت الإسلام- أن لا مفر لها من الدخول مع من دخل، فجاؤوا في العام التاسع من الهجرة إلى المدينة معلنين إسلامهم[5].

---

(١) سورة التوبة، الآية [٢٦].

(٢) انظر تفاصيل غزوة حنين: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ١٤٩.

(٣) الدبابة هنا عربة من خشب مغطاة يحتمي بها المقاتلون من سهام عدوهم، ليتمكنوا من الوصول إلى أسوار المدينة.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ١٥٩. وفي سنن الترمذي: مناقب ثقيف. وقال صحيح غريب. ولكن ليس فيه لفظ وات بهم.

(٥) عن غزوة حنين وحصار الطائف انظر: البخاري: المغازي، باب قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ / ٥٤ وباب غزوة الطائف/ ٥٦. سيرة ابن هشام: ٤/ ٦٥، ١٢٧. الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ١٤٩.

قسمة الغنائم

نتيجة لاصطحاب هوازن نساءهم وأموالهم وأنعامهم معهم، فقد كانت غنائم المسلمين منهم كبيرة جدا حين انهزموا، فكانت محصلة الغنائم: ستة آلاف من النساء والأطفال، وأربعة وعشرين ألاف بعير،وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة[1]. وكان ﷺ قد أمر بالغنائم فجمعت ورحلت إلى الجعرانة [2] فلما قفل من حصار الطائف، قسم الفضة وأخر قسمة الغنائم بضع عشرة ليلة، أملا في أن تقدم هوازن مسلمة فيرد عليهم ما أخذ منهم، فلما تأخروا، قسم جميع الغنائم.

وقد حضي المؤلفة قلوبهم[3] من الطلقاء والأعراب بالنصيب الأوفر من القسمة، فكان ﷺ يعطي الواحد منهم المائة من الإبل، بل زاد بعضهم عن المائة، فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل. فقال: ابني يزيد. قال: أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل. قال: ابني معاوية قال: أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل. وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى فأعطاه إياها. وهكذا كان يعطي هؤلاء المؤلفة عطاء من لا يخشى الفقر، حتى نفدت تلك الغنائم.

وقد يبدوا لأول نظرة لمن لم يمعن النظر غرابة في طريقة توزيع هذه الغنائم، ولكن كان للرسول ﷺ في ذلك هدف سام ومرمى بعيد الغور، كان همه أن يعمق إيمان المئات الذين أجبرتهم أحداث الفتح على الإسلام ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم، وبقاؤهم بهذه الحال فيه خطر على الصف المسلم، لا سيما وأنهم يحسون أنهم مقهورون ومغلوبون على أمرهم. وقد تحقق للرسول ﷺ ما أراد في الوصول إلى قلوب هؤلاء عن طريق الدنيا التي لم يزل حبها يمتلك قلوبهم، ولعل قول صفوان أحد هؤلاء يكفي لتأكيد ذلك حين قال: (والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ١٥٢. فتح الباري:٨/ ٤٨.

(٢) الجِعرانه: بتشديد الراء وتخفيفها، ماء بين مكة والطائف وهي إلى مكة أقرب. (معجم البلدان:٢/ ١٤٢)

(٣) المقصود بالمؤلفة قلوبهم: الذين أسلموا حديثا ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم، أو الذين لم يسلموا فيرغّبون بالعطاء للدخول في الإسلام، أو الزعماء الذين يرجى بعطائهم كسب من ورائهم من قومهم. وجل الذين تألفهم الرسول بغنائم حنين من القسم الأول.

أبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ)[1]. فإذا كان الأمر بلغ بصفوان هذا الحد وهو مشرك فلا شك أن الأمر مع غيره أكثر تأثيرا.

ومع هذا فإن حرمان الأنصار من هذه الغنائم[2] أوجد شيئا في نفوس بعضهم، خاصة أحداث السن منهم، فصدرت منهم بعض التساؤلات، مثل قوله: (إن هذا لهو العجب! إن سيوفنا تقطر من دماء قريش، وإن غنائمنا ترد عليهم؟)[3] ومثل: (إذا كانت الشدة فنحن ندعى، وتعطى الغنائم غيرنا؟)[4] وغير ذلك. فلما وصلت تلك المشاعر إلى الرسول ﷺ بادر بالإجابة عليها في أسلوب تربوي نبوي عظيم يرويه لنا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه حين قال: (لَمَّا أعطي رسول اللَّهِ ﷺ ما أعطي من تِلْكَ الْعَطَايَا في قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ ولم يَكُنْ في الْأَنْصَارِ منها شيء، وَجَدَ هذا الحي مِنَ الْأَنْصَارِ في أَنْفُسِهِمْ، حتى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ حتى قال قَائِلُهُمْ: لقي رسول اللَّهِ ﷺ قَوْمَهُ. فَدَخَلَ عليه سَعْدُ بن عُبَادَةَ فقال يا رَسُولَ اللَّهِ إن هذا الحي قد وَجَدُوا عَلَيْكَ في أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ في هذا الفيء الذي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ في قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَاماً في قَبَائِلِ الْعَرَبِ ولم يكن في هذا الحي مِنَ الْأَنْصَارِ شيء. قال: (فَأَيْنَ أنت من ذلك يا سَعْدُ؟) قال يا رَسُولَ اللَّهِ ما أنا الا امْرُؤٌ من قومي وما أنا. قال: فَاجْمَعْ لي قَوْمَكَ في هذه الْحَظِيرَةِ. قال فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ الناس في تِلْكَ

(١) صحيح مسلم: كتاب الفضائل/ باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا.

(٢) يرى بعض المؤرخين كالواقدي أن ما قسمه الرسول ﷺ على المؤلفة قلوبهم كان من الخمس، ووزع أربعة الأخماس على أفراد الجيش ومنهم الأنصار، ولكن أهل التحقيق كابن حجر وغيره يرون أن القسمة كانت لجميع الغنائم. وذلك خلاف الأصل في غنائم المعركة. وقد خرّج ابن حجر ذلك على مخرجين: أولهما: أن هذا خاص بغنائم معركة حنين تأليفا لأهل مكة لحداثة إسلامهم وجبرا لمصابهم، والثاني: أن جل الجيش الإسلامي فر من المعركة ولم يبق مع رسول الله سوى نفر قليل، لذا فلا حظ للجيش فيها. (فتح الباري: ٨/ ٤٨).

(٣) متفق عليه.

(٤) صحيح مسلم: كتاب الزكاة/ باب إعطاء المؤلفة قلوبهم.

الْحَظِيرَةِ. قال: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ فلما اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فقال قَدِ اجْتَمَعَ لك هذا الحي مِنَ الأَنْصَارِ قال فَأَتَاهُمْ رسول اللَّهِ ﷺ فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عليه بالذي هو له أَهْلٌ، ثُمَّ قال: **(يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ مقالة بلغتني عَنكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا في أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلالاً فَهَدَاكُمْ الله؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ الله؟ وعداء فَأَلَّفَ الله بين قُلُوبِكُمْ؟ قالوا بَلِ الله وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ. قال ألاَ تجيبوني يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؟)** قالوا وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ. قال: **(أَمَا والله لو شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً فأغنيناك. أَوَجَدْتُمْ في أَنْفُسِكُم يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ في لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بها قَوْماً لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إلى إِسْلاَمِكُمْ؟ أَفَلاَ تَرْضَوْنَ يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أن يَذْهَبَ الناس بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ في رِحَالِكُمْ؟ فوالذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده لَوْلاَ الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امرأ مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ الناس شِعْباً وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْباً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ. اللهم ارْحَمِ الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ)**. قال فَبَكَى الْقَوْمُ حتى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْماً وَحَظّاً. ثُمَّ انْصَرَفَ رسول اللَّهِ ﷺ وتفرقنا)[1].

وقبل أن يرحل الرسول ﷺ من الجعرانة قدم عليه وفد هوازن معلنين إسلامهم ويطلبون منه أن يرد عليهم ما أخذ منهم، فخيرهم ﷺ بين المال أو السبي، فاختاروا السبي. فقام رسول الله ﷺ في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: **(أَمَّا بَعْدُ فإن إِخْوَانَكُمْ هَؤُلَاءِ جاؤونا تَائِبِينَ وَإِنِّي رأيت أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ ذلك فَلْيَفْعَلْ وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ على حَظِّهِ حتى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ من أَوَّلِ ما يُفِيءُ الله عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ)** فقال الناس قد طيبنا ذلك يا رسول الله لهم فقال رسول الله ﷺ: **(إِنَّا لَا نَدْرِي من أَذِنَ مِنْكُمْ فيه مِمَّنْ لم يَأْذَنْ فَارْجِعُوا حتى يَرْفَعَ إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ**

(١) مسند الإمام أحمد:٣/ ٧٦.

أَمْرَكُمْ) فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه بأنهم قد طيبوا وأذنوا[1].

وهذا درس تربوي آخر من رسول الله ﷺ عظيم، وأسلوب في الإدارة حكيم. فقد سره إسلام هوازن، ومعلوم عنه ﷺ أنه ما سئل على الإسلام شيئا إلا أعطاه فهو يرغب في رد سيهم إليهم، وكان بإمكانه أن يأمر أصحابه بذلك، ولكنه ﷺ أراد - وقد وزعه عليهم - أن يكون ذلك عن طيب نفس منهم، ووعد من لم يرضى بالتعويض على ذلك. فصلى الله عليه وسلم، ورضي عن أتباعه.

تحرك بعد ذلك المسلمون مع رسولهم إلى مكة وأدو العمرة في شهر ذي القعدة، ثم توجه قافلا إلى المدينة، ووصلها في نهاية شهر ذي القعدة بعد أن غاب عنها قرابة شهرين ونصف حقق فيها نجاحات عظيمة متراكمة.

(١) صحيح البخاري: كتاب الوكالة/ باب إذا وهب شيئا لوكيله.

ثانياً: الدولة الإسلامية ومواجهة أهل الكتاب:

(أ) المواجهة مع اليهود:

كان اليهود أجدر الناس باتباع النبي محمد ﷺ حين بعث، لأنهم يعلمون قرب خروجه، ويخبرون الناس بذلك، ويعلمون أوصافه. لكنهم لما علموا أنه من غيرهم أبوا الدخول في دينه، وكتموا الحقيقة التي يعلمونها، حسداً من عند أنفسهم. ولم يكتفوا بكتمان الحقيقة بل إنهم قلبوها، فحين سألت قريش بعض زعمائهم عن أمرهم وأمر محمد ﷺ، قال اليهود: أنتم خير وأهدى من محمد، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾[1]، كما كانوا يمدون قريشاً ببعض الأسئلة لإحراج محمد ﷺ[2].

ولما قدم الرسول ﷺ المدينة أبدى تسامحاً مع اليهود، وأظهر لهم حسن التعامل، وفتح معهم الباب واسعاً لتحقيق علاقة متينة تقوم على تحقيق مصلحة الطرفين. فوقّع معهم معاهدة سلمية - كما سبق - ولكن اليهود - كما أوضحت الأحداث - قد وقعوا تلك المعاهدة رضوخاً للواقع الجديد، وفي نفوسهم تحين للفرص، وتطلع للتخلص من وجود المسلمين في المدينة. وقد عبّروا عن حقدهم على الإسلام والمسلمين بصور شتى من السخرية والاستهزاء، وإثارة الشبه والشكوك، ومحاولة إثارة النعرة القبلية من جديد بين العرب في المدينة، وتشجيع حركة النفاق، حيث كان بعضهم يدخل في الإسلام نفاقاً وكذباً، ثم يخرج منه؛ ليشككوا الناس في دين الله، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3].

---

(١) سورة النساء، الآية [٥١].

(٢) سنن الترمذي: ٤/ ٣٦٦. حديث: ٥١٤٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية [٧٢].

ومع هذا ظل الرسول ﷺ ملتزماً بمعاهدته معهم، حتى تطورت عداوتهم إلى المواجهة الصريحة، ونقضوا عهدهم. وسنستعرض كيف نقضت طوائف اليهود عهودها مع المسلمين، وموقف الرسول ﷺ من ذلك.

نقض بني قينقاع العهد:

كان لانتصار المسلمين في معركة بدر وقع مؤلم في نفوس اليهود، الذين يتربصون بالمسلمين السوء. وقد أظهر يهود بني قينقاع ما في نفوسهم من حقد بعد معركة بدر، لذا أسرع الرسول ﷺ بجمعهم في سوقهم، وقال: (**يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا. فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل؛ تجدون ذلك في كتابكم، وعهد الله إليكم**). قالوا: يا محمد، إنك ترى أنا قومك، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، وإنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس[1]. وعلى الرُّغم من تحديهم للرسول ﷺ في هذا الموقف؛ فقد أمهلهم حتى حدث منهم اعتداء على إحدى المؤمنات، حين ذهبت إلى سوقهم، فجلست عند صائغ منهم، فأرادوها على كشف وجهها فأبت، فتحايل الصائغ وعقد طرف ثوبها إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت عورتها؛ فتضاحك اليهود، فصاحت المرأة، فوثب أحد المسلمين فقتل اليهودي، فاجتمع عليه اليهود فقتلوه، فوقع الشر بين المسلمين واليهود[2].

جلاء بني قينقاع: (شوال/ السنة الثانية)

عدّ الرسول ﷺ ما حدث من يهود بني قينقاع نقضاً للعهد. فسار بأصحابه إلى حصونهم، فحاربهم خمس عشرة ليلة، حتى نزلوا على حكمه ليحكم فيهم بما شاء. وهنا تدخل حليفهم المنافق عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وألح على الرسول ﷺ أن يخلي سبيلهم. فقال: أربع مائة حاسر وثلاث مائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة إني امرؤ أخشى الدوائر. فقال ﷺ: (**هم لك**).

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٢٦. سنن البيهقي الكبرى: ٩/ ١٨٣.

(٢) المصدر السابق: ٢٤٢٧.

وأمر بإخراجهم من المدينة، فخرجوا ولحقوا بأذرعات في الشام[1]. وفي موقف عبدالله ابن أبيّ بن سلول نزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾[2].

نقض يهود بني النضير العهد وجلاؤهم.(ربيع الأول / ٤هـ):

بعد معركة بدر ظهر من بعض أفراد يهود بني النضير مثل ما ظهر من بني قينقاع من حقد على المسلمين، وخاصة من كعب بن الأشرف، حيث ذهب بعد معركة بدر إلى مكة لمواساة قريش في مصابهم، وكان شاعراً، فقال أشعاراً في رثاء قتلاهم، وحرّضهم على قتال المسلمين، كما كان يقول أشعاراً في نساء المسلمين يتغزل بهن. لهذا أمر الرسول ﷺ أصحابه بقتله، قائلاً: (من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله) وتنفيذاً لأمره ﷺ قام بعض الصحابة بقتله[3].

اعتبر الرسول ﷺ تصرفات كعب عملاً فردياً ولم يؤاخذ به قومه، بل إنه لما أثار مقتل كعب مخاوفهم وقّع معهم معاهدة، أكد فيها ما تم توقيعه في المعاهدة السابقة حين قدم المدينة[4].

ولكن بني النضير لم يدعهم الحقد والحسد لنبي الله حتى نقضوا عهودهم. ويظهر ذلك في اتصالاتهم السرية مع قريش؛ لتحريضهم على المسلمين، ودلالتهم على عورات المسلمين، وتقديم بعض المساعدة لهم[5].

---

(١) المصدر السابق: ٤٢٧،٤٢٨. طبقات ابن سعد: ٢/ ٩٢. تفسير ابن كثير: ٢/ ٧٠.

(٢) سورة المائدة، الآيتان [٥١-٥٢]. تفسير الطبري:٦/ ٢٧٥. تفسير ابن كثير: ٢/ ٧٠.

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب قتل كعب بن الأشرف / ١٥.

(٤) العمري: السيرة النبوية الصحيحة:١/ ٣٠٤.

(٥) مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٤١٨.

إلا أن الحادث الذي دفع الرسول ﷺ إلى إعلان الحرب عليهم وإجلائهم هو محاولة اغتيالهم له. فحين قدم الرسول ﷺ عليهم في ديارهم، طالباً منهم مساعدته في دفع دية قتيلين قتلهما أحد أصحابه خطأً، أظهروا له استعدادهم لمساعدته، تحقيقاً لما بينه وبينهم من المعاهدة، وطلبوا منه الانتظار. فجلس إلى جدار أحدهم، ثم خلا بعضهم إلى بعض وتآمروا على قتله، مستغلين فرصة وجوده بينهم، واتفقوا على أن يصعد أحدهم بصخرة كبيرة فيلقيها على الرسول ﷺ ليقتله. فأوحى الله إلى رسوله بذلك فقام مسرعاً وعاد إلى المدينة، وأمر أصحابه بالسير معه لحرب بني النضير، فسار إليهم المسلمون وحاصروهم، وطلب منهم الرسول ﷺ أن يعطوه عهداً جديداً فأبوا، فقاتلهم حتى استسلموا، وفرض عليهم الجلاء من المدينة، على أن لهم ما حملت الإبل من الأمتعة. فحملوا ما استطاعوا حمله، وأخذوا يخربون ما أمكنهم تخريبه في بيوتهم؛ حتى لا يستفيد منه المسلمون. فمنهم من خرج إلى خيبر، ومنهم من خرج إلى الشام. وكان ذلك في السنة الرابعة من الهجرة.[1] وفي أمر بني النضير أنزل الله سورة الحشر.

نقض يهود بني قريظة العهد.(ذي القعدة/٥ هـ):

جاء نقض بني قريظة العهد في ظروف حرجة للمسلمين، حيث كانوا مشغولين بالتصدي لعشرة آلاف من الأحزاب يحاصرون المدينة، وكان نقضهم للعهد بتحريض من يهود بني النضير الذين نزلوا خيبر بعد جلائهم من المدينة؛ فقد تسلل زعيمهم حيي بن أخطب إلى زعيم بني قريظة كعب بن أسد، فما زال يحرضه حتى وافق له على نقض العهد ومشاركة الأحزاب في قتال المسلمين واستئصالهم، وحين علم المسلمون بذلك دخلهم همّ كبير، وخافوا على نسائهم وأطفالهم من بني قريظة، ولكن الرسول ﷺ اتخذ التدابير اللازمة؛ فنظم فرقاً يطوفون بالمدينة لحراستها من الداخل. ولما هزم الله الأحزاب ورحلوا عن المدينة، جاء الأمر من الله لنبيه بالتوجه فوراً لبني قريظة. فأمر الرسول ﷺ أصحابه بالمسير إليهم قائلاً: (لا يصلينّ أحد العصر إلا في

(١) عن جلاء بني النضير انظر: صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب حديث بني النضير رقم ١٤.سيرة ابن هشام: ٣/ ١٩١. البيهقي: دلائل النبوة: ٣/ ١٨١، ١٨٢.

بني قريظة)[1]. ثم تكامل المسلمون أمام حصون بني قريظة، وحاصروهم خمساً وعشرين ليلة حتى استسلموا، ونزلوا على حكم رسول الله ﷺ، وطلبوا منه أن يحكّم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه- سيد الأوس- فقد طمعوا في أن يخفف عليهم الحكم؛ للحلف الذي بينهم وبين قومه، كما فعل عبد الله بن أُبيّ بن سلول مع بني قينقاع. فقبل ذلك ﷺ واستدعى سعداً - وكان قد جرح في أيام الأحزاب- فلما حضر سعد رضي الله عنه حكم فيهم بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسَّم أموالهم. فقال ﷺ: (قضيت بحكم الله)[2].

وتنفيذاً لهذا الحكم، تم حجز اليهود، وحفرت الأخاديد في المدينة، وجيء بهم جماعات، ومن ثبت أنه بلغ الحلم قتل، ثم دفنوا، وبلغ عددهم على الأرجح أربعمائة رجل، وقيل أكثر من ذلك[3]. ولم يقتل عدد يسير لدخولهم في الإسلام[4]، أو ممن حصلوا على الأمان من بعض الصحابة[5]. وقسِّمت أموال بني قريظة ونساؤهم وأولادهم على المسلمين.

لماذا هذا العقاب الشديد لبني قريظة ؟

قد يستغرب بعض من يطلع على ما ناله بنو قريظة من عقاب، ويرى أن فيه قسوة. ولكن يزول ذلك حينما ينظر نظرة إنصاف وعدل، ويمعن النظر في ظروف وملابسات الحكم، ومنها:

[١] جاء نقض بني قريظة العهد بعد أن رأوا ما حلّ بطوائف اليهود قبلهم -بني قينقاع وبني النضير- بسبب نقضهم للعهد، فكان في ذلك إنذار لهم، ولكنهم لم

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب ٣٠. غزو بني قريظة.

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب ٣٠. غزو بني قريظة..

(٣) عن الروايات في عددهم انظر: ابن حجر: فتح الباري ٧/ ٤١٤. مهدي رزق الله: السيرة النبوية:٤٦١.

(٤) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب حديث بني النضير رقم ١٤.

(٥) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦١-٢٦٣.

يستفيدوا من هذا الإنذار، ولم يعتبروا. ولا شك أن عقاب من يكثر إنذاره أشد ممن هو أقل منه في الإنذار.

[٢] جمع بنو قريظة بنقضهم العهد بين جريمتين: الجريمة الأولى تخلّيهم عن العهد الذي وقعوه بينهم وبين المسلمين، وهو الدفاع عن المدينة إذا داهمها عدو. والجريمة الثانية أشنع من الأولى، حيث لم يكتفوا بالتخلي عن المشاركة في الدفاع بل تواطؤوا مع العدو في مهاجمة المسلمين. وعقاب من جمع جريمتين أشد وأنكى من عقاب صاحب الجريمة الواحدة.

[٣] جاء نقض بني قريظة للعهد في ظروف حرجة للمسلمين، ومن المؤكد - لولا عناية الله ونصره للمؤمنين - أن يحدث لهم على يد الأحزاب واليهود مثلما حدث لبني قريظة من قتل رجالهم وسبي أموالهم ونسائهم، لذا كان عقاب بني قريظة موافق لعظم جريمتهم، وجزاؤهم من جنس عملهم.

[٤] إذا كان سعد بن معاذ رضي الله عنه هو الذي نطق بهذا الحكم عليهم؛ إلا أنه هو حكم الله فيهم، كما أخبر به ﷺ بقوله لسعد: (قضيت بحكم الله) ومَن أعدل وأحسن من الله حكماً، فهو أعلم باليهود ونواياهم، وأعلم بالحكم الموافق لجريمتهم، وليس لأحد أن يعترض على حكم أحكم الحاكمين.

وبالقضاء على يهود بني قريظة، وجلاء بني قينقاع وبني النضير من قبل، استراح المسلمون في المدينة من عدو ماكر كان يتربص بهم الدوائر، ويتحين بهم الفرص.

المواجهة مع يهود خيبر:

أصبحت خيبر بعد جلاء اليهود من المدينة أكبر تجمع يهودي في جزيرة العرب، وفر إليها رؤوس طوائف اليهود المطرودين من المدينة، ومنها أخذوا يدبرون الخطط للقضاء على الإسلام، فمنهم نبعت فكرة غزو الأحزاب للمدينة، فكان من الحزم توجيه ضربة قاصمة لهم، والقضاء على خطرهم. وحدث هذا بعدما وقع الرسول ﷺ صلح الحديبية مع قريش، فتوجه إلى خيبر في محرم من السنة السابعة، وحاصرها بالمسلمين وفتحتها - وهي مجموعة حصون - حصناً بعد الآخر، واستسلموا بعد قتال

عنيف، ورضخوا لحكم الرسول ﷺ بجلائهم[(١)]. ولكن لما كانت خيبر منطقة زراعية وتجارية، فليس من الحكمة ترك تلك المزارع تموت دون أن ينتفع منها المسلمون، وليس بإمكان المسلمين أن يحلوا محل اليهود لانشغالهم بالعمل لنصرة الإسلام، ونشره بين الناس والجهاد في سبيله، لذا وافق ﷺ على طلب اليهود بأن يبقيهم في مزارعهم يعملون فيها، ولهم نصف الثمر[(٢)]. على أن للمسلمين الحق في إخراجهم منها إذا لزم الأمر. فبقوا على ذلك حتى عهد الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حيث أخرجهم عندما حتّمت المصلحة إخراجهم.

وبعد فتح خيبر اضطر بقايا اليهود في جزيرة العرب إلى الدخول تحت حكم النبي ﷺ، مثل يهود فدك، وتيماء، ووادي القرى، فعاملهم معاملة يهود خيبر[(٣)].

وخلال فتح خيبر جرت بعض الأحداث التي تكشف البون الشاسع بين تعامل الرسول ﷺ وتعامل اليهود. فعلى الرغم من كل ذلك العداء الذي تكنه قلوب عامة اليهود للرسول ﷺ والمسلمين، ويظهر في كثير من تصرفاتهم، إلا أن الرسول ﷺ لم يكن ليقابلهم بمثل هذا التعامل، بل تعامل معهم بما يؤكد لهم أنه نبي على خلق عظيم. فمن ذلك أنه جاءه - خلال حصاره لأحد حصون خيبر - رجل يرعى الغنم لأحد اليهود، وطلب من الرسول أن يعرض عليه الإسلام، فعرضه عليه، فأسلم، ثم استفتى الرسول ﷺ في شأن غنم اليهودي التي معه، فلم يستغل الرسول ﷺ الفرصة - وهو في حرب معهم- ليستولي على الغنم، بل أمر الرجل أن يضرب وجوه الغنم، وسترجع بنفسها لصاحبها[(٤)].

وبعد نهاية فتح خيبر، حاول اليهود اغتيال المصطفى ﷺ، وذلك حين أهدته امرأة منهم شاة مشوية بعد أن وضعت فيها السم، وقد أكثرت من السم في ذراع الشاة،

---

(١) عن فتح خيبر انظر: سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٧٨ وما بعدها.

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب معاملة النبي أهل خيبر: رقم ٤٠. صحيح مسلم: كتاب المسافاة: باب المساقاة والمعاملة بجزء من التمر والزرع.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان: ٤٢ ـ ٤٨. ابن القيم: زاد المعاد: ١/ ٤٠٥.

(٤) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٩٨،٣٩٧.

لعلمها أن الرسول ﷺ يحب لحمها. فقبل الهدية، وبدأ في الأكل ومعه بعض أصحابه، وبقدرة الله أخبرته الذراع بأنها مسمومة، فلفظ ما تناول من لحمها من فمه. وبعد استجواب المرأة اعترفت بجريمتها، فلم يعاقبها في حينها لمجرد قيامها بوضع السم، ولكنه قتلها عندما مات أحد أصحابه متأثراً بالسم الذي وضعته[١].

وهكذا نجد أنه كان بإمكان اليهود العيش في المدينة وفي جزيرة العرب في هدوء وسلام، لو وفّوا للمسلمين عهودهم، وأظهروا حسن نواياهم. ولكنهم سعوا إلى حتفهم بأنفسهم؛ فقد أعماهم الحقد، والحسد لهذا النبي الكريم ﷺ والدين الجديد، عن حقائق الأمور. كان ذلك منهم منذ أول وهلة، وحتى آخر لحظة. فتذكر صفية بنت حيي بن أخطب بعد أن أسلمت وتزوجت رسول الله ﷺ، أن والدها حيي بن أخطب النضيري حين قدم النبي ﷺ المدينة ذهب إليه هو وأخوه أبو ياسر بن أخطب، ثم رجعا يمشيان بفتور وضعف لا تكاد أقدامهما تحملانهما، لما أصابهم من الوهن حين تبين لهما أنه النبي حقاً، فتقول صفية: وسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي حيي: أهو هو ؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتُثْبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[٢]. وصدق في عداوته لرسول الله ﷺ بكل ما أوتي. فلما أمكن الله منه، وتم القبض عليه مع يهود بني قريظة، وجيء به ليُقتَل، ورأى رسول الله ﷺ قال: **(أما والله ما لُمتُ نفسي في عداوتك، ولكنه من يَخذُل اللهَ يُخذل)**[٣].

ويقول الغزالي رحمه الله في بيان سبب عداوة اليهود للمسلمين: «إن التفسير الوحيد لهذا الموقف أن اليهود انقطعت صلاتهم بمعنى الدين، وأن سلوكهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث سماوي، وأنهم لا يكترثون بما يقترب من عقيدة التوحيد أو أحكام التوراة، لأن هذه وتلك مؤخرة أمام شهواتهم الغالبة، وأثرتهم اللازمة، ومن ثمّ

---

(١) عن خبر سم الشاة أنظر: صحيح: البخاري: الهبة/ باب قبول هدية المشركين. سنن البيهقي: ٨/ ٤٦. المستدرك على الصحيحين:٣/ ٢٤٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٤٠، ١٤١. يرويها عن ابن إسحاق.

(٣)سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٦٠. السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ٢٣٩. كلاهما عن ابن إسحاق.

شكك القرآن في قيمة الإيمان الذي يدَّعيه القوم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]. وقال: والظاهر أن طوائف اليهود التي عاشت بين العرب كانت عصابات من المرتزقة، اتخذت الدين عنواناً لمطامع اقتصادية بعيدة، فلما تُوهم أن هذه المطامع مهددة بالزوال ظهر الكفر المخبوء، فإذا هو كفر بالله وسائر المرسلين»[2].

(ب) المواجهة مع النصارى:

يتركز وجود النصارى في نجران جنوب جزيرة العرب، وهناك عدد من القبائل العربية المتنصرة في شمال الجزيرة في طرف الشام الجنوبي، وبسبب بعدهم عن موطن البعثة النبوية فلم يكن لهم احتكاك بالمسلمين في السنوات الأولى من البعثة. ولكن يجدر هنا ذكر موقف ملك الحبشة النصراني المتسامح مع المسلمين حين هاجروا إليه ومنحهم من عدله وكرمه. وحين عز جانب الإسلام بعد فتح خيبر وفتح مكة، بدأ الرسول ﷺ خطوة متقدمة لنشر الإسلام في ربوع الجزيرة وخارجها، فوجه عدداً من الكتب والرسائل إلى الملوك والرؤساء؛ يدعوهم للدخول في دين الله. - كما سبق ذكره - وهنا بدأ الاحتكاك مع النصارى.

نصارى نجران.

بعث المصطفى ﷺ كتاباً إلى أسقف نجران يدعوه للدخول في الإسلام. فاستشار صاحب نجران أصحابه، فأشاروا عليه أن يبعث وفداً لمناقشة النبي محمد ﷺ ومعرفة خبره. فقدم الوفد والتقى بالرسول ﷺ وناقشوه في بعض المسائل وأجابهم عنها. وحين سألوه عن عيسى عليه السلام، قال: (ما عندي فيه شيء يومي هذا..) فلما أصبح من الغد جاءهم وقد أنزل الله عليه الإجابة عن سؤالهم، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ

(١) سورة البقرة، الآية [٩١].

(٢) فقه السيرة: ٢٦١، ٢٦٢.

عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1]. إلا أنهم لم يعترفوا بتلك الحقيقة في شأن عيسى، فطلب الرسول ﷺ مباهلتهم كما جاء في تمام الآية السابقة، ولكنهم خافوا سوء عاقبتها عليهم فلم يستجيبوا له، وقبلوا أن يدفعوا الجزية، وطلبوا من الرسول ﷺ تحديدها، فكتب معهم إلى صاحب نجران كتاباً حدد فيه دفع جزية مقدارها ألفا حُلة في السنة[2]. وعاد الوفد إلى نجران. وبعد مدة جاء أسقف نجران على رأس وفد إلى المدينة، وأقاموا مدة عند رسول الله ﷺ، وسمعوا بعض ما أنزل عليه من القرآن. فلما عادوا كتب لهم الرسول ﷺ كتاب أمان، ما أصلحوا ونصحوا.[3] ودخل في الإسلام عدد من نصارى نجران قبل وفاته عليه السلام.

نصارى الشمال:

أما النصارى في الشمال - المتمثلون في دولة الروم والقبائل العربية المحالفة لهم - فبدأ الاحتكاك بهم عندما اعتدى بعضهم على أحد رُسُلِ رسول الله الحاملين لكتبه بالقتل، وتحرش بعضهم الآخر بسرايا رسول الله ﷺ التي بعثها لنشر الإسلام[4]. ومن أهم الأحداث في مواجهة المسلمين مع نصارى الشمال الآتي:

معركة مؤتة: جمادى الأولى /٨ هـ:

إضافة إلى توجه الرسول ﷺ لنشر الإسلام خارج الجزيرة العربية، جاء مقتل حامل كتاب رسول الله ﷺ الحارث الأزدي إلى ملك "بُصرى" على يد شُرحبيل بن

---

(١) سورة آل عمران، الآية [٥٩].

(٢) عن تفاصيل وفد نجران انظر: الطبقات الكبرى: ١/ ٣٥٧. البيهقي: دلائل النبوة: ٥/ ٣٨٥ ـ ٣٩١. السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ١٠٠ ـ ١٠٨.وورد في صحيح البخاري خبر المباهلة، كتاب المغازي: باب قصة أهل نجران.

(٣) البداية والنهاية: ٥/ ٥٥.

(٤) مثل قتل رسول رسول الله الحارث بن عمير ﷺ إلى صاحب بصرى (أسد الغابة لابن الأثير: ١/ ٣٤١) وقتالهم لأفراد السرية التي بعث على رأسها كعب بن عمير ﷺ (السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ٤٥٤. عن الواقدي)

عمرو الغساني سببا مباشرا لمعركة مؤتة، فحين بلغ الخبر رسول الله ﷺ اشتد عليه الأمر وندب الناس للخروج إلى مؤتة حيث قتل الحارث ﵁[1].

تسارع الصحابة ﵃ للخروج فاجتمع ثلاثة آلاف مجاهد،وعلى غير المعتاد عن الرسول ﷺ ثلاثة أمراء للجيش حيث قال: (**عليكم زيد بن حارثة فإن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة**)[2]. وودعهم الرسول ﷺ وأصحابه قائلا: (**اغزو بسم الله في سبيل الله**).

واصل الجيش الإسلامي نحو الهدف الذي حدده لهم ﷺ بأن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم[3]. وفي "مَعَان" من أرض الشام فاجأت الأخبار المسلمين بما لم يتوقعوه، حيث علموا أن هرقل جاء في مائة ألف من الروم، واجتمع له مائة ألف من القبائل العربية المتنصرة،وهذا ما دعا المسلمين للتشاور في الأمر، فرأى قوم أن يكتبوا لرسول الله ﷺ فإما أن يمدهم بقوة وإما أن يأمرهم بالقتال، ولكن عبدالله بن رواحة ﵁ طرح رأيا حسم به الأمر حين قال: (يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم له تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، إنما نقاتلهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة). فتشجع الناس وأجمعوا على رأيه، فانطلق بهم زيد بن حارثة ﵁ ولقي بهم جموع النصارى في مؤتة.

أحداث المعركة:

في مؤتة دارت معركة بين طرفين غير متكافئين في العدد والعدة، ومع ذلك ضرب المسلمون أمثلة للبطولة نادرة تجلى فيها أثر الإيمان حين يملأ النفوس وكيف

---

(١) عن هذا السبب انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد: ٤/ ٣٤٣. تاريخ مدينة دمشق:٢/ ٧.

(٢) سنن النسائي الكبرى: ٥/ ٦٩. مسند الإمام أحمد:٥/ ٢٩٩.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ١٢٨.

يصنع الأعاجيب، وكان قادة المعركة خير مثالٍ للبطولة والفداء، فتقدم أولهم زيد بن حارثة ﷺ فقاتل حتى استشهد، فحمل الراية بعده جعفر بن أبي طالب ﷺ فتقدم الصفوف كالأسد الهزبر، فقُطعت يده اليمنى فحمل الراية بيده اليسرى فقطعت فضم الراية على صدره بعضديه حتى استشهد، فاخذ الراية عبدالله بن رواحة ﷺ فقاتل حتى استشهد، واشتد هجوم النصارى على المسلمين، فحمل الراية رجل من المسلمين ودعاهم لاختيار قائد لهم، فاختاروا خالد بن الوليد ﷺ، فتمكن - بحنكته العسكرية - أن ينقذ المسلمين من هذا الموقف الحرج حين أحدث تغييرات في تنظيم الجيش فقد وأخر وجعل الميسرة ميمنة والعكس، فظن العدوى أن هناك مدداً قدم للمسلمين فأضعف هذا في جانبهم فلم يحرصوا على مطاردة المسلمين في حركتهم الانسحابية وهم يقاتلون.

وعلى ما أصاب المسلمين في هذه المعركة إلا أنها تعد نصرا للمسلمين، فكان من المتوقع وموازين القوى بهذا الاختلاف أن يبيد النصارى معظم الجيش الإسلامي، ولكن لم تسفر المعركة إلا عن ثلاثة وعشرين شهيدا فحسب، ومن جوانب النصر أن المعركة كشفت للنصارى مدى ما يتمتع به المسلمون من شجاعة نادرة لم يعهدوها، فجعفر ﷺ وجد به أكثر من تسعين طعنة وضربة، كما انكسر في يد خالد بن الوليد ﷺ تسعة أسياف من شد ضربه في الأعداء، وقتال المسلمين بهذه الروح سيجعل قتلى الأعداء ـ وإن لم تحص ـ أضعافا مضاعفة ولا شك.

وكان الرسول ﷺ قد أخبر المسلمين بما أوحى الله إليه بنتيجة المعركة ففي صحيح البخاري[1]: (عن أنس ﷺ أَنَّ النبي ﷺ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وبن رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قبل أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ فقال: (**أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ بن رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ حتى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ من سُيُوفِ اللَّهِ حتى فَتَحَ الله عليهم**).

(١) المغازي/ باب غزوة مؤتة.

ولا شك أن المسلمين أفادوا دروسا وخبرات عظيمة من هذا اللقاء الأول مع الروم في مستقبل حركاتهم الجهادية معهم، حيث عرفوا علة قوتهم، وعددهم، وأساليب قتالهم وخططهم، وطبيعة الأرض التي يقاتلون عليها[1].

سرية ذات السلاسل: جمادى الآخرة/٨هـ:

بعد أيام من عودة الجيش الإسلامي من مؤتة بعث الرسول ﷺ سرية قوامها ثلاثمائة مجاهد، بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه، وهدف هذه السرية تأكيد قوة المسلمين في نظر القبائل النصرانية شمال الجزيرة التي شاركت مع الروم في مؤتة، وتأديب ما يمكن تأديبه من تلك القبائل، وقطع الطريق على أي منها أن تفكر في غزو المسلمين، خاصة وقد بلغ الرسول ﷺ أن جمعا من قضاعة قد تجمعوا يريدون غزو أطراف المدينة.

وقد حققت تلك السرية هدفها، فحين انطلق عمرو بن العاص رضي الله عنه وبلغ ديار بعض تلك القبائل علم بتجمعهم فبعث يطلب مددا فأمده الرسول ﷺ بمائتي مجاهد، فسار عمرو بالناس حتى وطىء بلاد قبيلة "بلي" ودوخها حتى أتى إلى أقصى بلادهم وبلاد "عذرة" و"بلقين" ولقي في آخر ذلك جمعا فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا ثم قفل المسلمون راجعين[2].

غزوة تبوك: رجب/٩ هـ:

بعد أن تم فتح مكة وإنهاء مقاومة قريش وكسر شوكة مشركي العرب في الجزيرة عاود الرسول ﷺ نشاطه لمواجهة نصارى الروم ومن حالفهم من القبائل العربية المتنصر مواصلة لنشر رسالة الإسلام، وقد بدأ بالروم قبل الفرس لأنهم أقرب[3]، وقد عجل بخروج الرسول ﷺ إلي الروم ما بلغه أن ملك الروم قد جمع جموعا كبيرة من الروم وانضم إليه جموعا أخرى من القبائل العربية المتنصرة[4]، فندب الرسول

---

(١) العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٤٧٠.

(٢) عن هذه السرية انظر: الطبقات الكبرى لبن سعد:٢/ ١٣١. السيرة النبوية لابن كثير::٣/ ٥١٦.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٣.

(٤) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٢/ ١٦٥.

ﷺ الناس للخروج، وقد وافق وقت هذه الغزوة ظروفا قاسية، فكان الحر شديدا، والأرض مجدبة، ووافق وقت نضج الثمار بالمدينة،مما يصعب معه الخروج، لذا سميت هذه الغزوة غزوة العسرة وجيشها بجيش العسرة، ولهذه الظروف مع بعد المسافة وقوة العدو فقد بين الرسول ﷺ وجهة الجيش على غير عادته في غزواته، حيث كان يكنى ولا يصرح ببيان الوجهة حتى تتم جميع الاستعدادات ويخرج للغزوة.

استجاب لدعوة الرسول ﷺ للخروج أعداد كبيرة من المسلمين من المدينة ومن خارجها بلغ عددها ثلاثين ألف مجاهد، ولكن كثيرا منهم لا يجد الراحلة والزاد الذي يمكنه من السير مع الجيش، لذا حث الرسول ﷺ الناس للتطوع في تجهيز الجيش ورغب في ذلك، فكان مما قال: (**مَن جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ**)[1]، فتسابق الصحابة – على ما بهم من ضيق الحال – للتطوع، وكان في مقدمتهم عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي تطوع بعدد من الجمال والمال ما جعل الرسول ﷺ يقول له: (**ما ضر عثمان ما عمل بعد هذا**)[2] وأنفق عبدالرحمن بن عوف نصف ماله، وأما من لم يجد مالاً يجود به أو راحلة تحمله فقد جاد بدموعه تعبيرا على ما في قلبه من حب للبذل والمشاركة، وهؤلاء ذكرهم الله فيمن ليس عليه حرج في تخلفه عن الخروج مع الجيش فقال تعالى عنهم: وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[3]. وفيهم قال الرسول ﷺ: (**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا ما سِرْتُمْ مَسِيرًا ولا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إلا كَانُوا مَعَكُمْ**) قالوا يا رَسُولَ اللَّهِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قال: (**وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**)[4].

(١) صحيح البخاري: باب فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) فضائل الصحابة للأحمد بن حنبل: ١/ ٥١٥. المستدرك على الصحيحين للحاكم: ٣/ ١١٠.

(٣) سورة التوبة، الآية [٩٢].

(٤) صحيح البخاري: باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر.

ضرب الرسول ﷺ له معسكرا خارج المدينة في ثنية الوداع[1] حتى يتم توافد من يريد الخروج معه، واستعمل ﷺ محمد بن مسلمة رضي الله عنه على المدينة، كما استخلف علي بن أبي طالب رضي الله عنه على أهله.

وحينما تكامل خروج الناس سار الرسول ﷺ بجيشه الكبير متغلبين على تلك الظروف القاسية، وكان يتعاقب على البعير الواحد الرجلان والثلاثة، وفي الطريق مر الجيش الإسلامي بـ"الحِجْر" وهي ديار ثمود[2] فاستقى الناس من بئرها، فأمرهم الرسول ﷺ أن يهريقوا الماء ولا يشربوه، ويعلفوا الإبل ما عجنوا منه، وأمرهم أن يستقوا من بئر الناقة[3]. كما أمرهم أن لا يخرج أحد منهم الليلة أحد إلا ومعه صاحبه ففعل الناس ما أمرهم به، إلا رجلين من بني ساعدة، خرج أحدهما لحاجته فخنق على مذهبه[4] وخرج الآخر في طلب بعير له فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلي طيء، فأخبر الرسول ﷺ بذلك، فدعا للذي أصيب فشفي، وأما الأخر فأهدته طيء للرسول ﷺ[5]. وحينما تسارع بعض الناس للدخول على أهل الحجر وبلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: **(لَا تَدْخُلُوا على هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لم تَكُونُوا بَاكِينَ فلا تَدْخُلُوا عليهم أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصَابَهُمْ)**[6].

سار الرسول ﷺ بجيشه متوجها للروم وحلفائها حتى بلغ تبوك ومكث هناك عشرين يوما حيث تصل أخبار جيشه للروم وحلفائها من العرب، فإن كان لهم قوة

---

(١) ثنية الوداع بفتح الواو وهو اسم من التوديع عند الرحيل وهي ثنية مشرفة على المدينة يطؤها من يريد مكة. (معجم البلدان ج٢/ ص٨٦)

(٢) هم قوم النبي صالح عليه السلام، وكانوا قد طلبوا منه معجزة فأخرج الله لهم ناقة من صخرة عظيمة، فقتلوها فأرسل الله عليهم صيحة قتلتهم. انظر الآيات: الأعراف [٧٣ ـ ٧٨]. وتسمى ديارهم الآن مدائن صالح.

(٣) انظر صحيح البخاري: كتاب التفسير/ باب قوله تعالى: وإلى ثمود أخاهم صالح.

(٤) أصيب وهو يقضي حاجته.

(٥) سيرة ابن هشام:٤/ ١٧٦.

(٦) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

على مواجهة المسلمين تقدموا للمواجهة، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، فلعلهم علموا بكثرة المسلمين واستعدادهم للقتال فدخلهم الرعب فآثروا عدم المواجهة وتفرقوا.

وفي تبوك بعث الرسول ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه في سرية إلى دومة الجندل، فأسر ملكها النصراني "أكيدر الكندي" فلما قدم به إلى الرسول ﷺ أطلقه وصالحه على دفع الجزية. وهناك قدم ملك "أيلة" وأهدى للرسول ﷺ بغلة بيضاء، وصالح الرسول ﷺ على دفع الجزية فكتب له الرسول ﷺ كتاب أمان له ولأهل أيلة[1]، كما صالح بعض القبائل العربية المتنصرة على مثل ذلك[2]. ثم بعد ذلك قفل المسلمون مع رسولهم إلى المدينة بعد أن أكدت تلك الغزوة هيبتهم في قلوب النصارى وحلفائهم من القبائل العربية المتنصرة فلم يجرؤا على مواجهة المسلمين[3].

وقفات مع غزوة تبوك:

كشفت هذه الغزوة عن قوة إيمان الصحابة رضي الله عنهم، وبينت مدى تضحيتهم لدينهم وانقيادهم لنبيهم، حين سارعوا بالبذل والخروج مع رسول الله على الرغم من صعوبة الحال وقلة المال.

فضحت هذه الغزوة المنافقين وكشفت حقيقتهم، من خلال تخاذلهم عن الخروج، وتخذيل الناس عنه، وإعاقة غيرهم عن التطوع بشتى الوسائل، ومن خرج منهم – وهم قلة – كشفت الغزوة ما كان يدور بينهم من غمز ولمز للمؤمنين، وظهر حقدهم على رسول الله ﷺ بمحاولة بعضهم اغتياله[4].

كشفت هذه الغزو عمق التربية الإيمانية للصحابة الكرام، وأثرها في المبادرة إلى التوبة حين يقع الخطأ، وتحمل عواقب الصدق عند الاعتذار من الخطأ، والرضوخ

---

(١) انظر كتاب الأمان: سيرة ابن هشام: ٤/ ١٨١، الطبقات الكبرى: ١/ ٢٨٩.

(٢) مثل مصالحة ملك أيلة: صحيح البخاري: كتاب الجزية/ باب إذا وادع الإمام: رقم ٣. سيرة ابن هشام: ٤/ ١٨٠.

(٣) عن تفاصيل غزوة تبوك انظر: سيرة ابن هشام: ٤/ ١٦٩. الطبقات الكبرى: ٢/ ١٦٥. سيرة ابن كثير: ٤/ ٣.

(٤) سبق ذكر هذه المحاولة في موضوع أساليب المنافقين في مواجهة الدعوة.

لأي عتاب وتحمل أي عقاب دنيوي يترتب على هذا الصدق للفوز برضا الله وثواب الآخرة. ظهر هذا في صدق الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ[1]، وبقوا في المدينة مع المنافقين أو من حبسهم العذر، فحين رجع الرسول ﷺ وجاء المتخلفون من المنافقين لإبداء أعذارهم الكاذبة صدق هؤلاء الثلاثة وذلك حين قال كعب رضي الله عنه (يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه لقط أعطيت جدلا ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى الله، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك) وكذلك صدق صاحبيه، فأرجأ الرسول قبول اعتذارهم حتى ينزل فيهم أمر من الله، وأمر الناس أن لا يكلموهم ولا يجالسوهم حتى أقرب الناس إليهم، حتى ضاقت بهم الأرض وضاقت عليهم أنفسهم، وظلوا على هذه الحال خمسين يوما حتى أنزل الله توبتهم[2].

هذه الغزوة رد على الشيعة الرافضة الذين يطعنون في صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم، حيث يزعم هؤلاء - قاتلهم الله - أن معظم الصحابة ارتدوا إلا نفراً يسيراً منهم. فقد خرج في هذه الغزوة ثلاثون ألفا من الصحابة، وقد حكم الله بتوبته عليهم جميعا حين قال تعال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3] ومن تاب الله عليه ورضي عنه هل يجرؤ عاقل أن يطعن فيه.

(١) هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع رضي الله عنهم.

(٢) انظر قصة هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا في صحيح البخاري: باب حديث كعب بن مالك. وصحيح مسلم: باب حديث كعب بن مالك وصاحبيه.

(٣) سورة التوبة، الآية [١١٧].

تجهيز جيش أسامة رضي الله عنه:

تأكيداً للتوجه نحو غزو نصارى الشمال لم تكن غزوة تبوك آخر نشاط للرسول ﷺ في هذا المجال، بل قد عزم قبيل وفاته على توجيه جيش جديد، وبدأ في إعداده وجعل على قيادته أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وقال له: (سر إلى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش) ولكنه ﷺ مرض ثم توفي قبل مغادرة الجيش المدينة. فلما تولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة أنفذه، سيراً على نهج الرسول ﷺ[1].

(١) عن تأمير أسامة على الجيش انظر: صحيح البخاري ومسلم: مناقب زيد بن حارثة. وعن تجهيز الجيش الطبقات الكبرى: ٢/ ١٨٩.

ثالثاً: الدولة الإسلامية ومواجهة المنافقين

النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو نوعان:

[١] نفاق اعتقادي: وهو إظهار الإسلام وإسرار الكفر، وهذا يخلد صاحبه في النار.

[٢] ونفاق عملي: وهو من أكبر الذنوب[١]. وهو من يتصف ببعض صفات المنافقين، ومن يخالف قوله عمله.

ظهور النفاق:

لم يظهر النفاق إلا بعد الهجرة، لأن المسلمين في مكة ضعفاء، والقوة كانت للمشركين، فلا يحتاج من أراد البقاء على الشرك إلى مجاملة المسلمين، ولكن حين تمت الهجرة إلى المدينة، وقوي جانب المسلمين، وأصبحت لهم الغلبة، وجد من أراد البقاء على كفره ـ ممن لا يفكرون إلا في مصالحهم الخاصة، ولا ينظرون إلا إلى حياتهم الدنيوية وهم عن الآخرة هم غافلون ـ وجد هؤلاء أنهم سيكونون شواذاً في المجتمع، وأن مراكزهم ومصالحهم التجارية، والاجتماعية معرضة للخطر، لذا آثر هذا الصنف العيش بشخصية منفصمة ذات وجهين، هي البقاء في دواخلهم على كفرهم، وادعاء الإسلام ظاهرياً؛ ولم يكن هؤلاء واضحين في بادئ الأمر، ولكن الأحداث كشفت عن كثير من أشخاصهم، وجلّت كثيراً من صفاتهم.

أساليب المنافقين في مقاومة الإسلام:

على أن المنافقين لم يحملوا السلاح لحاربة المسلمين، إلا أنهم من أخطر أعدائهم؛ ذلك لأنهم يعيشون بينهم، ويعرفون أسرارهم، ويتظاهرون بمحبتهم. وقد سلكوا عدة أساليب لمحاربة الإسلام والمسلمين، نذكر أهمها فيما يلي:

[١] محاولة تفريق كلمة المسلمين بعد أن جمعهم الله على الدين:

يعتقد المنافقون أن وجود المهاجرين من المسلمين في المدينة كان على حسابهم، لذا كانوا يحاولون إيغار صدور الأنصار على المهاجرين، كلما وجدوا لذلك فرصة، مثلما

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٧٢.

حدث في غزوة بني المصطلق عندما حدث شجار بين أنصاري ومهاجري، فاستغل كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الفرصة، فأخذ يعاتب الأنصار على إيوائهم المهاجرين، وطلب منهم عدم الإنفاق عليهم حتى ينفضوا عن الرسول ﷺ. فأنزل الله فيه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[1].

[٢] التخذيل عن الجهاد بالقول والعمل:

يدرك المنافقون أن انتصارات المسلمين على المشركين أو اليهود تؤدي إلى زيادة قوة المسلمين، وتثبيت أقدامهم في المدينة، لذا حاولوا إشاعة روح التخاذل عن الجهاد، وإضعاف معنويات المسلمين، تارة بالقول - كما كانوا يقولون في غزوة تبوك لا تنفروا في الحر، وفي أحد حين قتل من قتل من المسلمين قالوا كما قال الله عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2] فدل على أنهم كانوا يخذلون عن الجهاد، وحين كان الرسول ﷺ يجهز لغزوة تبوك، ويحث أصحابه على الخروج معه، كان المنافقون يثبطون الهمم ويقولون كما قال الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾[3]. وتارة بالعمل- فمواقفهم كثيرة منها انسحابهم من جيش المسلمين في غزوة أحد حين خرجوا معهم وعددهم ثلاثمائة ليحدثوا بذلك خللاً في صفوف المسلمين ويضعفوا من معنوياتهم.

[٣] موالاة أعداء الإسلام ومظاهرتهم في حربهم للمسلمين:

أوضح الله صلة المنافقين بأعداء الإسلام، والاشتراك معهم للتخطيط في الخفاء لحرب الإسلام والمسلمين. فمن ذلك قوله تعالى عنهم: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ

(١) سورة المنافقون، الآية [٧].

(٢) سورة آل عمران، الآية [١٦٨].

(٣) سورة التوبة، الآية [٨١].

ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾[(١)] والمراد بشياطينهم هنا رؤساؤهم من أحبار اليهود والمشركين والمنافقين[(٢)]. ومن ذلك بناؤهم مسجداً أظهروا أنهم أقاموه للصلاة شفقة على الضعيف والمريض، ولليلة المطيرة الشاتية، ولكنهم في الحقيقة بنوه لكي يجتمعوا فيه بعيداً عن أنظار المسلمين، فيقولون ما شاؤوا، ويلتقون فيه برسل أعداء المسلمين، ويرسمون فيه خططهم. وكانوا قد بنوه قبيل خروج الرسول ﷺ إلى غزوة تبوك، وطلبوا منه أن يصلي فيه ليكون في ذلك حجة لهم وإقراراً منه لهم. فوعدهم بالصلاة فيه إذا عاد من تبوك، ولكن بعد عودته وقبل وصوله المدينة بيوم أنزل الله عليه آيات، كشف فيها نوايا المنافقين من بناء هذا المسجد، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[(٣)]. فأمر رسول الله ﷺ من يأتي مسجد الضرار فيهدمه ويحرقه.[(٤)]

[٤] السخرية والاستهزاء بالمسلمين:

ومن أساليبهم السخرية بالمسلمين، والاستهزاء بالله ورسوله والمؤمنين، وذلك كثير. ففي أثناء حفر الخندق بشر رسول الله ﷺ المؤمنين بأن الله سيفتح لهم بلاد الشام وفارس واليمن، فلما قدمت جموع الأحزاب المدينة قالوا كما قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[(٥)]، ووفي غزوة تبوك وحين رأوا المؤمنين يتسابقون للإنفاق في سبيل الله - حين أحجموا هم- يسلطون ألسنتهم بالسخرية، فمن رأوه أنفق كثيراً اتهموه بالرياء، ومن أنفق قليلاً - وهو غاية ما يستطيع- قالوا: إن الله غني عن صدقة هذا. فأنزل الله فيهم:

(١) سورة البقرة، الآية [١٤].

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٧٦.

(٣) سورة التوبة، الآية [١٠٧].

(٤) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٨٥.

(٥) سورة الأحزاب، الآية [١٢].

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

[٥] ترويج الإشاعات الكاذبة في المجتمع المسلم:

ومن أساليب المنافقين نشر الإشاعات الكاذبة، خاصة تلك الإشاعة التي تعمل عملها في تفريق الصفوف، وتنافر القلوب. ومن أبشع تلك الإشاعات ما أشاعوه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، حين سنحت لهم الفرصة، عند قدوم الرسول ﷺ من غزوة بني المصطلق. فحدث أن عائشة رضي الله عنها سقط قرط لها فذهبت تبحث عنه، والرسول ﷺ وأصحابه قد تجهزوا للمسير، فتأخرت، فحمل الرجال هودجها[2] وهم يظنون أنها فيه- وكانت خفيفة الوزن- فلما جاءت وجدت القوم قد رحلوا فجلست في مكانها فأخذها النوم، فمر بها الصحابي صفوان بن المعطل رضي الله عنه - وكان يتعقب الجيش - فطلب منها أن تركب بعيره، وأمسك بزمام البعير ماشياً على قدميه، فلما قدم المدينة أظهر المنافقون - وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول - حقدهم، وفاح كفرهم، فاتهموا عائشة رضي الله عنها بفعل الفاحشة مع صفوان رضي الله عنه، وأشاعوا ذلك وروجوه بين الناس، وتلقف ذلك نفرٌ قليلٌ من المتسرعين بألسنتهم يرددونه دون وعي لخطورة الأمر، وعاش البيت النبوي شهراً من المعاناة حتى أنزل الله عشر آيات[3] بيّن فيها عظم ذنب أولئك الذين آذوا رسول الله ﷺ بمثل هذه الفرية الدنيئة، وعاتب المؤمنين الذين وقعوا في فخ المنافقين بترديد مقولتهم الدنيئة، وبرأ ساحة أم المؤمنين رضي الله عنها وبشرها بأن ذلك الاتهام ليس شراً بل هو خير. وأول هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، وجاء في عتاب المتسرعين المنخدعين بمقولة المنافقين قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ

---

(١)سورة التوبة، الآية [٧٩].

(٢) الهودج هو مكان مستور يوضع على ظهر البعير تركب فيه النساء.

(٣) سورة النورالآيات [١١-٢٠].

وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، كما أثنى الله على موقف المحسنين الظن بأم المؤمنين، وهو يمثل موقف عامة الصحابة رضي الله عنهم، فحكى الله موقف بعض أولئك الذين حين سمعوا الإشاعة قالوا: سبحانك هذا بهتان عظيم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾[1]. فانظر كيف حاول المنافقون التنفيس عن قلوبهم الوَغِرَة [2] بإشغال المجتمع المسلم بمثل هذه الفرية الدنية.

[٦] محاولة اغتيال الرسول ﷺ:

في غزوة تبوك خرج مجموعة من المنافقين مع المسلمين لا من أجل المشاركة في الجهاد مع المسلمين، ولكن لأغراض أخرى منها: التخذيل والسخرية، وطلب الغنيمة، ومنها تحين الفرص لإيذاء المسلمين، ففي العودة مر الجيش بعقبة مرتفعة ضيقة في طرف وادي متسع، فأمر الرسول ﷺ الجيش أن يسلكوا بطن الوادي، ونهى أن يتبعه أحدا في العقبة لخطورتها، وجعل زمام ناقته مع عمار بن ياسر رضي الله عنهما، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه يسوقها، لكن اثني عشر منافقا تأخروا، ثم لحقوا بالرسول ﷺ متلثمين في ظلمة الليل ومسرعين لتنفر ناقة الرسول ﷺ به وتطرحه من أعلى العقبة، ولكنه ﷺ سمع صوتهم فأمر حذيفة بالتصدي لهم، فعلموا أن مؤامرتهم قد انكشفت، فأسرعوا واختلطوا بالجيش حتى لا يعرفهم أحد. ولكن الله أطلع نبيه عليهم فلم يخبر أحدا بأسمائهم غير حذيفة رضي الله عنه. وبقي ذلك سرا عنده[3].

أسلوب الإسلام في مواجهة المنافقين:

لما كان واقع المنافقين في حربهم للإسلام معقداً غير صريح، فهم يتظاهرون بالإسلام وقلوبهم ممتلئة بالكفر، والحقد على الإسلام، والغش لأهله، ويعلنون أنهم مع المؤمنين

---

(١) انظر هذه الآية والآيات التي قبلها في حديث الإفك في سورة النور الآيات: [١١-٢٠].

(٢) الوغرة: الممتلئة غيظاً.

(٣) السنن الكبرى للبيهقي:٩/ ٣٢. السيرة النبوية لابن كثير:٤/ ٣٤،٣٥. وورد في صحيح مسلم خبر معرفة حذيفة بهؤلاء المنافقين: كتاب صفات المنافقين.

ويحلفون على ذلك الأيمان المغلظة، وإن كانوا في الحقيقة في صف أعدائهم، وهم يقدمون الأعذار بألسنتهم عن أخطائهم المتكررة، وقلوبهم مصرة على مقارفة تلك الأخطاء. فالحرب بهذه الحال مع المنافقين ليست مكشوفة في ميدان الأرض، للسيوف فيها مجال، أو للشجاعة فيها أثر، وإنما هي حرب خفية في ميدان النفوس، وأدغال القلوب. لذا كفى الله المؤمنين - آنذاك - خوض الحرب معهم، وتولى بنفسه توجيه الضربات لهم، فكشف في آيات كثيرة ما تخفيه قلوبهم، وفضح نواياهم، وأعلن ما يسرونه في مجالسهم الخاصة، كما بين صفاتهم للمؤمنين ليحذروهم في كل حين، وهذا سر كون الآيات التي تحدثت عنهم أكثر بكثير من الآيات التي تحدثت عن المشركين، لأن مواقف المشركين واضحة معلنة، أما مواقف المنافقين وأساليبهم فهي خفيّة ملتوية، تحتاج إلى مزيد بيان وتوضيح. ففي أول سورة "البقرة" كانت الآيات التي بيَّنت وصف المنافقين أكثر من الآيات التي بيَّنت وصف المؤمنين أو الكافرين، وفي سورة آل عمران تفصيل وبيان لما تخفيه نفوسهم، وفضح لمواقفهم المخزية في غزوة أحد. وجاءت معظم آيات سورة التوبة كالصواعق المرسلة على المنافقين؛ فما تركت شيئاً مما تكنه نفوسهم من حقدٍ إلا ذكرته، وفصلت في بيان أحوالهم وصفاتهم، لذا أطلق على هذه السورة عدة أسماء مرتبطة بموضوع فضحها للمنافقين[1]. ونزلت سورة خاصة بهم سميت سورة: "المنافقون". وقد كانت تلك الحرب التي شنها الله عليهم في القرآن أعظم عليهم من وقع السيوف، حتى أصبحت نفوسهم في قلق، وقلوبهم في هلع، كل يوم يتوقعون آية تنزل بفضيحة جديدة لهم،كما قال تعالى عنهم: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾[2].

أما رسول الله ﷺ فإنه كان يتعامل معهم بحذر، تنفيذاً لأمر الله له بقوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[3] وكان يعاملهم بسياسة النَّفَسِ الطويل،

(١) من هذه الأسماء "الفاضحة"؛ لأنها فضحت المنافقين (فتح القدير) للشوكاني: ٢/ ٣٣٢.

(٢) سورة التوبة، الآية [٦٤].

(٣) سورة المنافقون، الآية [٤].

فيقبل أعذارهم الكاذبة حين يبدونها له، ويصبر على تصرفاتهم المشينة. وقد آتت هذه السياسة ثمارها، ففي غزوة بني المصطلق التي حاول المنافقون فيها إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار، قال زعيمهم عبدالله بن أبي بن سلول: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل». يعني أنه سيُخرج رسول الله ﷺ من المدينة. فقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه دعني أضرب عنق هذا الخبيث. فقال ﷺ: **(دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)**[1]. فلما اقتربوا من المدينة جاء ابن عبد الله بن أبيٍّ واسمه مثل أبيه عبد الله، وهو مسلم، فقال للرسول ﷺ: (إنه بلغني أنك تريد قتل أبي لِمَا بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار). فقال له ﷺ: **(بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا)**. فكان بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: **(كيف ترى ياعمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلتَ لي اقتله لأرعدت له آنفٌ[2] لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته)**. فقال عمر رضي الله عنه: (قد علمت والله لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري)[3].

وقد بقيت تلك الآيات القرآنية الخالدة التي نزلت في النفاق والمنافقين، والأحاديث التي بين رسول الله ﷺ فيها صفات المنافقين، منارات للمسلمين في كل عصر، توضح لهم صفات المنافقين، وتبين أحوالهم الخفية، وأساليبهم الماكرة؛ لأن النفاق داء لا ينقطع، وأصحابه هم أصحابه في كل حين، لا يختلفون باختلاف الزمن.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المناقب: باب ما ينهى من دعوى الجاهلية رقم ٨.

(٢) آنفٌ جمع انف.

(٣)سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٦، ٢٣٧. عن ابن إسحاق بسند منقطع. ورواه الطبراني والبزار كما في مجمع الزوائد للهيثمي: ٣١٨/٩. وقال الهيثمي رجاله ثقاة. وانظر: مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٤٣٦.

الأحداث الأخيرة في حياة الرسول ﷺ:

الوفود إلى رسول الله ﷺ:

بعد انتهاء مقاومة قريش ودخولها في الإسلام بفتح مكة، وبعد القضاء على تحالف قبائل هوازن في غزوة حنين، زالت أكبر عقبة أمام انتشار الإسلام في ربوع جزيرة العرب، وبين قبائلها. فقد كانت القبائل الأخرى تتربص ما يؤول إليه الصراع بين النبي ﷺ وقريش، فلما انتهت مقاومة قريش ودخلت في الإسلام بادرت القبائل الأخرى بالدخول في الإسلام[١]. وقد أنزل الله في ذلك سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾. ففي العام التاسع من الهجرة - العام التالي لفتح مكة - وبعد عودته ﷺ من تبوك، تدفقت الوفود من أنحاء الجزيرة العربية إلى المدينة، حتى سمي هذا العام: عام الوفود[٢]. وقد بلغ عدد تلك الوفود أكثر من ستين وفداً[٣]. وأوصلها بعض الباحثين إلى مائة وفد[٤]. وشملت تلك الوفود قبائل العرب في جزيرة العرب قاطبة[٥]. ويختلف عدد أفراد تلك الوفود من وفد إلى آخر، فحين بلغ بعضها التسعة والعشرة، نجد أن بعضها بلغ الأربعمائة رجل[٦].

شهدت المدينة حركة كثيفة لاستقبال وفود القبائل التي جاءت لتعلن إسلامها وخضوعها لدولة الإسلام، وقد أعطى الرسول ﷺ هذه الوفود أهمية كبرى، ومن أهم مظاهر هذا الاهتمام:

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي/باب غزوة الفتح: حديث ٤٣٠٢ في الفتح الرباني: ٨/ ٢٢.

(٢) سيرة ابن هشام:٤/ ٢٢١، ٢٢٢.

(٣) أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٥٤١.

(٤) كما ذكرهم الشامي في سيرته، انظر: مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٦٣٩.

(٥) للوقوف على تفاصيل أخبار تلك الوفود انظر: سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٢١ وما بعدها. الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ٢٩١ ـ ٢٥٩.

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد: ١/ ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٥.

* أناب عنه أبا بكر رضي الله عنه لقيادة المسلمين لأداء فريضة الحج في هذا العام؛ لانشغاله باستقبال تلك الوفود، التي لم تنقطع طوال العام[1].

* حسن استقباله لتلك الوفود، وإكرامهم، وتأمين مقر سكنهم وضيافتهم، إما في المسجد، أو في بعض منازل أصحابه، وإجزال العطايا تأليفاً لقلوبهم.

* استماعه لخطبائهم وشعرائهم، وتلطفه في الإجابة على أسئلتهم، وحلمه على ما يصدر من بعضهم من غلظة وجفاء في المعاملة، كعادة الأعراب.

وكان الرسول ﷺ يرسل - في الغالب - مع الوفود عند عودتها بعض أصحابه لتعليم أفراد تلك القبائل القرآن الكريم، وتعاليم الدين الإسلامي. كما كان يضع على كل قبيلة وناحية أميراً ينوب عنه في الحكم، وجباية الصدقات.

وبهذا نجد أن الجزيرة العربية- ولأول مرة- تتوحد سياسياً تحت لواء قيادة واحدة، وهذه نتيجة لتوحد قلوبهم على الدين الإسلامي، بعبادة الله وحده ونبذ ما سواه.

حجة الوداع:

في السنة العاشرة من الهجرة عقد ﷺ العزم على أداء فريضة الحج، فأعلن ذلك لأصحابه في المدينة، وللمسلمين عامة، وحرصاً من المسلمين على حضور تلك الفريضة مع رسول الله ﷺ أخذوا يستعدون لمرافقته، وقدمت أعداد كبيرة من المسلمين إلى المدينة لذلك، ومنهم من لحق بالرسول ﷺ في الطريق، ومنهم من وافاه بمكة، وكانوا من الكثرة حتى ما يستطيع الرسول ﷺ تبليغهم كلامه إلا عن طريق مبلغين، يرفعون أصواتهم ليسمعوا الناس كلامه[2]. وقد بلغ عددهم أربعين ألفاً[3].

وتسمى حجة النبي ﷺ هذه بحجة الوداع؛ لأنه ودع أصحابه بقوله: (لعلي لا أحج بعد عامي هذا)[4] كما تسمى حجة البلاغ؛ لأنه ﷺ بلغ فيها أصحابه أحكام الحج، وأوصاهم بوصايا عديدة، وأمرهم أن يبلغوا عنه ما سمعوا.

---

(١) عماد الدين خليل: دراسة في السيرة : ٢٦٤.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤ /٢٧٦.

(٣) قدرهم بذلك أبو زرعة. العمري: السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٥٤٩.

(٤) سنن الترمذي: كتاب الحج / ٥٥. مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٦٢.

مبادئ ووصايا في حجة الوداع:

خطب رسول الله ﷺ خلال حجة الوداع عدة خطب، بعضها في الطريق، وبعضها في المشاعر خلال أدائه مناسك الحج. ومن أهم المبادئ والوصايا التي وردت في تلك الخطب:

[١] بيان مناسك الحج، وهو الركن الخامس من أركان الإسلام الخمسة.

[٢] تأكيد حرمة سفك الدماء، وسلب الأموال، وهتك الأعراض.

[٣] تأكيد الأخوّة الإسلامية، وبيان حقوق المسلم على أخيه المسلم.

[٤] التأكيد على الاعتصام بالكتاب والسنة، وتحريم الكذب عليه ﷺ.

[٥] التحذير من التفرق والنزاع بين المسلمين، وتحذيرهم من اتّباع سبل الشيطان المؤدية إلى ذلك.

[٦] تحريم التعامل بالربا والظلم بين الناس.

[٧] التأكيد على الالتزام بأركان الإسلام وشرائعه.

[٨] وصية الرجال بالإحسان إلى النساء، والرفق بهن، ومراعاة حقوقهن، وبيان حق الزوج على زوجته.

[٩] الأمر بطاعة ولاة الأمر، والسمع لهم في غير معصية الله.

[١٠] الوصية بالأرقاء[١].

وبتمام أعمال حجة الوداع، وما بيّنه الرسول ﷺ فيها من توجيهات ووصايا، يكون الدين الإسلامي قد اكتملت تعاليم شريعته، وأتم الله نعمته على المسلمين بتمامه، فأنزل الله في يوم عرفة آخر آية نزلت في القرآن، يُذَكِّر عباده فيها بهذه النعمة، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[٢].

(١) عن خطب رسول الله ﷺ في الحج انظر: صحيح البخاري: كتاب المغازي : باب حجة الوداع. حديث: ٤٤٠٣، ٤٤٠٦. صحيح مسلم: ٢/ ٨٨٩ ـ ٨٩٠. مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٦٨٣.

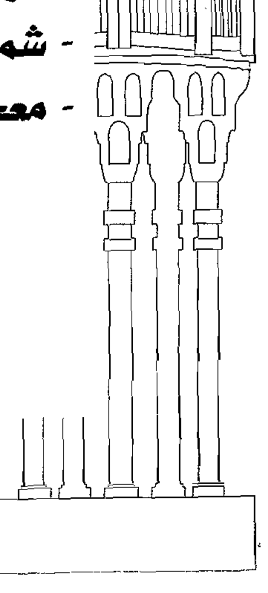
(٢) سورة المائدة، الآية [٣].

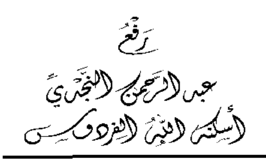


وفـــاة الرسول ﷺ وشمائله ومعجزاته

وفيه:

- مرض الرسول ﷺ ووفاته.
- شمائل الرسول ﷺ.
- معجزات الرسول ﷺ ودلائل نبوته.





مرض الرسول ﷺ ووفاته :

بنهاية حجة الوداع كانت شرائع الإسلام قد كملت، ورسالة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ قد تمت، لذا فإن مهمة الحبيب المصطفى ﷺ كمبلغ عن ربه لعباده قد انتهت بتمام الدين، وبقي تطبيق تلك التعاليم التي بلّغها عن ربه، وهذه يقوم هو بها أو غيره. وحيث إن الرسل عليهم السلام كغيرهم من البشر يموتون: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾(١)، فقد أشعر الله نبيه بقرب أجله وهو في حجة الوداع، وذلك حين أنزل الله سورة النصر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾(٢)، فعلم الرسول ﷺ بقرب أجله، وهذا واضح في خطبه في الحج وبعده.

وبعد عودته ﷺ من الحج بثلاثة أشهر ألَمَّ به المرض حتى اشتد به، فاستأذن نساءه أن يبقى في بيت عائشة رضي الله عنها فأذِنَّ له، وأمر أبا بكر رضي الله عنه ليصلي بالناس. وفي اليوم الأخير أحس بتحسن ونشاط فأطلّ على المسلمين في المسجد وهم يصلون؛ فكادوا يخرجون من صلاتهم فرحاً بذلك، وتأخر أبو بكر ظناً منه أن الرسول ﷺ سيصلي بالناس، ولكنه أشار إليهم أن أتموا صلاتكم، وعاد إلى فراشه(٣).

وبعد مرور عشرة أيام على مرضه ﷺ توفي ورأسه في حِجْر عائشة رضي الله عنها، وذلك في يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشر للهجرة، وعمره ثلاث وستون سنة.

وقع خبر وفاته ﷺ على المسلمين كالصاعقة، إذ لم يهن عليهم فراق الحبيب ﷺ. ومن شدة الهول والصدمةلم يصدق بعضهم بموته، وصار المسلمون في حيرة بين

(١) سورة الأنبياء، الآية [٣٤].

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير/ باب تفسير سورة إذا جاء نصر الله. تفسير ابن كثير: ٨/ ٥٢٩.

(٣) صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب مرض النبي ووفاته: حديث رقم:٤٤٤٨ في فتح الباري.

مصدق ومكذب ومدهوش، وكان أبو بكر رضي الله عنه غائباً في بعض نواحي المدينة، فلما قدم دخل على الرسول ﷺ وهو مغطى فكشف الغطاء وقبَّله وبكى، وقال: (بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها). ثم خرج إلى الناس وهم مابين مصدق ومكذب فقال: (أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت). وتلا قول الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[1]، فكأن الناس ما سمعوا بهذه الآية من قبل، وتلقفها الناس يرددونها[2]. وهذا موقف من مواقف تميّز أبي بكر، وقوة إيمانه رضي الله عنه.

تجهيز الرسول ودفنه:

وفي اليوم التالي لموته - يوم الثلاثاء- غُسّل رسول الله ﷺ وكُفّن في حجرة عائشة رضي الله عنها، ثم دخل عليه الناس أرسالاً أرسالاً، أي مجموعة مجموعة، يدخلون من باب فيصلون عليه ثم يخرجون من الباب الآخر لا يؤمهم أحد. فلما فرغوا من الصلاة عليه اختلفوا في مكان دفنه، فقال أبو بكر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه). وأمرهم أن يدفنوه في موضع فراشه[3]، فدُفن ﷺ في حجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها[4].

---

(١) سورة آل عمران، الآية [١٤٤].

(٢) عن موت الرسول ﷺ وموقف عمر وأبي بكر انظر:صحيح البخاري: كتاب الجنائز/ باب الدخول على الميت.

(٣) سنن الترمذي: ٣/ ٣٣٨. وصححه الألباني. وورد هذا الحديث بصيغة أخرى (ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض) في مسند أبي يعلى: ١/ ٣١. وسنن البيهقي: ٤/ ٣٠.

(٤) عن تجهيز الرسول والصلاة عليه ودفنه انظر: السيرة النبوية لابن هشام: ٤/ ٣٤١. السيرة النبوية لابن كثير: ٤/ ٣٢٩ ـ ٥٣٣.

أثر وفاة الرسول ﷺ:

لقد أحدث موت النبي ﷺ صدمة موجعة لأصحابه، وعلت وجوههم الكآبة، وأطبق الحزن على أهل المدينة خاصة، والمسلمين في أرجاء الجزيرة عامة. لقد كان حزنهم عليه عظيماً، كيف لا وقد كان وجوده بينهم عظيماً، وأثره في حياتهم كبيراً، فأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وجمع به قلوبهم بعد الفرقة والشتات، كما فقدوا بفقده نزول الوحي الذي كان يصلهم بربهم. ففيما بعد زار أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ، فلما انتهيا إليها بكت. فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ. فقالت: (ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء). فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها[1].

لقد أحس المسلمون بموته بالوحشة تملأ نفوسهم، والظلمة تغشى الكون من حولهم. ويا الله ما أبعد البون بين هذا اليوم الذي مات فيه الحبيب ﷺ، وذلك اليوم الذي دخل فيه المدينة مهاجراً. يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا)[2].

أمَّا غير المسلمين من المنافقين، واليهود، والنصارى، والأعراب، فقد فرحوا بموت الرسول ﷺ، فارتد كثير من الأعراب الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، وتطلّع النصارى واليهود لضعف المسلمين وسقوط دولتهم الناشئة، وأصبح المسلمون في خطر من أعدائهم، ولكن الله هيَّأ لهم أبا بكر رضي الله عنه ، فشد من أزر المسلمين، وحارب بهم أعداء الإسلام في كل صوب، حتى أعاد للإسلام هيبته وقوته في أرجاء الجزيرة. فرضي الله عنه وأرضاه.

(١) صحيح مسلم: ٤/ ١٩٠٧ حديث رقم ٢٤٥٤.

(٢) سنن الترمذي: ٥/ ٥٨٨. وقال هذا حديث صحيح غريب. ومسند احمد: ٣/ ٢٢١. وصححه الحاكم في المستدرك: ٣/ ٥٩.

شمائل الرسول ﷺ:

البحث في شمائل المصطفى ﷺ بحر لا ساحل له، فهي شاملة كاملة شمول الإسلام وكماله، فما من خلق حسن جاء في القرآن الكريم أو حث عليه الرسول ﷺ إلا وهو متجسد فيه. تقول زوجه عائشة رضي الله عنها - وهي من أقرب الناس إليه : (كان خلقه القرآن)[1]. وقد أثنى عليه الله في القرآن بعظيم خُلقه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]. وكفى بشهادة الله له شهادة.

من أخلاق النبي ﷺ وشمائله:

من العسير أن نتحدث بإلمام عن أخلاق النبي ﷺ وشمائله في مثل هذا الكتاب، ولكن نذكر طرفاً منها في جوانب ثلاثة: فمنها ما يتعلق بتعامله مع ربه، ومنها ما يتعلق بتعامله مع المؤمنين، ومنها ما يتعلق بتعامله مع أعدائه.

أولاً: تعامله مع ربه:

لما كان ﷺ أعلم الناس بربه تعامل معه بمقتضى هذا العلم، فكان أعبد الناس له، وأتقاهم له، وأقربهم منه، وأكثرهم حباً له، وأشدهم شوقاً لما عنده، وأعظمهم ثقة به. ويظهر كل ذلك جلياً في سلوكه وتعامله مع ربه. ففي عبادته لا يدانيه أحد. سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن تطوع رسول الله ﷺ في الصلاة، فقال: **(إنكم لا تطيقونه)**[3]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم، ويصوم حتى نظن أن لا يفطر، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته، ولا نائماً إلا رأيته[4]. وهو في ذكر دائم لربه في جميع أحواله وبكل جوارحه،

(١) صحيح مسلم: كتاب المسافرين: باب جامع صلاة الليل ومن نام عنها أو مرض. مسند الإمام أحمد: ٦/٢١٦. تفسير ابن كثير: ٨/ ٢١٤.

(٢) سورة القلم، الآية [٤].

(٣) سنن الترمذي: ٢/ ٤٩٣. مسند الإمام أحمد: ١/ ١٦٠. السنن الكبرى للبيهقي: ١/ ١٧٨.

(٤) صحيح البخاري: كتاب التهجد باب قيام الليل رقم ١١. ٢/ ٤٦.

فما من عمل أو حال إلا شرع له ذكراً يُقال فيه، وحث أمته عليه[1]. ففي المجلس الواحد يُعد له مائة استغفار[2]، بل إن قلبه في حال ذكر دائم لله لا ينام. قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أتنام قبل الوتر؟ فقال: (**يا عائشة إنّ عينيّ تنامان ولا ينام قلبي**)[3]. ويتجلى ذكره لله وصلته به كذلك حين يشتد به الأمر، فكثيراً ما يبتهل ويتضرع بالدعاء في معاركه طالباً من الله النصر، ليقينه أنه صانع النصر.

وهو في هذه العبادة المتواصلة لله لا يقوم بها على أنها عمل إلزامي يجب أن يتخفف منه بأسرع وقت، كلا ؛ بل إنه يمارسها وهو يشعر حين أدائها بسعادة غامرة، ولذة ماتعة. فهو القائل: (**وجعلت قرة عيني في الصلاة**)[4]. كما يؤديها طلباً لرضى ربه وعرفاناً بالجميل له. فحين أخبره الله بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر بقوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[5] ما زاده ذلك إلا اجتهاداً ودأباً في العبادة. فكان يصلي في الليل حتى تتفطر قدماه، فقيل له: تفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: (**أفلا أكون عبداً شكوراً**)[6].

ويمكن أن نوجز أبرز مظاهر تعامله ﷺ مع ربه فيما يلي:

* حبه والتفاني في طلب مرضاته.
* إجلاله وتعظيم حرماته.
* الثقة به واليقين بما عنده.

---

(١) انظر زاد المعاد لابن قيم: فصل في هديه ﷺ في الذكر: ٢/ ٣٦٥ ـ ٤٦٧.

(٢) سنن الترمذي: ٥/ ٤٩٤. وقال حسن غريب صحيح، وصححه الألباني.

(٣) صحيح البخاري: كتاب التهجد باب ٦١. ٢/ ٤٨.

(٤) سنن النسائي: النساء/ ١.

(٥) سورة الفتح، الآية [٢].

(٦) صحيح البخاري: كتاب التهجد باب: قيام النبي /٦.

* ثناؤه عليه وشكره على نعمه.
* اللجوء إليه عند الشدائد والمحن.
* خشيته والخوف من عقابه.

وهذه العبادة الدؤوبة، وهذا التعامل المتصل بالله، كان خير معين له على النهوض بأعباء الرسالة وتبعاتها الجسام، وكذا يجب أن يكون أتباعه في صلتهم وتعاملهم بربهم، ليكون ذلك خير معين لهم في قيامهم بواجباتهم في حياتهم، ومحققاً لهم الفوز برضوان الله وجناته في آخرتهم.

ثانياً: تعامله مع المؤمنين:

(أ) تعامله مع أهله وخاصته:

من الممكن أن يتصنع المرء ويتكلف في رسم صورة حسنة لتعامله مع قوم يخالطهم وقتاً دون آخر، وفي بعض أحواله دون سائرها، ولكن من الصعب أن ينجح في ذلك مع من يعيش معهم سائر وقته، وفي جميع أحواله الخاصة والعامة. لذا فإن أخلاق المرء ومعاملته تظهر على حقيقتها في بيته ومع ذويه.

ولقد كان رسول الله ﷺ أسوة حسنة، ومثالاً عالياً في رسم صورة فريدة في تعامل المرء مع أهله وذويه. عاش ﷺ مع إحدى عشرة زوجة، وعدد من الإماء والموالي، وكان له أربع بنات، ولهن عدد من الأولاد. فكيف تعامل مع هؤلاء كزوج كريم، وأب رحيم، وسيِّدٍ رؤوف.

أما تعامله مع زوجاته فقد كان تعامله معهن ﷺ من منطلق قوله: **(خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)**[1]، وقوله: **(خياركم خياركم لنسائهم)**[2]. تعامل ﷺ مع زوجاته- على الرغم من كثرتهن وانتشار الغيرة بينهن- بلطف وحلم وصبر وتقدير واحترام، مما يدل على معرفته بطبيعة المرأة حق المعرفة، فكان يقدر عواطف الغيرة

(١) سنن الترمذي: ٥/ ٧٠٩، ح/ ٣٨٩٥. حديث صحيح صححه الألباني.

(٢) سنن الترمذي: ٣/ ٤٦٦.ح/ ١١٦٢.وقال حديث حسن صحيح. مسند أحمد: ٢/ ٤٧٢. ح/ ١٠١١٠.

الراسخة في تكوين المرأة، فتعامل معها بواقعية. فكان يوماً عند عائشة ﷺ، فأرسلت له زوجته صفية رضي الله عنها قصعة فيها طعام، فغضبت عائشة، فضربت بيدها القصعة حتى سقطت وانكسرت وتناثر الطعام. فقال ﷺ: (غارت أمكم). وقام وضم القصعة المكسورة بعضها إلى بعض، وجمع الطعام وجعله فيها، وقال: (كلوا)، وحبس الخادم. فلما فرغوا من الأكل جاء بقصعة سليمة من عند عائشة، وأعطاها الخادم، وقال:(إناء بإناء)[1].

ولما كان قد تزوج عائشة وهي طفلة في التاسعة من عمرها، كان يراعي هذا السن، فيسمح لها بممارسة اللعب والتسلية مع صديقاتها. فكان إذا دخل خجلن منه ففررن، فيأخذهن ويردهن إليها ليلعبن معها[2]. وإذا دخل ومعها بنات من لعب، استتر بثوبه منها حتى لا تستحي منه وتمتنع عن اللعب[3].

وهذه البساطة واللطافة مع نسائه لم يكن ليخفيها عن أصحابه. ففي سفر مع أصحابه ومعه زوجته صفية كان يضع لها ركبته لتضع رجلها عليها حتى تركب بعيرها[4]. وفي سفر آخر قال لأصحابه: (تقدموا)، ثم تأخر وعائشة وتسابق معها فسبقته، ولما كبرت وثقل وزنها أجرى سباقاً آخر فسبقها، وقال: (هذه بتلك)[5].

وكان ﷺ يستشير زوجاته ويأخذ بمشورتهن، ففي صلح الحديبية وبعد أن أمر أصحابه أن ينحروا الهدي ويحلقوا رؤوسهم، ليتحللوا من الإحرام، فلم يفعل

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المظالم. باب ٣٤. ولم يصرح بذكر أسماء زوجات النبي. سنن الترمذي: ٣/ ٦٤٠. ح/ ١٣٥٩. وفيه تصريح بذكر عائشة وصفية. سنن أبي داود: ٣/ ٢٩٧.ح/ ٣٥٦٧.

(٢) انظر صحيح البخاري: كتاب الأدب باب ٨١. مسند الإمام أحمد: ٦/ ١٦٦.

(٣) الطبقات لابن سعد: ٧/ ٦٥. وقال أكرم العمري بإسناد صحيح: السيرة النبوية الصحيحة: ٢/ ٦٤٩.

(٤) صحيح البخاري:كتاب المغازي: باب غزوة خيبر / ٣٨.

(٥) سنن أبي داود: ٣/ ٢٩ ح/ ٢٥٧٨. السنن الكبرى للبيهقي: ٥/ ٣٠٤.ح/ ٨٩٤٣.

ذلك أحد من الصحابة؛ لأنه شق عليهم أن يعودا دون عمرة، فأمرهم الثانية والثالثة فلم يفعل أحد، فدخل ﷺ على زوجته أم سلمه فذكر لها ذلك، فأشارت عليه أن يخرج ولا يكلم أحدا فينحر ويأمر حالقه ليحلق رأسه،فلما رآه أصحابه نحروا وحلقوا[(١)].

و كان الرسول ﷺ متواضعاً في بيته، يشارك في القيام ببعض مهن أهله[(٢)]، فيخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويخدم نفسه[(٣)].

أما تعامله مع الأولاد والأطفال من حوله؛ فكان لهم أباً رحيماً، ومربياً حكيماً، يسعى لإدخال السرور إلى نفوسهم، ويتبسط معهم بما يناسب عقولهم وأعمارهم. فكان يحملهم ويقبلهم، ويحادثهم. فروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ أخذ بيدَيّ حفيده الحسن أو الحسين، وقدميه على قدمي رسول الله، وأمره أن يرقى عليه حتى وضع قدميه على صدر رسول الله ﷺ، فأمره أن يفتح فاه ثم قبله[(٤)]. وكان يحمل أمامة بنت ابنته زينب رضي الله عنها في الصلاة، فإذا ركع وضعها، وإذا قام رفعها[(٥)]. وصلى بأصحابه مرة فجاء الحسين بن علي رضي الله عنهما فركب على عنقه وهو ساجد، فأطال السجود، فسأله أصحابه عن طول سجوده فقال: **(إن ابني قد ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته)**[(٦)].

(١) انظر القصة في صحيح البخاري: كتاب الشروط/ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب ٤٠.

(٣) فتح الباري: ١٠/ ٤٦١. وذكر حديثاً في هذا وقال أخرجه الإمام أحمد وابن سعد وصححه وابن حبان.

(٤) رواه البخاري في الأدب، والطبراني. انظر: محمد نور سويد:منهج التربية النبوية للطفل: ١٨٢.

(٥) صحيح البخاري:كتاب الأدب: باب رحمة الولد /١٨.

(٦) أحمد: ٦/ ٩١ . وقال العراقي في الإحياء: ٢/ ٢١٨.رواه النسائي ورواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين.

ولم يكن هذا التعامل خاص بأولاده ﷺ وأحفاده، بل كان عاماً لأطفال المسلمين. فكثيراً ما يتوقف للأطفال إذا مر بهم يمازحهم، ويمسح على رؤوسهم ووجوههم، ويلاطفهم، ويسائلهم[1].

أمّا تعامله مع خدمه ومواليه فكان تعاملاً لطيفاً رقيقاً. يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: (خدمته عشر سنين، فما قال لي أفٍّ قط، وما قال لي لشيء صنعته لِمَ صنعتَه ؟ ولا لشيء تركتُه لِمَ تركتَه؟)[2] وكان يأخذ ابن مولاه أسامة بن زيد ويضعه على فخذه والحسن بن علي رضي الله عنهما على فخذه الأخرى، ثم يضمهما ويقول: (**اللهم ارحمهما فإني أرحمهما**)[3]. وحين علم أن أبا ذر رضي الله عنه نال من مولىً عنده وعيّره بأمه قال له ﷺ: (**إنك امرؤ فيك جاهلية**)، وقال: (**هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم. فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلّفه ما يغلبه فليعنه عليه**)[4]. وبلغ من شدة اهتمامه بأمر الأرقاء أن وصّى بحسن معاملتهم وهو على فراش الموت[5].

وفي قصة مولى رسول الله ﷺ زيد بن حارثة خير دليل على حسن تعامله ﷺ مع الخدم. وذلك أن زيداً سُرق من أمه وهو ابن ثمان سنين، من بلاد قبيلة طي في شمال جزيرة العرب، وبيع عبداً، فاشتراه حكيم بن حزام من الشام في تجارة له، وقدم به مكة، وأعطاه عمته خديجة بنت خويلد، فوهبته لزوجها محمد ﷺ، الذي أضفى على زيد من كريم الأخلاق وحسن التعامل ما جعله يحبه حباً أنساه أهله وذويه. لكن والد زيد ظل مهموماً لا يلذ له عيش أو يهنأ بنوم منذ فقد ابنه. ومما قاله مصوراً وله وحزنه عليه:

---

(١) للوقوف على مواقفه ﷺ في هذا الباب انظر : محمد نور سويد:منهج التربية النبوية للطفل: ١٧٩ وما بعدها.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب:حسن الخلق/ ٣٩. ورواه صحيح مسلم والترمذي.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب:٢٢.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب: ٤٤.

(٥) مسند أحمد: ١١٧/٣. سنن أبي داود: ٥/ ٣٥٩: كتاب الأدب ح/ ٣١٥٦. وللوقوف على مزيد من تعامله ﷺ مع الخدم والمماليك انظر: مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٧٢٣، ٧٢٤.

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل
فو الله ما أدري وإني لسائلٌ ... أغالك بعدي السهلُ أم غالك الجبل
تذكرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غربها أفل

إلى أن قال:

سأعمل نص العيس في الأرض جاهداً ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل
حياتي أو تأتي عليَّ منيتي ... فكل امرئ فانٍ وإن غرّه الأمل

وبعد كل هذا الوجد والحزن من حارثة على ولده؛ تأتيه الأخبار بأن ابنه في مكة، فيسارع - وأخوه كعب- إلى مكة، ويذهبان لمحمد ﷺ لفداء الفتى زيد. وبعد توسلهما بأن يقبل محمد ﷺ فداء ابنهم زيد يفاجئهم بعرض لم يدر بخلدهما، حيث يقول: (**أدعوه وأخيّره، فإن اختاركما فذاك، وإن اختارني فو الله ما أنا بالذي أختار على من اختارني أحداً**). فقالا: قد زدت على النصف. فدعاه نبي الهدى ﷺ، فلما جاء قال: (**من هذان؟**) قال: هذا أبي حارثة بن شراحيل، وهذا عمي: كعب بن شراحيل، فقال: (**قد خيرتك؛ إن شئت ذهبت معهما، وإن شئت أقمت معي**). فقال: بل أقيم معك. فقال له أبوه: يا زيد، أتختار العبودية على أبيك وأمك وبلدك وقومك؟! قال: إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً، وما أنا بالذي أفارقه أبداً[(1)].

(ب) تعامله مع عامة أصحابه:

بلغت معاملته ﷺ لأصحابه الغاية في حسن المعاملة، وتنوعت في جوانبها حتى استوعبت جميع الصفات الحسنة، والأخلاق العالية، التي لا يبلغها إلا سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. وفيما يلي أورد جملة يسيرة منها:

*** التواضع ولين الجانب:**

فكانت الأمة من إماء أهل المدينة تأخذ بيده فتنطلق به حيث شاءت[(2)]. وبلغ من تبسطه مع أصحابه ما جعل النساء يجرؤن على سؤاله حقوقهن، ورفع أصواتهن

---

(1)السهيلي: الروض الأنف: ١/ ٢٨٧.

(2)صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب الكبر / ٦١.

عنده، بما لا يجرؤن فيه على غيره. فدخل مرة عمر بن الخطاب ﷺ على النبي ﷺ وعنده عدد من النساء يسألنه، وقد علت أصواتهن، فلما سمعن صوت عمر انقطعت أصواتهن فجأة، فلما دخل عمر ضحك النبي ﷺ، فسأله عمر عن سر ضحكه، فقال: **(عجبتُ من هؤلاء اللاتي كنّ عندي لما سمعن صوتك تبادرن الحجاب)** فقال عمر: (أنت أحق أن يَهَبْن)...[(١)] وفي يوم من أعظم أيام النصر والظهور لرسول الله ﷺ على أعدائه، يوم فتح مكة جاءه رجل فأخذته الرعدة من المهابة فقال له النبي ﷺ: **(هون عليك فإنما أنا بن امرأة من قريش كانت تأكل القديد)**[(٢)].

* زيارتهم في منازلهم ومؤانستهم:

فعن أنس بن مالك ﷺ، أن رسول الله ﷺ زار أهل بيت من الأنصار، فطعم عندهم طعاماً، فلما أراد الخروج أمر بمكان من البيت فنضح له على بساط، فصلى عليه ودعا لهم[(٣)]. وتتكرر زياراته ﷺ لبيوت أصحابه، وليس هذا مجال بسط الحديث فيها.

* قبول هداياهم والاستجابة لدعواتهم:

فكان يقبل هداياهم، و يستجيب لدعواتهم، مهما كانت متواضعة. فقد قال ﷺ: **(لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إليّ ذراع أو كراع لقبلت)**[(٤)].

* عيادة مريضهم ومواساة مصابهم:

كان ﷺ يأمر بعيادة المريض، ويحث أصحابه عليها، وما يسمع بمرض أحد من أصحابه إلا زاره ودعا له[(٥)]. وقد جاء زواجه لعدد من نسائه مواساة لهن، بعد فقد

---

(١)صحيح البخاري: كتاب الأدب باب التبسم / ٦٨.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب المغازي،٣/ ٥٠. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين.

(٣)صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب الزيارة / ٦٥.

(٤) صحيح البخاري:: كتاب الهبة باب القليل من الهبة / ٢.

(٥) صحيح البخاري: كتاب المرضى: الأبواب: ٤، ٥، ١٠، ١٣، ١٥.

أزواجهن، ومراعاة منه لأولادهن، كزواجه بأم سلمة رضي الله عنها حين مات زوجها وخلف معها أربعة من الأولاد[1]. وكذا زواجه من سودة بنت زمعة حين توفي زوجها وخاف عليها من بطش أخوها وقومها الذين هم على الكفر[2].

*** التلطف بالمخطئين منهم وعدم تعنيفهم:**

كان ﷺ حريصاً على مشاعر أصحابه، رفيقاً بمن يخطئ منهم. فإذا بلغه عن أحدهم شيء لم يقل له قلتَ كذا وكذا، ولكن يقول: (**ما بال أقوام يقولون كذا وكذا**)[3]. وحين جاء أعرابي وبال في المسجد جاهلاً ثار عليه الناس ليقعوا فيه، فقال لهم رسول الله ﷺ: (**دعوه، وأهريقوا على بوله ذنوباً من ماء - أو سجلاً من ماء- فإنما بعثتم ميسّرين ولم تبعثوا معسّرين**)[4].

*** سخاؤه لهم وعدم رد حاجة من سأله منهم:**

فقد جاءت امرأة إلى النبي ﷺ وأهدته بردة، فقبلها، وكان محتاجاً إليها. فرآها عليه رجل من الصحابه فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه، فاكسنيها. فقال: (نعم). فلما قام ﷺ عاتبه أصحابه فقالوا: ما أحسنتَ حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إيّاها، وقد عرفتَ أنه لا يُسأل شيئاً فيَمنَعَه. فقال: رجوتُ بركتها حين لبسها النبي ﷺ، لعلي أكفَّن فيها[5].

هذه جملة يسيرة من أخلاقه ﷺ في تعامله مع أصحابه، ولا يتسع المجال مهما امتد لذكر بقيتها، فقد كان يلقاهم بالبشاشة ويتبسم في ووجوههم، ويصبر على غلظة طباع بعضهم، ويوقر كبيرهم، ويرحم صغيرهم، ويساعد محتاجهم ﷺ.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٨/ ٨٧ ـ٨٩. وانظر مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٧٠٢.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٨/ ٥٢ ـ٥٣.

(٣) سنن أبي داود: ٥/ ١٤٣.ح/٤٧٨٨. وانظر : صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب من لم يواجه الناس بالعتاب / ٧٢.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب يسروا ولا تعسروا / ٨٠.

(٥) صحيح البخاري: كتاب الأدب: باب٣٩.

ثالثاً: تعامله مع أعدائه:

لم يكن الرسول ﷺ يضمر عداوة لأحد، ولكن أعداءه يبادلونه العداوة من طرف واحد. فقد جاء لهداية البشر جميعاً، وسعى بكل الطرق والوسائل لإنقاذهم من الظلمات إلى النور، ومن الغواية إلى الهداية، لقد كان يسعد كلما أنقذ نفساً من شقائها إلى سعادتها، ومن ضلالها إلى هداها، وهذا يفسر حلمه ﷺ بقومه على شدة إيذائهم له، وصبره على أذاهم طمعاً في هدايتهم. وفيما يلي جملة من أخلاقه ﷺ في تعامله مع أعدائه.

حرصه على هدايتهم:

كان المصطفى ﷺ شديد الحرص على هداية أعدائه. فكم كان يحزن ويتألم حين يرى إعراضهم عن دعوته، فهو يحرص على هدايتهم أشد من حرصهم على إيذائه. وقد ذكر الله في كتابه تلك الخصلة السامية في تعامله مع أعدائه، في مثل قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾(١) وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾(٢) أي مهلك نفسك بحزنك عليهم لبعدهم عن الإيمان(٣).

دعاؤه لهم بالهداية والبعد عن الغواية:

كثيراً ما كان ﷺ يدعو ربه بأن يهدي المعرضين عن الدين، المعادين له، أفراداً وجماعات. وقد شرح الله صدور كثير من المشركين للإسلام بسبب تلك الدعوات الصادقة، كدعائه لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: (اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب)(٤). وجاء إسلام قبيلة دوس نتيجة لدعائه لهم؛ فحين أسلم الطفيل بن عمرو الدوسي عاد إلى قومه "دوس" يدعوهم إلى الإسلام، فلما امتنعوا رجع إلى النبي ﷺ وطلب منه أن يدعو عليهم، لكنه أبى ودعا لهم بقوله:

(١) سورة الكهف، الآية [٦].
(٢) سورة الشعراء، الآية [٣].
(٣) تفسير ابن كثير: ٥/ ١٣٢. ٦/ ١٤٤.
(٤) مسند أحمد: ١/ ٩٥. سنن الترمذي: ٥/ ١٧٩، مناقب عمر بن الخطاب.

(اللهم اهد دوساً) وقال: (ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم) فعاد فدعاهم فأسلموا[1]. وحين استعصى على المسلمين فتح الطائف ودعا الرسول ﷺ أصحابه إلى فك الحصار عن ثقيف، طلب منه بعض المسلمين أن يدعو عليهم، فلم يدعو علبهم بل دعا لهم بقوله: (اللهم اهد ثقيفاً)[2]، فلم تلبث ثقيف حتى جاءت تعلن إسلامها.

العفو عنهم عند المقدرة وعدم مبادلتهم الإيذاء:

حين اشتد أذى قريش عليه- بعد وفاة عمه وزوجته- خرج إلى الطائف، فلقي من أهلها أشد مما لقي من أهل مكة. وفي طريق عودته من الطائف جاءه جبريل عليه السلام وقال: **(إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم)** فناداه ملك الجبال: **(يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين)**[3]، فقال ﷺ: **(بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً)**[4] وقد سبق ذكر عفوه عن قريش بعد فتح مكة وقوله لهم: (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم)[5]. وعفا عن غورث بن الحارث على الرغم من محاولته قتل الرسول ﷺ، فلما عاد إلى قومه قال: (جئتكم من عند خير الناس)[6].

---

(١) قصة إسلام الطفيل ودعوته قومه في أسد الغابة لابن الأثير: ٤/ ٥٤. عن ابن إسحاق.وفي صحيح البخاري: خبر دعوة الرسول ونص الدعاء ﴿ اللهم اهد دوساً وائت بهم ﴾ المغازي: باب قصة دوس/ ٧٥.

(٢) سنن الترمذي: مناقب ثقيف.وقال صحيح غريب.

(٣) جبلا مكة: أبو قُبيس والذي يقابله.

(٤) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق: باب /٧ ح/ ٣٢٣١ في الفتح ٦/ ٣١٢، ٣١٣. صحيح مسلم: ٣/ ١٤٢٠ح/ ١٧٩٥.

(٥)أبو عبيد:كتاب الأموال: ١/ ٢٠٢. سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٢. وفيها اذهبوا فأنتم الطلقاء. وانظر تخريج طرق ورود هذه القصة عند مهدي رزق الله: السيرة النبوية: ٥٦٩، وقال بعد ذكر الروايات والحديث يتقوى بهذه الطرق.

(٦) صحيح البخاري: المغازي: باب غزوة ذات الرقاع ٣١.صحيح مسلم: الصلاة: باب صلاة الخوف.

احترام عهودهم ومواثيقهم:

لم يشهد التاريخ أن نبي الله محمداً ﷺ أبرم عهداً مع أحد غيره ثم نقضه، حتى مع أعدائه. ويشهد لذلك أعداؤه أنفسهم. فحين قدم اليهودي حيي بن أخطب على كعب بن أسد زعيم يهود بني قريظة يريده على نقض عهده مع النبي ﷺ والانضمام إلى الأحزاب؛ كان مما قاله كعب لحيي أول الأمر: (إني عاهدت محمداً فلستُ بناقضٍ ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً)[1].

حصر القتال معهم في أضيق نطاق:

يختلف قتال الرسول ﷺ لأعدائه عن أي قتال على وجه الأرض؛ فلم يكن يريد بالقتال إبادة خصمه، وإنما اضطر لقتالهم حين سدوا أمامه كل الطرق لقبول دعوته، ولم يخلّوا بينه وبين الناس ليبلغهم رسالة ربه، التي أمر بتبليغها لكافة الناس. لذا كان لابد من قتال هؤلاء حتى لا يفتنوا الناس عن الدخول في دين الله، كما أمره الله بذلك في قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]. ولكن قتاله لهم كان محصوراً في ميدان القتال فحسب، وعلى من عاند وجعل من نفسه محارباً لله ورسوله. فكان إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: **(أغزو باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، أغزو ولا تغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم.... فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم)**[3]. فأين هذه الأخلاق الحربية النبوية من

---

(1) سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٣٦. السيرة النبوية لابن كثير: ٣/ ١٩٨. كلاهما عن ابن إسحاق. البيهقي: دلائل النبوة: ٣/ ٤٠٠.

(2) سورة الأنفال، الآية [٣٩].

(3) صحيح مسلم: ٣/ ١٣٥٧ ح/ ١٧٣١. سنن الترمذي: ٤/ ١٦٢. مسند الإمام أحمد: ٥/ ٣٥٨. والمُثلة قطع أجزاء من جسم الإنسان وهو حي.

ما يفعله أعداء الإسلام في حروبهم الجائرة للمسلمين، فمع أن باعث هذه الحروب التسلط ونهب الثروات، فإنها لا تتحرج أن تقتل الصغير والكبير وتهدم البيوت على أصحابها والمساجد على عمارها.

الرفق بأسراهم:

في عدد من معارك الرسول ﷺ مع أعدائه وقع بعضهم في أسره، فتعامل معهم تعاملا يوضح سمو الإسلام وعظمته، ففي معركة بدر التي كانت أول لقاء حاسم مع مشركي قريش وقع منهم سبعون رجلا في أسر المسلمين، وعلى الرغم مما فعله هؤلاء بالمسلمين فقد تعامل معهم المبعوث رحمة للعالمين ﷺ بالرفق واللين فبعد أن فرقهم على أصحابه قال: (**استوصوا بهم خيرا**)[١] وقد نفذ المسلمون هذه التوصية النبوية بدقة فأحسنوا في تعاملهم للأسرى، فكانوا يؤثرونهم على أنفسهم بأحسن الطعام، ويحملونهم على دوابهم بينما هم يمشون[٢]. ويحكي أحد أسرى بدر عجبه من هذا التعامل فيقول: كنت في الأسارى يوم بدر فقال رسول الله ﷺ: (**استوصوا بالأسارى خيرا**) وكنت في نفر من الأنصار فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم أكلوا التمر وأطعموني الخبز بوصية رسول الله ﷺ إياهم[٣]. وقد كان لهذا التعامل الحسن أثر في نفوس الأسرى لذا فقد أسلم معظمهم، ومن ذلك قصة أسر ثمامة بن أثال وإسلامه[٤]. فأين هذا التعامل النبوي السامي مع الأسرى من تعامل الدول التي

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير: ٢/ ٤٧٥.

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ٩/٦٧.

(٣) الطبراني: المعجم الكبير: ٢٢/ ٣٩٣. بإسناد حسن. مجمع الزوائد: ٦/٨٦.

(٤) ثمامة بن أثال الحنفي زعيم بني حنيفة، وقد أسرته فرقة من المسلمين، فأوثقه الرسول ﷺ في المسجد، وأمر بالإحسان إليه، وكان يمر به ويقول ما عندك يا ثمامة فيقول: (عِنْدِي يا محمد خَيْرٌ إن تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذَا دَمٍ وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ على شَاكِرٍ وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ منه ما شِئْتَ) فلما كان اليوم الثالث وسأله الرسول ﷺ وأجابه بمثل ما سبق في اليوم الأول والثاني، قال ﷺ: (**أطلقوا وثاقه**)، فانطلق ثمامة إلى أقرب بستان فاغتسل وعاد إلى المسجد ليعلن إسلامه. انظر القصة بتمامها في صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب وفد بني حنيفة. وصحيح مسلم: كتاب الجهاد/ باب ربط الأسير.

تدعي التحضر مع أسراها بأبشع صور الذل والوحشية. وما أسرى "قوانتنامو" ومعتقلي سجن "أبو غريب" عنا ببعيد.

أداء حقوق من يعايش منهم:

هناك عدد من غير المسلمين عاشوا مع المسلمين، ممن لهم عهد وذمة، أو من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويخفون الكفر والعداوة للمسلمين، فكان ﷺ يؤدي ما لهؤلاء من حقوق وواجبات، كحق الجوار إن كانوا جيراناً، أو حق القرابة إن كانوا أقرباء. فقد كان بجواره ﷺ يهودي وله غلام يخدم النبي ﷺ، فلما مرض الغلام وفقده ﷺ زاره ودعاه إلى الإسلام فأسلم.[1]

مكافأة أهل المعروف منهم والثناء عليهم:

من سمو خلقه ﷺ اعترافه بفضل من يسدي له معروفا من المشركين، وحرصه على مكافأتهم على معروفهم حين تسنح له الفرصة، فممن قدَّم للرسول ﷺ معروفا المطعم بن عدي حين سعى في نقض صحيفة المقاطعة العامة، وإجارته[2] للرسول ﷺ حين أراد دخول مكة بعد عودته من الطائف. وقد كان ﷺ يقدر هذه المواقف للمطعم بن عدي، فقد كان على استعداد لإطلاق جميع أسرى بدر "السبعين" لو كان المطعم حيا وسأله ذلك[3]. وفي معركة بدر كان المصطفى ﷺ يقول لأصحابه: (**ومن لقي منكم أبا البختري بن هشام بن أسد فلا يقتله**)[4] وكان أبو البختري ممن كف أذاه عن الرسول ﷺ، وممن سعى في نقض صحيفة المقاطعة.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائز: باب إذا أسلم الصبي / ٧٩.ح/ ١٣٥٦. سنن أبي داود: ٣/ ١٨٥. مسند أحمد: ٣/ ١٧٥.

(٢) أي قام بحمايته من أي اعتداء.

(٣)انظر صحيح البخاري: كتاب المغازي/ باب شهود الملائكة بدرا.

(٤) الفسوي: المعرفة والتاريخ: تحقيق منصور خليل.بيروت.دار الكتب العلمية. ١٤١٩هـ: ١/ ٢٧٩. سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٦٩.

بل كان ﷺ يثني خيرا على زوج ابنته زينب المشرك الربيع بن العاص، لحسن خلقه ورفضه طلب قريش أن يطلق زوجته زينب نكاية منهم في الرسول ﷺ[1].

وتلك الأخلاق والشمائل غيض من فيض، وقطرة من بحر، من شمائل المصطفى ﷺ، التي لا يمكن حصرها، ولكن نُذكِّر بأن هناك من الأخلاق الذاتية المتعلقة بحياته الخاصة، كزهده في الحياة، والبعد عن مظاهر النعيم، ونظافته، وحبه للجميل من اللباس والطيب، وطريقته في الأكل، واللباس، والنوم، والمشي، وشجاعته، وغيرها من الشمائل والأخلاق، التي لا يمكن استيفاؤها في مثل هذا المقام، وهي مبسوطة في كتب الشمائل والسنن.

(١) المصدر السابق: ٣/ ٢٩٦. الطبراني: المعجم الكبير: ٢/ ٤٢٨. وكان ذلك قبل الأمر بتحريم زواج المسلمة من المشرك.

معجزات الرسول ﷺ ودلائل نبوته:

المعجزة هي: الأمر الخارق للعادة والمخالف للمألوف في سنن الكون.[1] وما أرسل الله نبياً إلا وجعل له معجزة، أو عدداً من المعجزات، تدل على أنه نبي مرسل من الله تعالى إلى خلقه. وفي هذا المبحث نذكر أهم معجزات نبي الرحمة محمد ﷺ ودلائل نبوته.

المعجزة الخالدة «القرآن الكريم»:

تعريف القرآن بإيجاز هو: كلام الله المنزل على النبي محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته[2]. وهو المعجزة الكبرى لمحمد ﷺ، وجاءت هذه المعجزة موازية لعظم رسالته وشمولها لجميع الجن والإنس، وصلاحها لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة، فلما كانت طبيعة رسالة الأنبياء من قبل محدودة بأقوام معينين، أو بزمان ومكان محددين كانت معجزاتهم محدودة تبعاً لذلك. وجاءت معجزة المصطفى ﷺ في القرآن لتبقى خالدة، يلمسها ويحس بها كل إنسان إلى يوم القيامة. ومما يؤكد ذلك قوله ﷺ: **(ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات[3] ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُتيتُ وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)**[4]. وكثرة أتباعه تأتي من استمرار معجزته تلك، فيكثر من يؤمن به[5]. ويأتي إعجاز القرآن الكريم من وجوه عدة أهمها:

[1] الإعجاز اللغوي: ويظهر في فصاحة القرآن وبلاغته، وجمال تركيبه وأساليبه. ويأتي وجه الإعجاز هنا حيث إنه نزل في مجتمع العرب؛ وهم أرباب الفصاحة،

---

(١) عدنان محمد زرزور: علوم القرآن:٢١٨.

(٢) المصدر السابق: ٤٦.

(٣) أي العلامات والدلائل.

(٤) صحيح البخاري: ٦/ ٩٦. كتاب فضائل القرآن: باب كيفية نزول الوحي. صحيح مسلم: كتاب الإيمان: باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ.

(٥) قد بسط ابن كثير رحمه الله القول حول هذا الحديث في البداية والنهاية: ٦/ ٦٩.

المفتونون بأساليب الكلام وأسرار البلاغة، وبلغوا في ذلك شأناً لم يبلغه غيرهم. ومع هذا تحداهم الله بأن يأتوا بمثل القرآن، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور، بل تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، فعجزوا عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾(١). وتحدي العرب بالقرآن هنا فيه وجه شبه بمعجزات الأنبياء السابقين، حيث جاءت معجزاتهم تتناسب مع واقع أقوامهم. (فكانت عصى موسى عليه السلام في قوم قد برعوا في السحر، وجاء إحياء عيسى عليه السلام للموتى وإبراء الأكمه والأبرص، في قوم برعوا في الطب)(٢).

[٢] وهو معجز من حيث إنه اشتمل على كم هائل من الأحكام، والأوامر والنواهي، والآداب، والأخبار، ومع ذلك جاء متناسقاً لا اختلاف فيه ولا تعارض: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾(٣).

[٣] تأثيره النافذ إلى أعماق القلوب: فكم تأثر به من سمعه، حتى ولو لم يكن ممن يؤمن به. وكم أناس دخلوا في الإسلام لمجرد سماعهم لتلاوة آيات منه. وقد كان المشركون في عهد النبي ﷺ يدركون هذا الأثر، لذا كانوا يحاولون منع الناس من سماعه، والتشويش على من يريد سماعه، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾(٤) وكانوا إذا قدم مكة أحد خوفوه من محمد ﷺ فقالوا: إنه ساحر يفرق بين الرجل وأبيه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجه. وقالوا له: فلا تكلمه ولا تسمع منه(٥). ومع ذلك فلا يملكون قلوبهم من أن

(١) سورة البقرة، الآية [٢٣- ٢٤].
(٢)عدنان محمد زرزور: علوم القرآن : ٢١٩.
(٣) سورة النساء، الآية [٨٢].
(٤) سورة فصلت، الآية [٢٦].
(٥) ابن الأثير: أسد الغابة:٣/ ٥٤.

تتأثر بسماع القرآن حين تتاح لأحدهم الفرصة. فبعد معركة بدر قدم جبير بن المطعم المدينة - قبل أن يسلم - في شأن أسرى بدر. ويقول عن نفسه: فدخلت المسجد ورسول الله ﷺ يصلي المغرب، فقرأ بالطور، فكأنما صدع قلبي حين سمعت القرآن(١). وكثير ممن أسلم في الماضي والحاضر كان السبب الرئيس لإسلامهم استماعهم آيات من القرآن الكريم، جذبتهم للدين الإسلامي جذباً. والعجيب أن نفاذ أثر القرآن في القلوب يتعدى حتى إلى من لا يعرفون اللغة العربية.

[٤] **إخباره عن الماضين:** فقد جاء فيه ذكر الأمم الماضية، وأخبارهم مع رسلهم، وما حدث لهم. مع أن محمداً أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يكن صاحب أسفار يطلع من خلالها على بعض تلك الأخبار. ففي مجمل ذكر قصة مريم وابنها عيسى عليه السلام قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾(٢) ولولا ذكر القرآن لكثير من تلك الأخبار الماضية لم يعلم بها أحد. وجاء ذكر بعضها في الكتب السابقة فصدّقها القرآن: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

[٥] **إخباره عن أحداث في المستقبل:** ومن وجوه إعجاز القرآن الكريم إخباره عن أمور في المستقبل، وقعت كما أخبر، وهي كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ

(١) مسند الإمام أحمد: ٤/ ٨٣. وفي صحيح البخاري قال: (كاد قلبي يطير) كتاب التفسير: باب تفسير سورة الطور.

(٢) سورة آل عمران، الآية [٤٤].

(٣) سورة يوسف، الآية [١١١].

ﭐلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1] فقد نزلت هذه الآيات والفرس قاهرين للروم، وكان هذا يسر كفار قريش لأنهم وثنيون مثل الفرس، والمسلمون يرجون انتصار الروم لأنهم أهل كتاب. فلم تمض سبع سنوات حتى انتصر الروم على الفرس وهزموهم، ففرح المسلمون لذلك، وأسلم أناس بسبب ذلك[2].

[٦] اشتماله على أسرار علمية وسنن كونية لم تعرف إلا بعد نزوله بزمن طويل:

وقد بين الله ذلك في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[3] وهذا بابه واسع، فلا يزال التطور العلمي يكشف لنا عن أسرار ذلك الإعجاز العلمي للقرآن، في مجال النفس البشرية، أو مجال هذا الكون الفسيح وما يجري فيه، وفي أعماق البحار أو طبقات الفضاء، أو فوق سطح الأرض أو في باطنها. ومن تلك الآيات الكثيرة قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[4]، فلم يُعلم بأن الإنسان كلما صعد إلى أعلى كلما ضاق به التنفس لنقص الأكسجين إلا في العصر الحديث. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[5] ففي الآية حقيقة علمية لم تكتشف إلا في العصر الحديث. فقد كشف علم التشريح المجهري أن الجلد عضو غنيٌّ بالنهايات العصبية، وهذا يجعله أشد أجزاء الجسم

(١) سورة الروم، الآية [١-٥].

(٢) تفسير ابن كثير.

(٣) سورة فصلت، الآية [٥٣].

(٤) سورة الأنعام، الآية [١٢٥].

(٥) سورة النساء، الآية [٥٦].

إحساساً بالألم. لذا فحين تحترق أنسجة جلود المستحقين لعذاب النار في الآخرة يبدل الله جلودهم بجلود جديدة حتى يستمر شعورهم بالألم(١).

[٧] حفظ الله له على مر العصور: فالقرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي تكفّل الله بحفظه من التحريف، أو الزيادة والنقص، وسيبقى ذلك إلى قيام الساعة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾(٢). ولقد فشلت كل محاولات التحريف للقرآن الكريم في الماضي والحاضر، ليبقى الكتاب السماوي الوحيد الذي لم تطاله يد التحريف.

معجزات أخرى:

كان للنبي ﷺ - بالإضافة إلى معجزة القرآن الخالدة- عدد كبير من المعجزات الحسية كغيره من الأنبياء، ونذكر جملة يسيرة منها بإيجاز:

الإسراء والمعراج:

جاءت حادثة الإسراء والمعراج للنبي ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب وزوجته خديجة رضي الله عنها، وما ترتب على ذلك من اشتداد أذى المشركين عليه، فجاءت تثبيتاً وتسلية له في تلك الظروف. ومجمل هذه المعجزة أن الله أسرى بنبيه من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى في فلسطين، على دابة أعدها الله لذلك تسمى: "البُرَاق". ومن المسجد الأقصى عُرج به إلى السماوات السبع، ولقي فيها عدداً من الأنبياء عليهم السلام، ورأى سدرة المنتهى، ورأى في الجنة صوراً من النعيم التي أعدها الله لأهلها، كما نظر في النار فرأى صوراً من أحوال المعذبين فيها. وهناك فُرضت عليه الصلوات الخمس، ثم نزل إلى بيت المقدس، وصلى فيه بالنبيين وعاد إلى مكة، كل ذلك في ليلة واحدة. وحين أصبح تحدث عن رحلته تلك فدهش من سمعه من قريش، وزادهم ذلك سخرية به، على الرغم من أنهم طلبوا منه دليلاً حسياً على

(١) لمزيد من الاطلاع على موضوع الإعجاز العلمي والكوني في القرآن انظر: المعجزات القرآنية: تأليف هارون يحيى. مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر.

(٢) سورة الحِجر، الآية [٩].

ذلك فوصف لهم المسجد الأقصى، وهم يعلمون أنه لم يره، وصدّقه من رآه منهم على وصفه. كما أخبرهم ببعض ما شاهده في طريقه، ومن ذلك قافلة تجارية قادمة من الشام، أخبرهم بأنه لقيهم في طريقه، وذكر بعض ما حدث للقافلة لحظات مروره عليهم، فلما قدمت القافلة وسألوهم صدقوه، ولكن مع هذا كذّبه الكفار[1].

انشقاق القمر:

كان كفار قريش يطلبون من النبي ﷺ المعجزات دليلاً على صدقه، ولكن الله يرد عليهم بأن مثل هذه المعجزات لن تزيدهم إلا عناداً، كما حدث مع أتباع الأنبياء السابقين، ولكن حين ألحوا على الرسول ﷺ بأن يريهم آية قال لهم: **(انظروا إلى القمر)**، فإذا هو منشق فرقتين يفصل بينهما جبل حراء[2]. ولكن كما أخبر الله لم يزدهم ذلك إلا عناداً، لأن سؤالهم كان من أجل التعجيز لا من أجل الوقوف على الحقيقة.

إخبار الرسول ﷺ بأمور مستقبلية:

أخبر الرسول ﷺ بعدد من الأمور في المستقبل وحدثت كما أخبر بها، وهي كثيرة[3]، نذكر منها:

[١] إخباره بما سيحدث من الفتوحات على أيدي المسلمين من بعده، مثل فتح بلاد فارس والشام ومصر وغيرها، ومنها قوله: **(يهلك كسرى فلا يكون كسرى بعده، وقيصر ليهلكن ثم لا يكون قيصر بعده، ولَتُقسَمنّ كنوزهما في سبيل الله)**[4]. وكل ذلك حدث.

---

(١) عن قصة الإسراء والمعراج انظر: صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ حديث: ٤٧٠٩، ٤٧١٠. وكتاب الصلاة: باب كيف فرضت الصلاة. حديث: ٣٤٩. وصحيح مسلم: ١/ ١٤٩,١٥٦. خير الدين وائلي: الصحيح من معجزات المصطفى ﷺ: ٢٣.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء:باب سؤال المشركين أن يريهم النبي آية: ٤/١٨٦. وصحيح مسلم:كتاب المنافقين: باب انشقاق القمر. حديث: ٢٨٠٢.

(٣) ذكر صاحب كتاب: الصحيح من معجزات المصطفى ﷺ: ١٢٦ معجزة من هذا النوع.

(٤) البخاري: المناقب:باب علامات النبوة. صحيح مسلم:كتاب الفتن:باب لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت. ح/ ٢٩١٨.

[٢] قوله ﷺ لحفيده الحسن بن علي رضي الله عنهما: **(إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين)**[١]. وقد حدث هذا فعلاً عام الجماعة سنة ٤١ هـ حين تنازل الحسن رضي الله عنه لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، منهياً نزاعاً استمر بين المسلمين أكثر من خمس سنوات.

[٣] هناك أمور أخبر بوقوعها ﷺ ولم تقع بعد ولكنها ستقع حتماً، ومنها قوله ﷺ: **(لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي تعال فاقتله. إلا شجر الغرقد فإنه من شجر اليهود)**[٢]. وقوله ﷺ: **(لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً)**[٣].

تكثير الطعام والشراب:

حدث تكثير الرسول ﷺ للطعام والشراب مرات كثيرة، حيث يدعوه أحد أصحابه إلى طعام لا يكفي لعشرة أشخاص، فيأتي الرسول ﷺ ويغمس يده، أو يضع شيئاً من ريقه فيه، ثم يدعو بالبركة، فيأكل منه جيش بأكمله، والطعام على حاله لم ينقص. حدث هذا في غزوة الخندق حين دعاه جابر بن عبدالله رضي الله عنه على طعام له[٤]. وحدث ذلك حين دعاه أبو طلحة رضي الله عنه على طعام له كذلك[٥].

وكذلك حدث كثيراً تكثيره للماء في غزواته وأسفاره مع أصحابه، حين يدركهم العطش ولا ماء عندهم، فيؤتى بالماء القليل في الإناء، ويدعو ويتوضأ منه، ثم يتوضأ منه أصحابه ويشربون، ويبقى منه بقية[٦].

---

(١) البخاري: ك/ فضائل الصحابة: مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما. سنن الترمذي: مناقب: مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما.

(٢) البخاري: ك/ الجهاد: باب قتال اليهود. صحيح مسلم: ك/ الفتن:باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت.

(٣) صحيح مسلم: ١٥٧ (١/ ٥٦). الحاكم (٤/ ٥٢٤).

(٤) البخاري: المغازي: باب غزوة الخندق. مسلم: الأشربة: باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق به.

(٥) البخاري: أطعمة: باب من أدخل الضيفان عشرة عشرة. مسلم: المصدر السابق.

(٦) البخاري: ك/ الأنبياء: باب علامات النبوة. مسلم::/ المساجد: باب قضاء الصلاة الفائتة. سنن أبي داود: ك/ الصلاة: باب من نام عن صلاة.

تكليم الجمادات له:

ومن معجزاته ﷺ تكليم بعض الأشجار والأحجار وغيرها لـه، وجـاء ذلـك في مواقف كثيرة منها قوله ﷺ: (**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليَّ قبل أن أبعـث، إني لأعرفه الآن**)[1]. وجاء أعرابي إلى الرسول ﷺ فقال له الرسـول: (**أتـشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ؟**). قال الأعرابي: ومن يشهد على ما تقول؟ قال: (هذه السَّلَمة) - وهي نوع مـن الـشجر- فـدعاها الرسـول ﷺ فأقبلت حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ثلاثاً فشهدت، ثم رجعت إلى منبتها[2].

(١) صحيح مسلم: ك/ الفضائل: باب فضل نسب النبي وتسليم الحجر عليه. سنن الترمذي: ك/ مناقب/ ٩. ٤/ ١٧٨٢.

(٢) صحيح ابن حبان١٤/ ٤٣٤. مسند أبي يعلى:١٠/ ٤٣.

الخاتمـــــة

الختام

وبعد هذه الجولة المباركة في رحاب السيرة النبوية العطرة، على المسلم أن يسائل نفسه: ماذا استفاد من قراءة سيرة المصطفى ﷺ؟ وما الآثار التي ينبغي أن تتركها مثل تلك القراءة في نفسه وعلى أعماله ؟. وهنا أحب أن أوجز بعضاً مما ينبغي أن تتركه هذه الجولة من آثار:

أولاً: بعد أن عرف المسلم تلك المكانة الرفيعة التي شرف الله بها نبيه، واختصه بها من بين خلقه، حيث جعله سيد المرسلين، وخاتم النبيين، فعلى المسلم أن يجعل للنبي ﷺ في نفسه مكانة عالية لا يدانيها أحد من الناس. وهذا واجب، ولا يتم إيمان المسلم إلا به، كما قال ﷺ: **(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)**(1). ومن مظاهر محبته ﷺ:

* **الإكثار من ذكره، والمداومة على الصلاة والسلام عليه.** فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره.

* **اتباع سنته والسير على منهجه ﷺ**، وتقديم ذلك على شهوات النفس ورغباتها، وعدم تقديم قول سواه من البشر، مهما اعتقدنا في صلاحه، على قوله ﷺ، بل نجعل قوله وسنته هي الحكم الفصل فيما ندع ونذر، وذلك عملاً بقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(2) وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(3).

* **عدم الغلو فيه ورفعه إلى مكانة أعلى من المكانة الواجبة له.** فلا يمدح ولا يوصف بما ليس له من الصفات، التي لا تليق إلا لله. كمن يدعي بأنه يعلم الغيب من

(1) صحيح البخاري:: ك/ الإيمان:باب حب الرسول ﷺ.

(2) سورة الحشر، الآية [7].

(3) آل عمران، الآية [31].

غير أن يخبره الله، أو بيده النفع والضر، أو يسأله ما ليس له، كمن يسأله بعد موته تفريج الكربات، أو جلب المنافع. لأن في ذلك مخالفة لأمره ﷺ، وتَعَدٍّ على حقوق الله وصفاته، فقد صح عنه ﷺ قوله: **(لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله، فقولوا عبد الله ورسوله)**[1]. وعن عبدالله بن الشخير عن أبيه قال: قدمت على رسول الله ﷺ في رهط من بني عامر، فسلمت عليه فقلت: أنت والدنا، وأنت سيدنا، وأنت أفضلنا علينا فضلاً، وأطولنا علينا طولاً، وأنت الجفنة الغراء. قال ﷺ: **(قولوا بقولكم لا يستهوينكم الشيطان)**[2]. وفي رواية أنه قال: **(أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ)**[3]. وقال الله فيه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4] وأخبر سبحانه وتعالى أن كشف الضر خاص به تعالى، ليس ذلك لنبي أو غيره، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[5].

ثانياً: اطلعنا من خلال سيرة المصطفى ﷺ على جملة من شمائل الرسول ﷺ وأخلاقه، فمن الواجب على المسلم أن يتأسى به في أخلاقه وتعامله مع الله ومع الناس، وفي جميع أحواله.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء/ ٤٨.

(٢) أبوداود:كتاب الأدب/ ٩. باب كراهية التمادح.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل: حديث: ١٣٠٤١. محمد ناصر الدين الألباني:السلسلة الصحيحة: حديث: ١٠٩٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية [١٨٨].

(٥) سورة الأنعام، الآية [١٧٠].

ثالثاً: أدركنا من خلال السيرة النبوية ما للصحابة الكرام من منزلة عظيمة عند الله وعند رسوله ﷺ، وما لهم من أثر عظيم في نصرة دين الله، وما لهم علينا وعلى البشرية من فضل في نشر الإسلام وتبليغهم دعوة الله، فوجب علينا لهذا محبتهم جميعاً، وتقديرهم، والترضي عليهم كما رضي الله عنهم بقوله: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]. كما يجب أن نتأدب معهم بعدم النيل من أحدهم، أو تنقيص قدره، ومن نال من أحدهم أو تنقصه فقد عصى الله وخالف أمر رسول ﷺ حيث قال: (**لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد**[2] **ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه**)[3]. بل يجب على المسلم الذب عن أعراضهم إن نال أحد من أهل الكفر أو النفاق منها، فرضي الله عن صحابة رسوله الكريم ﷺ وأرضاهم.

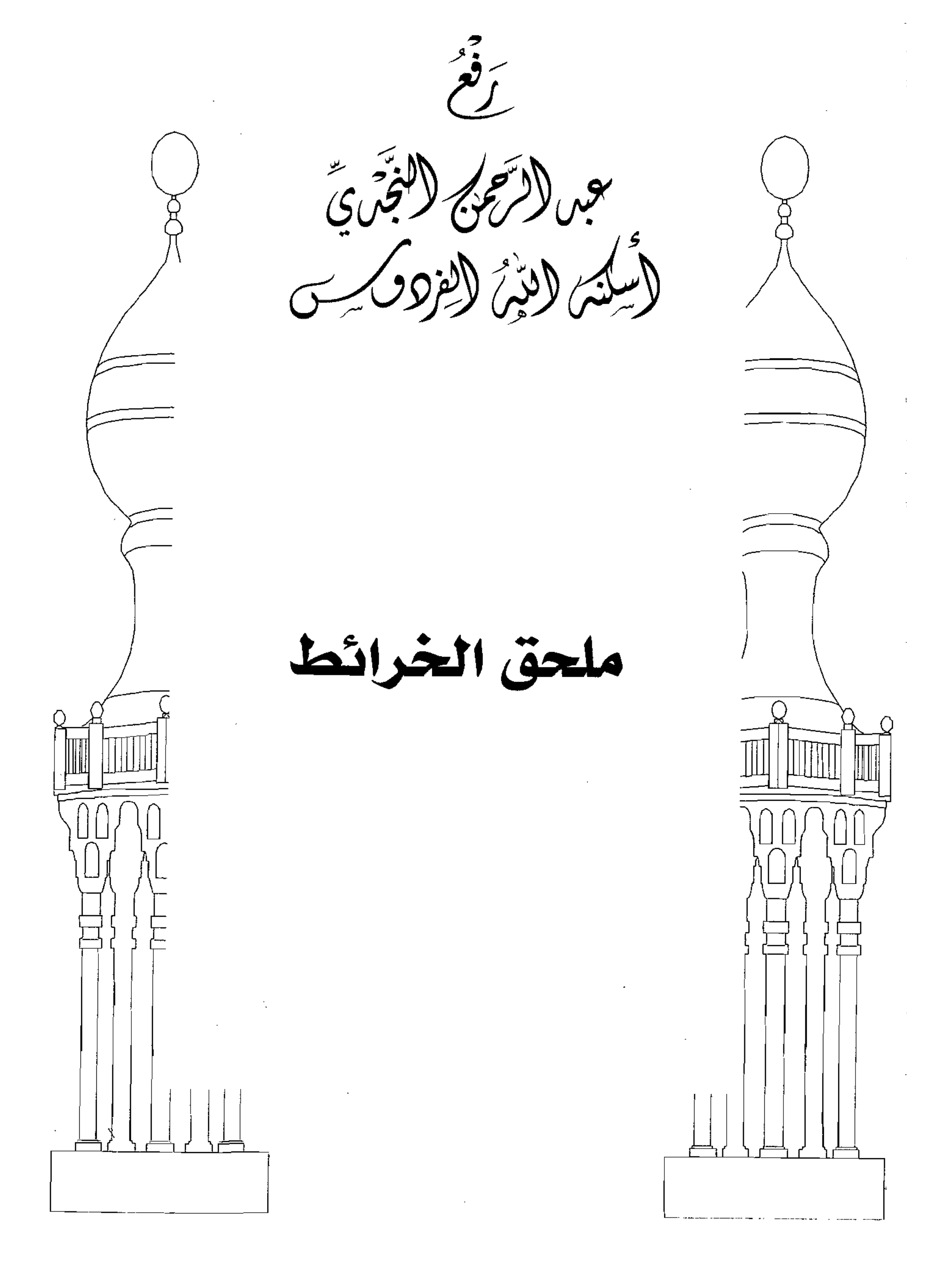
رابعاً: من دراسة السيرة يدرك المسلم أن هذا الدين لم ينتشر إلا بجهود بشرية كبيرة، وتضحيات جسيمة، وهذه سنة الله في هذا الأمر، وإلا فهو سبحانه قادر على إعلاء كلمته وإظهار دينه وإذلال الكفر وأهله بقول كن فيكون، ولكن أراد الله بذلك ابتلاء خلقه فيرفع بذلك المؤمنين درجات ويقيم الحجة على الكافرين والمتخاذلين. فعلى المسلم أن يجعل من نفسه جندياً لنصرة دين الله، ويبذل في ذلك ما يستطيع، ولا يكون من الذين يخذلون عن دين الله، أو يحارب أولياءه.

وفي الختام نسأل الله التوفيق والسداد، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على نبينا محمد.

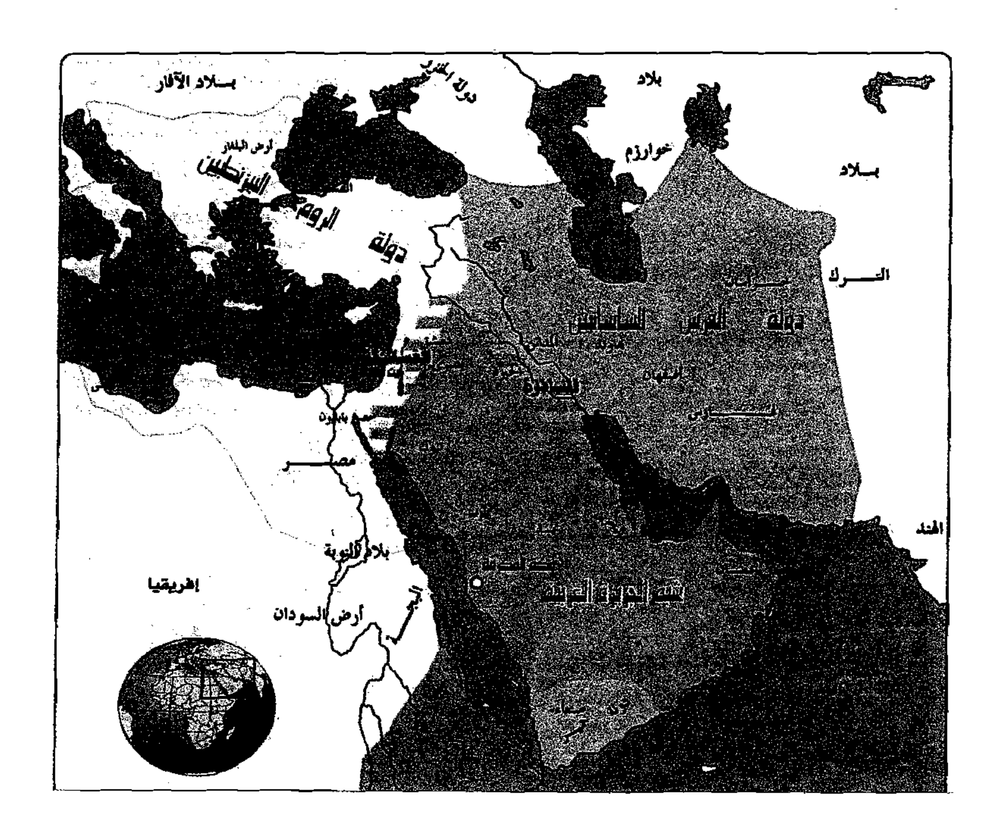
(١) سورة التوبة، الآية [١٠٠].

(٢) أحد الجبل المشهور الذي وقعت عنده غزوة أحد.

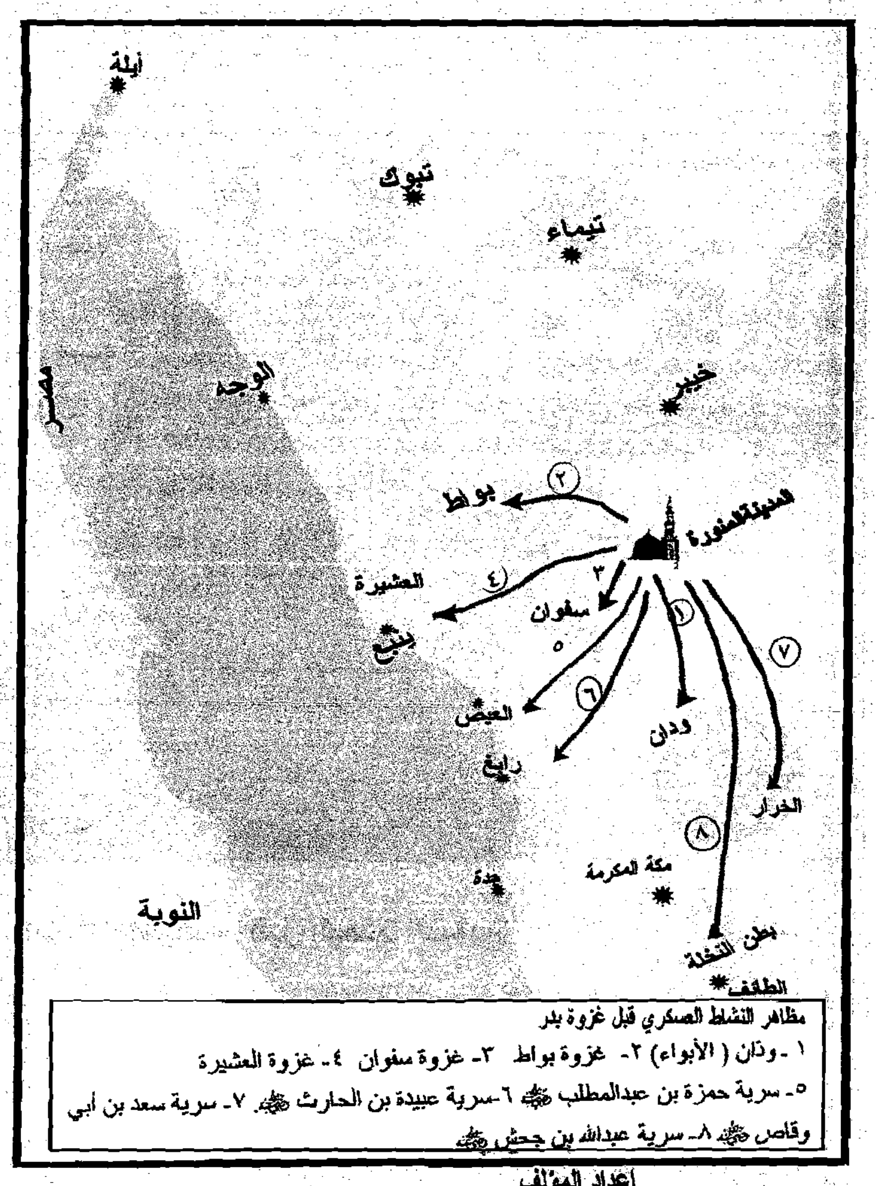
(٣) أبو داود: كتاب السنة:باب النهي عن سب الصحابة/ ١٠.



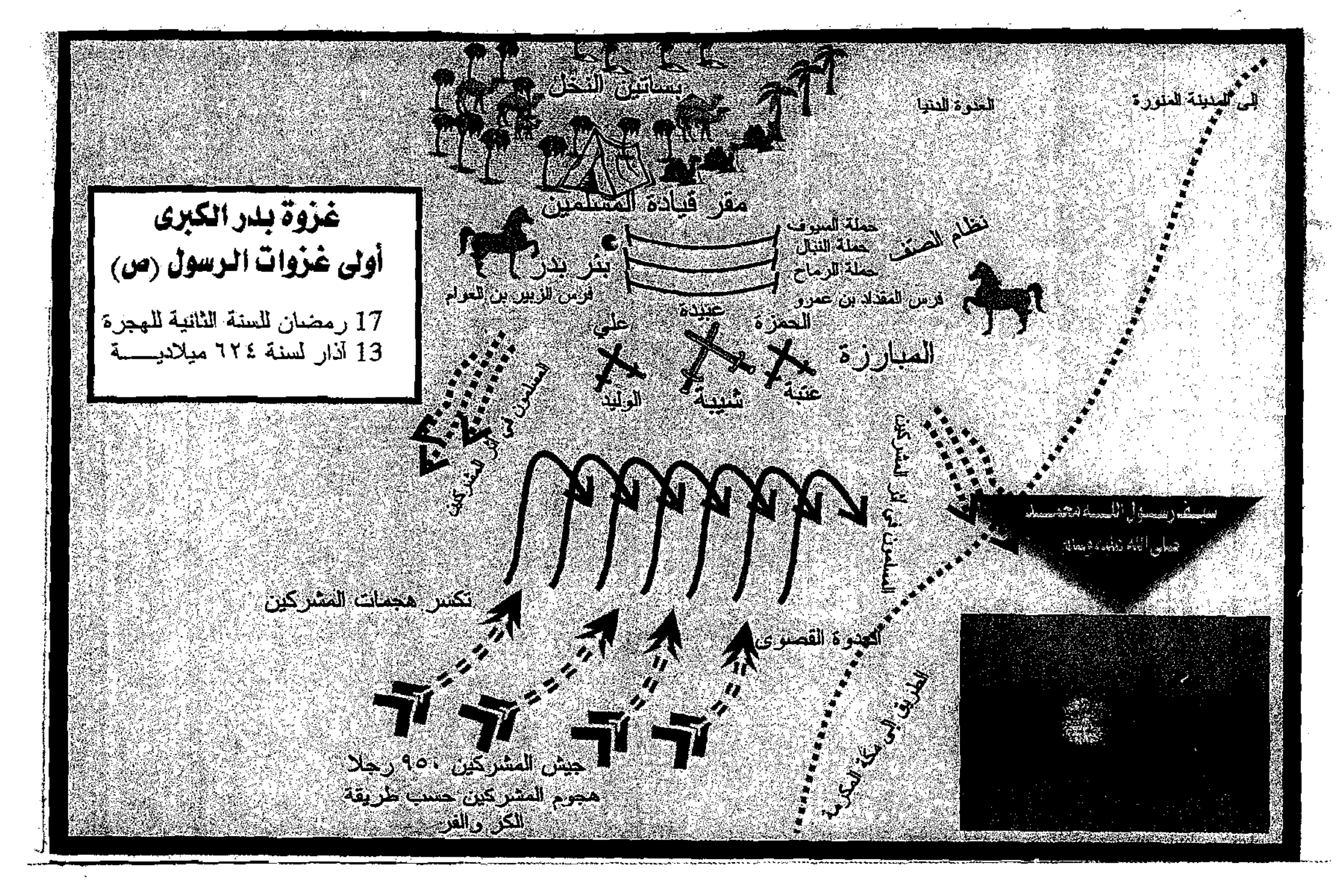
ملحق الخرائط



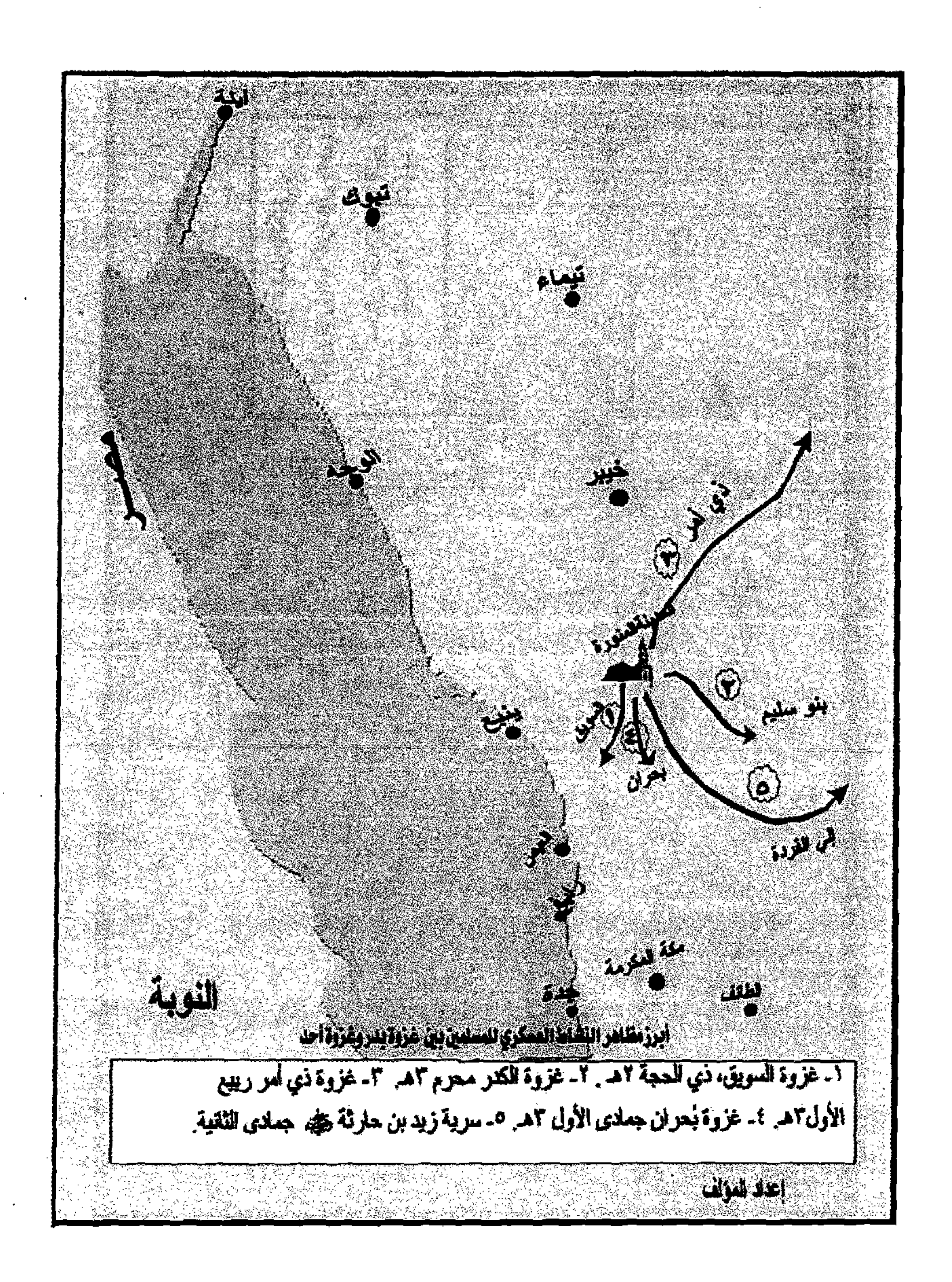
الحالة السياسية قبل البعثة النبوية



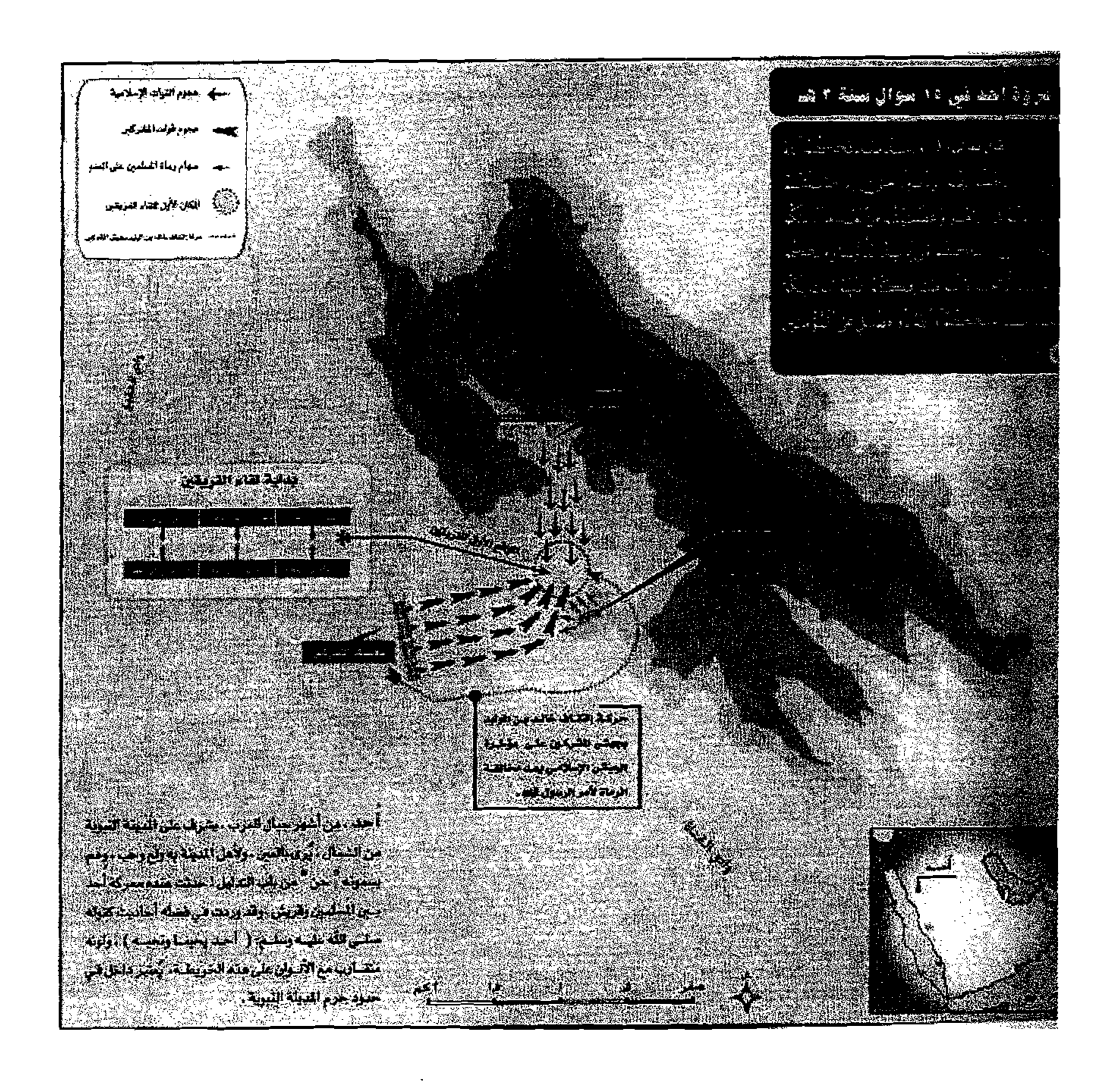
إعداد المؤلف

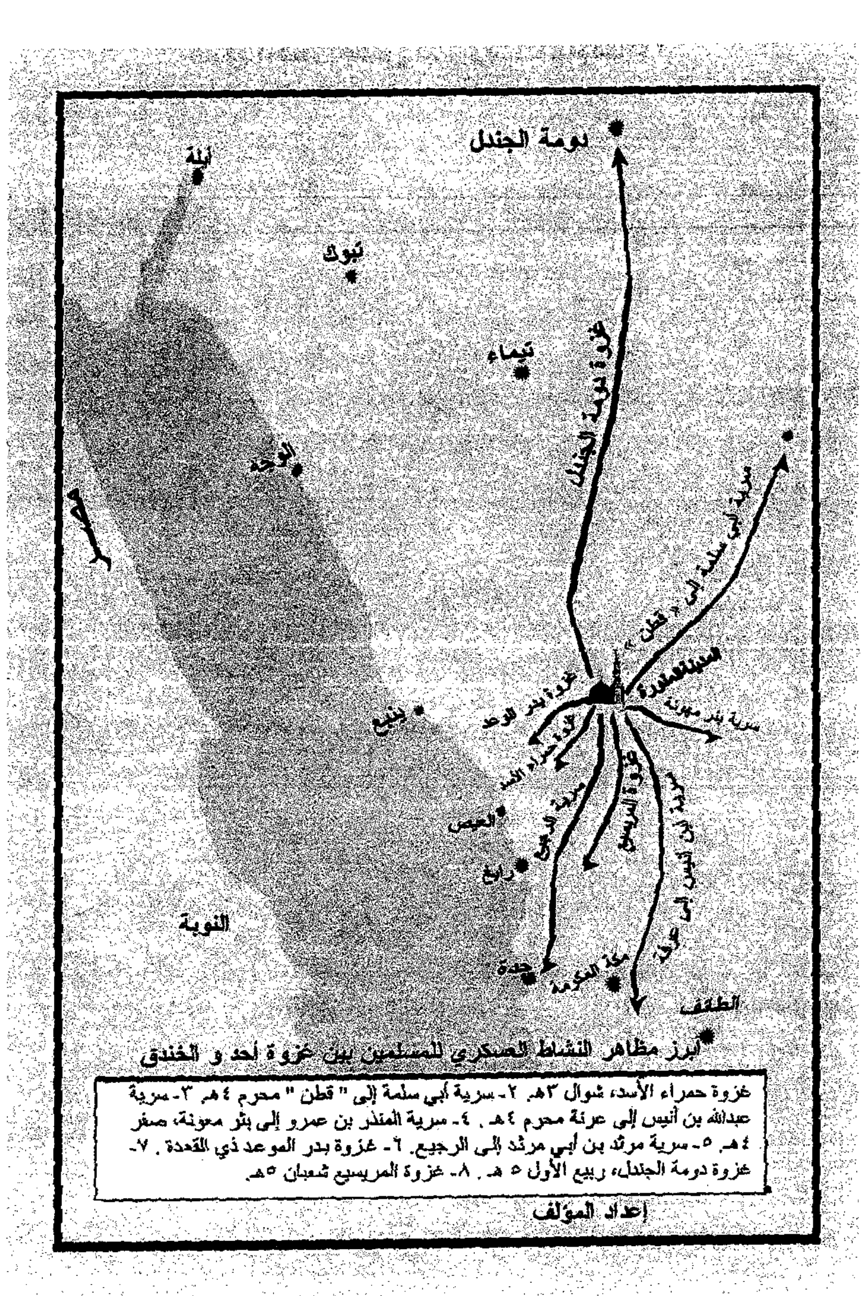


(أطلس تاريخ العالم القديم والمعاصر. هاني أبو غضيب٢٩)

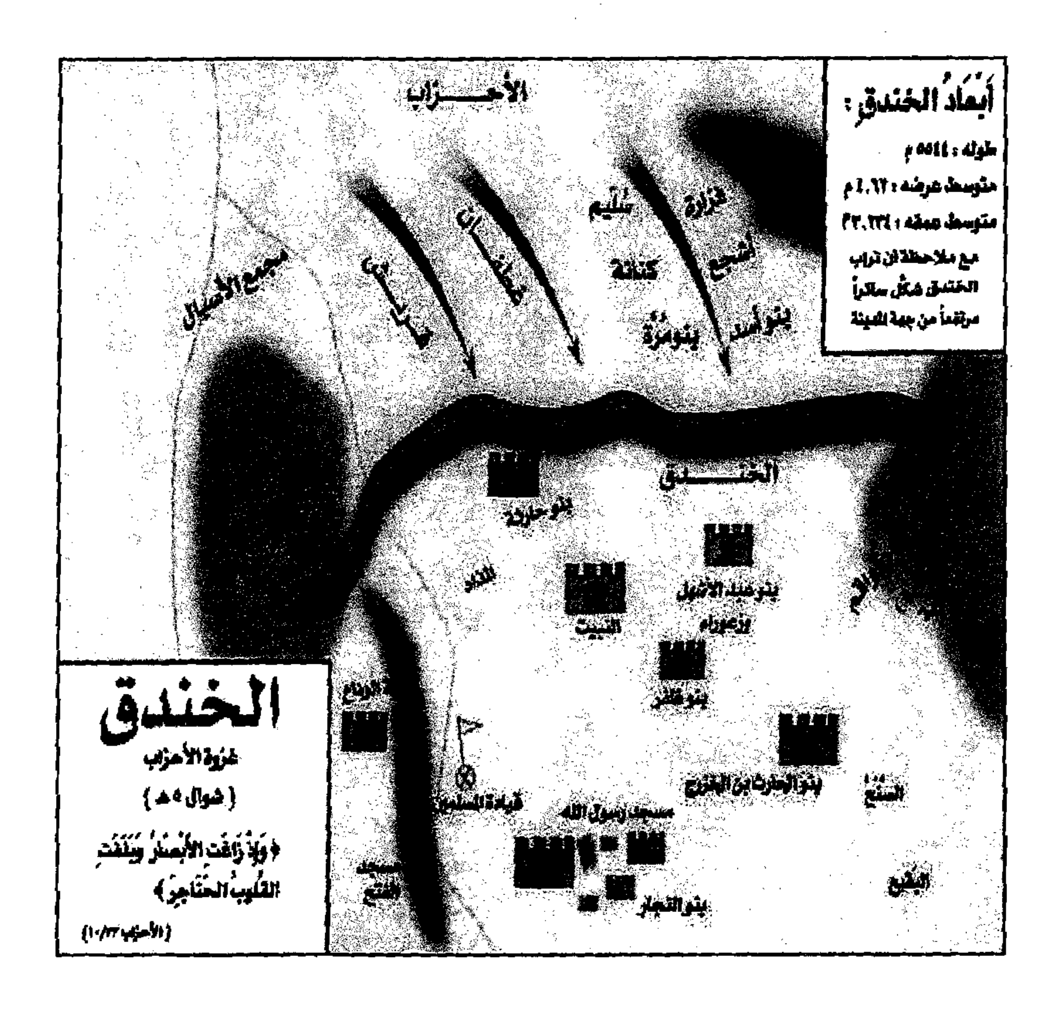

أيلة
تبوك
تيماء
مصر
الوجه
خيبر
ذي أمر
٣
المدينة المنورة
٢
بنو سليم
١
السويق
٤
بحران
٥
إلى القردة
ينبع
مكة المكرمة
جدة
الطائف
النوبة
أبرز مظاهر النشاط العسكري للمسلمين بين غزوة بدر وغزوة أحد
١- غزوة السويق، ذي الحجة ٢هـ. ٢- غزوة الكدر محرم ٣هـ. ٣- غزوة ذي أمر ربيع الأول ٣هـ. ٤- غزوة بحران جمادى الأول ٣هـ. ٥- سرية زيد بن حارثة ﷺ جمادى الثانية.
إعداد المؤلف

غزوة أحد. أطلس السيرة. المغلوث:٢٤٣



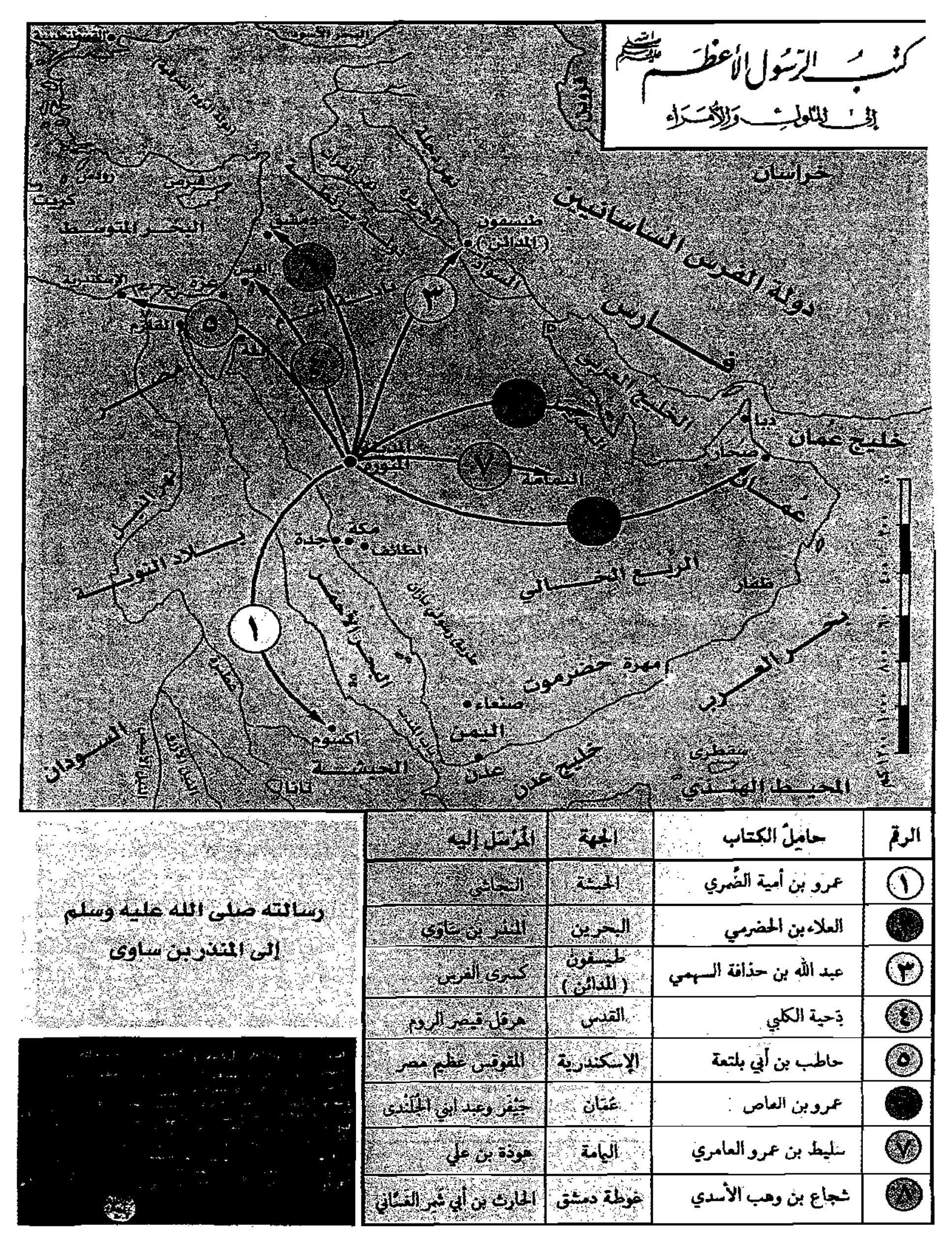

دومة الجندل
أيلة
تبوك
تيماء
الوجه
مصر
غزوة دومة الجندل
سرية أبي سلمة إلى « قطن »
المدينة المنورة
غزوة بدر الموعد
سرية بئر معونة
غزوة حمراء الأسد
سرية الرجيع
غزوة المريسيع
سرية ابن أنيس إلى عرنة
ينبع
العيص
رابغ
النوبة
جدة
مكة المكرمة
الطائف
أبرز مظاهر النشاط العسكري للمسلمين بين غزوة أحد و الخندق
غزوة حمراء الأسد، شوال ٣هـ ٢- سرية أبي سلمة إلى " قطن " محرم ٤هـ ٣- سرية عبدالله بن أنيس إلى عرنة محرم ٤هـ . ٤- سرية المنذر بن عمرو إلى بئر معونة، صفر ٤هـ ٥- سرية مرثد بن أبي مرثد إلى الرجيع. ٦- غزوة بدر الموعد ذي القعدة . ٧- غزوة دومة الجندل، ربيع الأول ٥ هـ . ٨- غزوة المريسيع شعبان ٥هـ.
إعداد المؤلف

أطلس السيرة النبوية. شوقي ضيف. ١٣٧.





١- غزوة الغابة، محرم ٧هـ. ٢- غزوة ذات الرقاع، ٧هـ. ٣- غزوة فتح خيبر. ٤- سرية عمر بن الخطاب ﷺ إلى تربة. ٥- سرية أبي بكر الصديق ﷺ إلى بني كلاب. ٦- سرية بشير بن سعد ﷺ إلى بني مرة بفدك. ٧- سرية غالب الليثي ﷺ إلى الميفعة. ٨ - سرية أبي العوجاء ﷺ إلى بني سليم. ٩- سرية غالب الليثي ﷺ إلى بني الملوح بالكديد. ١٠- سرية شجاع بن وهب ﷺ إلى جمع من هوازن. ١١- سرية كعب بن عمير ﷺ إلى ذات أطلاح. ١٢- معركة مؤتة ٨هـ. ١٣- سرية عمرو بن العاص ﷺ إلى ذات السلاسل. ١٤- سرية أبي قتادة ﷺ إلى خضيرة وبطن إضم



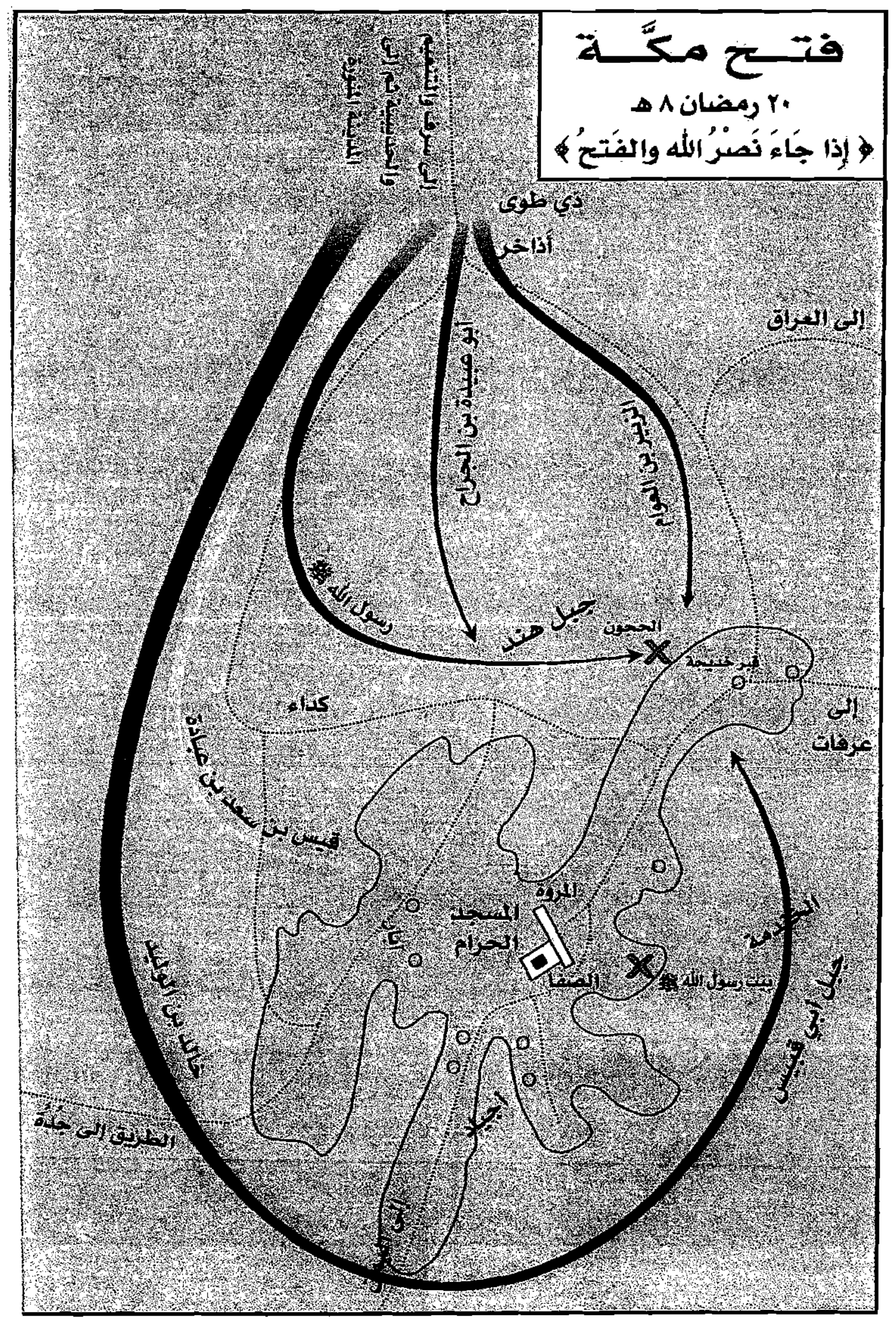
الرقم	حاملُ الكتاب	الجهة	المُرسَل إليه
١	عمرو بن أمية الضَّمري	الحبشة	النجاشي
٢	العلاء بن الحضرمي	البحرين	المنذر بن ساوي
٣	عبد الله بن حذافة السهمي	طيسفون (المدائن)	كسرى الفرس
٤	دِحية الكلبي	القدس	هرقل قيصر الروم
٥	حاطب بن أبي بلتعة	الإسكندرية	المقوقس عظيم مصر
٦	عمرو بن العاص	عُمَان	جَيفر وعبد ابني الجُلَندى
٧	سليط بن عمرو العامري	اليمامة	هوذة بن علي
٨	شجاع بن وهب الأسدي	غوطة دمشق	الحارث بن أبي شمر الغسّاني

رسالته صلى الله عليه وسلم
إلى المنذر بن ساوى

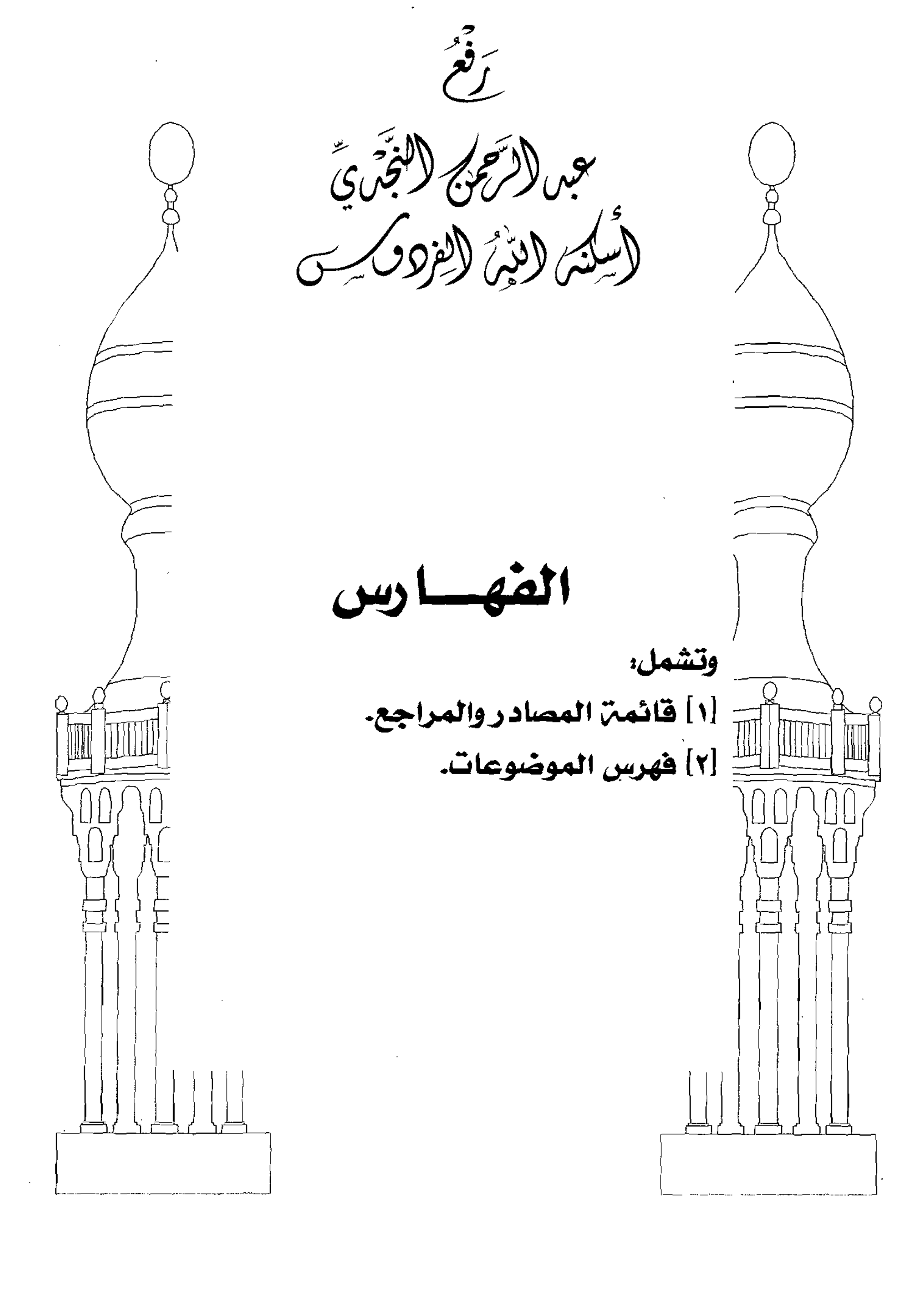
- ١٦٣ -

أطلس السيرة، شوقي ضيف.

شوقي أبو خليل / أطلس السيرة: ١٩٨



-١٩٨-



الفهـــارس

وتشمل:

[١] قائمة المصادر والمراجع.

[٢] فهرس الموضوعات.

قائمة المصادر والمراجع

[١] القرآن الكريم.

ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، ت: (٦٣٠هـ).

[٢] أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار إحياء الثراث االعربي، بيروت.

الألباني: محمد ناصر الدين:

[٣] صحيح سنن الترمذي، مكتب التربية العربي لدول الخليج. ط/ الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٦م. الرياض.

[٤] السلسلة الصحيحة:حديث: مكتبة المعارف – الرياض

الألوسي: محمود ت: (١٢٧هـ).

[٥] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مكتبة دار التراث،القاهرة.

ابن ماجة : محمد بن يزيد القزويني، (٢٧٥هـ).

[٦] سنن ابن ماجة، مراجعة محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، ت: (٢٥٦هـ).

[٧] صحيح البخاري: المكتبة الإسلامية، استانبول، ١٩٧٩م.

البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين ت: (٤٥٨هـ).

[٨] دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥ هـ.

[٩] السنن الكبرى، مراجعة محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.

الترمذي: محمد بن عيسى، ت: (٢٧٩هـ).

[١٠] سنن الترمذي، مراجعة أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث، بيروت.

ابن تيمية: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ت: (٧٢٨ هـ).

[١١] الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم. الأجزاء، ٧، ١٩، ٢٨. النبوات، دار الكتب العلمية،بيروت، ١٤٠٢ هـ.

[١٢] النبوات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢ هـ.

جمجوم: سميرة محمد:
[١٣] المعوقون للدعوة الإسلامية في عهد النبوة وموقف الإسلام منهم، دار المجتمع، جدة،١٤٠٧هـ.
الحاكم: أبو عبد الله محمد بن عبد الله، ت: (٤٠٥ هـ).
[١٤] المستدرك على الصحيحين، مراجعة مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ.
ابن حبان: محمد بن حبان البستي، ت: (٣٥٤ هـ).
[١٥] صحيح ابن حبان، مراجعة شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٤هـ.
ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني ت (٨٥٢ هـ).
[١٦] الإصابة في تمييز الصحابة، إعداد أبو هاجر محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.
[١٧] فتح الباري بشرح صحيح البخاري، قرأ أصله تصحيحاً وتعليقاً الشيخ عبد العزيز بن باز، ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.
ابن حزم: محمد بن حزم الأندلسي: ت: (٤٥٦هـ).
[١٨] جوامع السيرة: تحقيق إحسان عباس و ناصر الدين الأسد نشر حديث أكاديمي، فيصل آباد، باكستان، ١٤٠١هـ.
حمادة: فاروق:
[١٩] مصادر السيرة النبوية وتقويمها، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط: الأولى ١٤٠٠هـ.
حمزة: فؤاد حمزة:
[٢٠] قلب جزيرة العرب، المطبعة السلفية،مصر، الروضة،١٣٥٢هـ.

ابن حنبل: الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد،ت: (١٤٢).

[٢١] مسند الإمام أحمد، مؤسسة قرطبة، مصر، مصور عن الطبعة الميمنية.

ابن خلدون:عبدالرحمن بن محمد ت:٨٠٨هـ.

[٢٢] العبر (تاريخ ابن خلدون) بيروت، ١٣٩٩هـ.

خليل، عماد الدين،

[٢٣] دراسة في السيرة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: السادسة، ١٤٠٢هـ

رزق الله: مهدي رزق الله:

[٢٤] السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية:ط/ الأولى. الرياض١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

الزبيري:أبو عبد الله المصعب بن عبد الله ت: (٢٣٦ هـ).

[٢٥] نسب قريش، تصحيح وتعليق ليفي بروفنسال، ط: الثالثة، دار المعارف، القاهرة.

زرزور: عدنان محمد.

[٢٦] علوم القرآن، المكتب الإسلامي، بيروت، ط: الأولى، ١٤٠١هـ.

ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع، ت: (٢٣٠ هـ).

[٢٧] الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.

السمهودي:علي بن أحمد ت: ٩١١هـ.

[٢٨] وفاء الوفاء، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

شاكر: محمود :

[٢٩] التاريخ الإسلامي "السيرة": المكتب الإسلامي ط: الأولى ١٣٩٩هـ.

الشنقيطي:محمد الأمين ت: ١٣٩٣هـ:

[٣٠] أضواء البيان في إيضاح القرآن، ١٤٠٣هـ

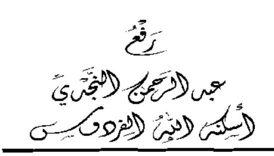
الشوكاني: محمد بن علي، ت: (١٢٥٠هـ).

[٣١] فتح القدير، الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ، دار الفكر، بيروت.

ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد ت: (٢٣٥ هـ).
[٣٢] الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق عامر الأعظمي، الدار السلفية، بومباي، الهند.
آل شيخ: عبد الرحمن بن حسن:
[٣٣] فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، طبع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض ١٤٠٣هـ.
صبحي الصالح:
[٣٤] علوم الحديث ومصطلحه: دار العلم للملايين، بيروت، ط: السادسة عشر، ١٩٨٦م.
الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب، ت: (٣٦٠ هـ)
[٣٥] المعجم الكبير، مراجعة حمدي السلفي، مكتبة العلوم والحكم، الموصل
الطبري: محمد بن جرير: ت ٣١٠هـ
[٣٦] تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار سويدان، بيروت.
ابن عبد الوهاب: محمد ت: ١٢٠٦ هـ:
[٣٧] مختصر سيرة الرسول، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة البيان، دمشق ط: الثالثة، ١٤١٤هـ.
العلي: إبراهيم العلي:
[٣٨] صحيح السيرة النبوية، دار النفائس الأردن، ١٤١٦هـ.
العمري: أكرم ضياء:
[٣٩] السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة،
الغزالي: محمد:
[٤٠] فقه السيرة: دار الكتب الحديثة، مصر، ط: السابعة، ١٩٧٦م.

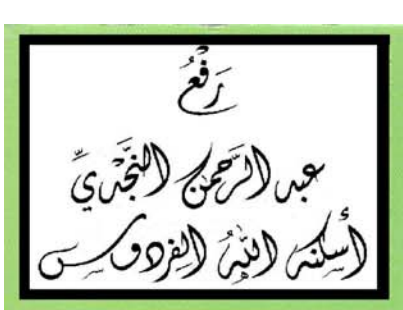
ابن القيم: محمد بن أبي بكر، ت: (٧٥١ هـ).
[٤١] زاد المعاد، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى ١٣٩٩هـ.
ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمرو ت: (٧٧٤هـ).
[٤٢] البداية والنهاية، ط: الثانية، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٧م.
[٤٣] تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمد البنا وآخرون. دار الشعب، القاهرة.
[٤٤] السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٣هـ.
[٤٥] السيرة النبوية، دار المعرفة، بيروت، ١٣٥٦هـ.
المباركفوري: صفي الرحمن:
[٤٦] الرحيق المختوم. مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الشرعية، ط.٣، ١٤٢٧هـ.
مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري ت: (٢٦١هـ).
[٤٧] صيح مسلم، مراجعة محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٤هـ.
الندوي: السيد سليمان، ت (١٣٧٣) هـ.
[٤٨] الرسالة المحمدية، مكتبة دار الفتح، دمشق، ١٣٩٣هـ ط: الثالثة.
النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، ت: (٣٠٣هـ).
[٤٩] السنن الكبرى، مراجعة عبد الغفار، وسيد حسن، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ.
أبو نعيم الأصبهانيي: أحمد بن عبد الله ت: ٤٣٠هـ.
[٥٠] دلائل النبوة، دار الباز، مكة المكرمة، طبع بمصر ١٣٩٧ هـ.
ابن هشام: عبدالملك ت: (٢١٨هـ).
[٥١] السيرة النبوية، شرح وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، توزيع دار الإفتاء بالرياض.

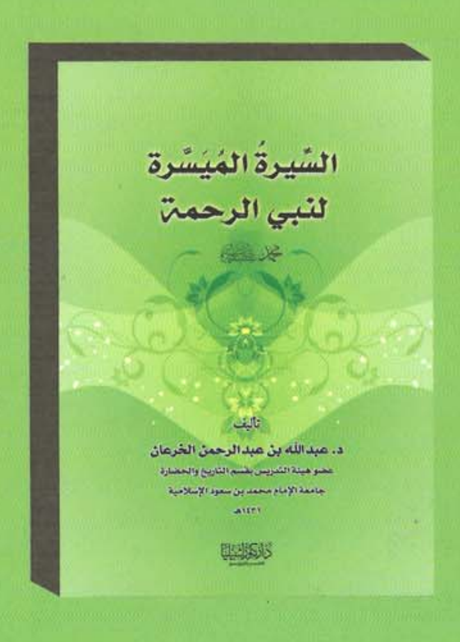
الهيثمي: علي بن أبي بكر، ت: (٨٠٧ هـ).
[٥٢] مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ط، الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢ هـ.
وانلي: خير الدين:
[٥٣] الصحيح من معجزات المصطفى: دار ابن الأثير، الكويت ط: الأولى، ١٤٢١هـ.
أبو يعلى: أحمد بن علي بن المثنى، ت: (٣٠٧هـ).
[٥٤] مسند أبي يعلى، مراجعة حسين سليم، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٤٠٤هـ.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة





ردمك: ٦-٢٤٣-٥٨-٩٩٦٠-٩٧٨